

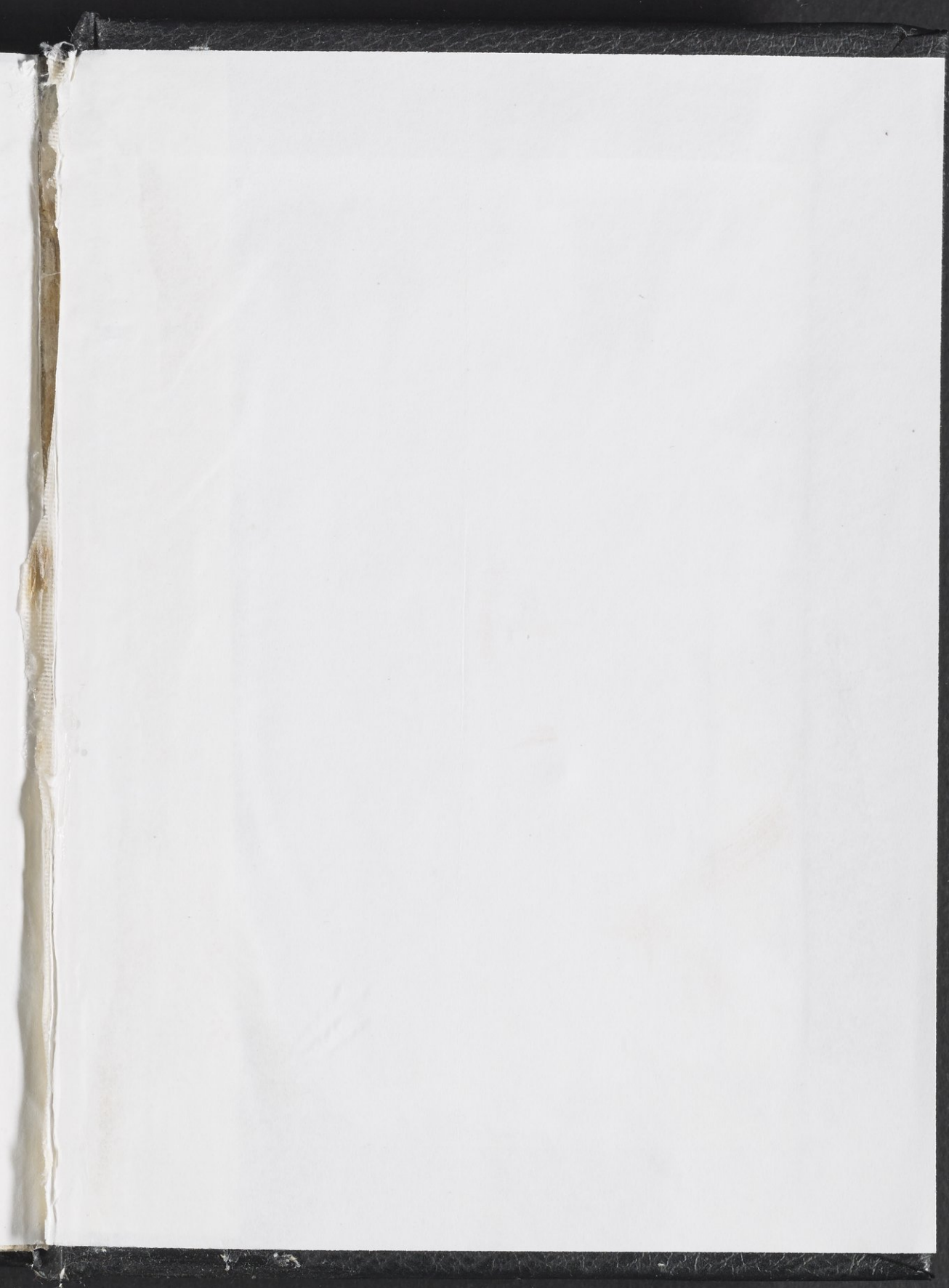
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01843 7768



7
14
73
157







PG

247

T3
1936

7X5L

٧١

ID. no. p3029
1-12

قصة

الكفاح بين روما وقرطاج

بقلم

توماس الطويل

دار النشر الحديث

٧ شارع فؤاد الأول القاهرة

937/04

T 315

Mck

937, 04

ط. ت. ق

18911

تقديم

للاستاذ النبيل
محمد فريد أبو صدي

ما زال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون
منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة في حاضرهم إلى ذلك،
فإن تجربة العصور في حاضرها لا تغني الناس إذا
شاءوا التماس الحكمة الاجتماعية أو استبانة القانون
الإنساني، وذلك أن حوادث السنين لا تتصل نتائجها
بمقدماتها إلا بعد مضي القرون ولا تكمل عبرتها
إلا بعد توالي الأجيال. وليس في تكرار التمثل
بعبر الزمان إعادة ولا في تعدد النظرات إليها إباحة
لها أو ابتذال، فإن الحادثة الواحدة قد تنطوي على

مالا حد له من العظاات ، وقد يتناولها الناس في كل
عصر فيجد كل منهم فيها ناحية من المعنى مخالف لما
وجده سواه من معانيها . ولقد كان النضال بين
قرطاجنه ورومة أحد هذه المواقف التاريخية الفذة
التي هزّت العالم هزة قوية في إبانها، وما زالت
العصور التالية ترجع إليه وتلتفت صوبه، وكل منها
يشير إلى ما يبتغى من عبرة فيه أو يتحدث عنه
حديثاً يوحيه إليه موقع الضوء عليه في ناظره .
وهكذا كان شأن الأستاذ «توفيق الطويل» مؤلف
هذا الكتاب عندما تناول بالبحث هذا النضال
لقد نظر المؤلف الفاضل إلى تلك الحرب التي
يسمياها التاريخ بالحرب البونية كما نظر سواه إليها
ووصفها ورسم لنا منها صورة خاصة لا أظن أنها
تشابه صورة أخرى رسمها أحد في لغة العروبة
فهو قد استدرج الذهن من موقعة إلى موقعة
ومن صورة إلى صورة حتى بلغ به النهاية فأشار إليه

مومناً إلى ما تحت قدميه فاذا بالعبرة التي كان يرمى
إليها ماثلة واضحة لا يستطيع أحد أن يخالف فيها
ولقد كانت الشعوب الإنسانية منذ القدم
ينافس بعضها بعضاً في كل ميادين النشاط والمطامع،
فلقد كانت تتنافس في امتلاك الأراضي وفي
الارتفاع بالمراعى. وكانت تتنافس في القوة والمنعة
ثم هي تتنافس اليوم في كل هذه المعاني بوسائل
سلبية تارة وحرية أخرى. غير أن ذلك التنافس
الإنساني كانت له مظاهر عدة، فقد كان يحدث بين
وحدات القبائل الصغيرة في دائرة محدودة كما كان
يحدث بين الأجناس والشعوب في دوائر أوسع.
فانا لا نكاد نجد عصرًا خلا من محاولة شعب من
شعوب الأرض سيادة سائر الشعوب ونبوغ
شعب آخر يتصدى له بالدفاع، فاذا بشعوب الأرض
موزعة بين الزعيمين المتناضلين حتى ينتهى الأمر
بإذعان أحدهما أو انقراضه وضياع سلطانه. وقد

حاول بعض علماء التاريخ أو الاجتماع أن يخلصوا
من استقراء ما حدث من ذلك النضال في كل
العصور إلى أن أجناس العالم بينها طائفتان كبيرتان
لا تفتأ تميل إلى النزاع والنضال على سيادة الأرض
فيسمون طائفة من الطائفتين شرقاً والطائفة
الأخرى غرباً. ويقول هؤلاء العلماء إن النضال بين
هاتين الطائفتين دائم مستمر استمرار الليل والنهار
فقد يحدث أن شعبين من طائفة واحدة يشوران
حيناً للنضال ثم لا يلبثان أن يستقرا على نوع من
التفاهم والتجاور، في حين أن الطائفتين الكبيرتين
لا يستقر بينهما النضال بل لا تزالان تتصاولان
وتتصارعان فاما إحداهما سيدة غالبية والأخرى
تناضل في سبيل الحياة تجاهها، وإما أن تنقلب الآية
فتصبح السيدة مسودة والمستضعفة سيدة. وهؤلاء
العلماء يجعلون قرطاجنه ورومة رمزين لهاتين
الطائفتين الكبيرتين في العصور التي سبقت الميلاد

بقرنين أو ثلاثة . كما أنهم يجعلون حرب الفرس
واليونان رمزاً لذلك النضال قبل ذلك وحرب العرب
والروم ثم الفرنج رمزاً له في العصور الوسطى .

ومهما يكن من أمر هذا الرأي فإننا لا نستطيع
أن نغضى عما فيه من الضعف والتعسف فالحقيقة
التي لا شك فيها هي أن أمم الأرض تتنازع
وتتناضل فيما بينها . وأن ما بقي بعد ذلك من التحديد
ناشئ من الظروف والحوادث . ولقد كان نضال
قرطاجنه ورومه بغير شك من أروع مواقف
النزاع العالمي . ولكن لم تكن رومه لتمثل عند ذلك
شيئاً اسمه الغرب ولم تكن قرطاجنه تمثل شيئاً
اسمه الشرق ، فقد كانت مصر عند ذلك تحت سلطان
البطالسة العظام وما كانت قرطاجنه إلا مدينة
نامية تستولى على المال وتستخدمه في سبيل بسطة
سلطانها بأن تسخر الجيوش لتنتصر لها في حروبها
وما كان لمثل هذه المدينة أن تكون زعيمة الشرق

أو الآخذة بزمامه في نضال السيادة العالمية . بل لقد
كانت مصر أجدر منها بذلك وأحرى .

ويلوح لي أن المؤلف الفاضل لا يذهب مع
أصحاب الرأي المتقدم فانه وإن علم أن قرطاجنه لها
رحم بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق في نزاع
الأجناس بل نظر نظرة أخرى تختلف كل الاختلاف
عن تلك الوجهة التي أشرنا إليها، فهو لا يتعصب لها
ولا يراها تمثل مثلاً من أمثلة الشرق العليا بل إنه
لينظر إلى المثل العليا لرومه على أنها أقرب إلى تمثيل
مثل الإنسانية عامة . وهو يتحدث عن حوادث
نضال قرطاجنه ورومه حديث من يريد أن يتغلغل
دون السطح ليتخذ من بحته عظة تنفعنا في حاضرنا
فهو يريد أن يوجه أنظارنا إلى أن قرطاجنه قد فئيت
لأنها كانت جديرة بالفناء ، وأن رومه قد بقيت
ونمت لأنها كانت جديرة بالبقاء والنمو ، ثم هو يشير لنا
وهو يسير في حديثه إلى الأسرار التي أهلت كلا من
المدينتين إلى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها .

خلفت الأساطير قصتين عن منشأ المدينتين
المتناضلتين، وما أخرى هاتين الأسطورتين أن تكونا
مختصراً لتاريخهما. فرومه تنشأ في العراء وتغذوها
الوحوش ثم ترويهما الدماء ولكنها ترفض الاستكانة
إلى الدعة ويطلب أهلها العيش في ظلال المكاره فلا
تزال مثلها العليا الخشونة والقوة والقسوة .
وقرطاجنه تنشأ هرباً من مطامع الطامعين لتنفرد
في مأمن تتمتع فيه برغد العيش وذكريات السعادة
ولكنها لا تلبث أن تحرق نفسها دفاعاً لمطامع
جديدة اتجهت إليها من ناحية أخرى . وما كان
التاريخ ليحدثنا عن المدينتين إلا هكذا إذا شاء
اختصار حكاية كل منهما في كلمات قليلة .

وإنه لمن ألد المطالعات أن يتتبع القارئ
وصف هذا الكتاب لحوادث تلك الحقبة من
الدهر ، فإن فيه خصالاً ثلاثاً تسمو به : دقة في
البحث، ونفوذ في النظر ، وجمال في الأسلوب .

وإني لأتهنئ هذه الفرصة لتهنئته تهنئة حارة على ما
أصاب من إجادة وتوفيق محمد فريد أبو حريد

تاريخ الحوادث

الواردة في هذا الكتاب

تناول الكثير من كتب التاريخ استعراض الحروب التي
ثارت بين روما - قرطاجنه. ولكن هذا الكتاب «يحكى» سيرة
الكفاح بين هذين البلدين، فهو لا يهتم بالحروب إلا من
حيث دلالتها على الروح المعنوية في كلا الشعبين، ولهذا
تعمدت الأيجاز في سردها، وحاولت الخروج عن نطاقها،
وتصوير آفاق أخرى لعل القارئ العربي لم يألفها في كتب
التاريخ. على أن القارئ الذي يريد أن يفهم الجو المعنوي
الذي كان يتنفسه هذان الشعبان قد لا يقنع بقصة هذه
الحوادث التي تتعاقب أمام ناظريه، وتتسلسل مردودة إلى عللها
وأصولها. وربما شعر بالحاجة إلى معرفة الزمن الذي وقعت
فيه هذه الحوادث. ولهذا آثرت أن أذكرها في هذا الثبت
ليرجع إليها من أراد :

ق. م.

٢١ أبريل ٧٥٣

نشأة روما

٨٥٠

نشأة قرطاجنه

٥٠٩

أول معاهدة بين قرطاجنه وروما

رحلة هانو وهميلكو Hanno & Himilco لاستعمار

٥٠٠

إفريقيا الغربية واستكشاف المحيط الأطلنطي

٢٧٦

إخفاق يبروس في صقلية وعودته إلى بلاده

٢٧٢

موت يبروس

٢٧٠ — ٢٦٦

سيادة روما في إيطاليا

قطاع الطرق المتمردون يطلبون النجدة من قرطاجنه

٢٦٥

وروما . إرسال النجدة من كليهما

٢٦٤

بدء الحرب البونية الأولى (لامتلاك صقلية)

٢٦٠

هزيمة قرطاجنه في مايلي Mylae

اندحار الأسطول القرطاجني في :

٢٥٦

إكونومس Economus

٢٥٦

حملة رجيلس Regulus لفتح إفريقيا

٢٥٦

هزيمته على يد الكزانتيب

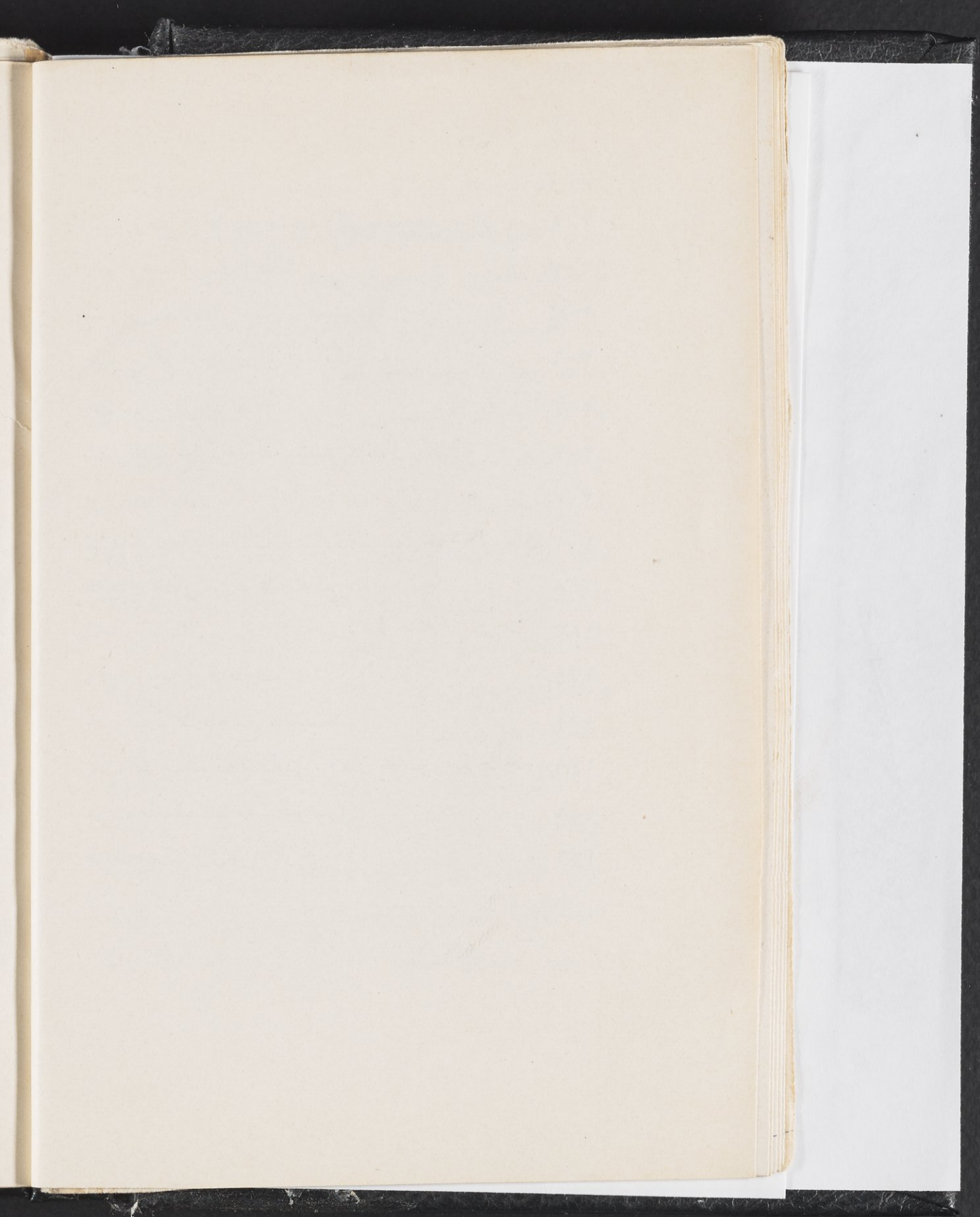
٢٤٩

مولد هانيبال Hannibal — حصار ليلييوم

ق. م

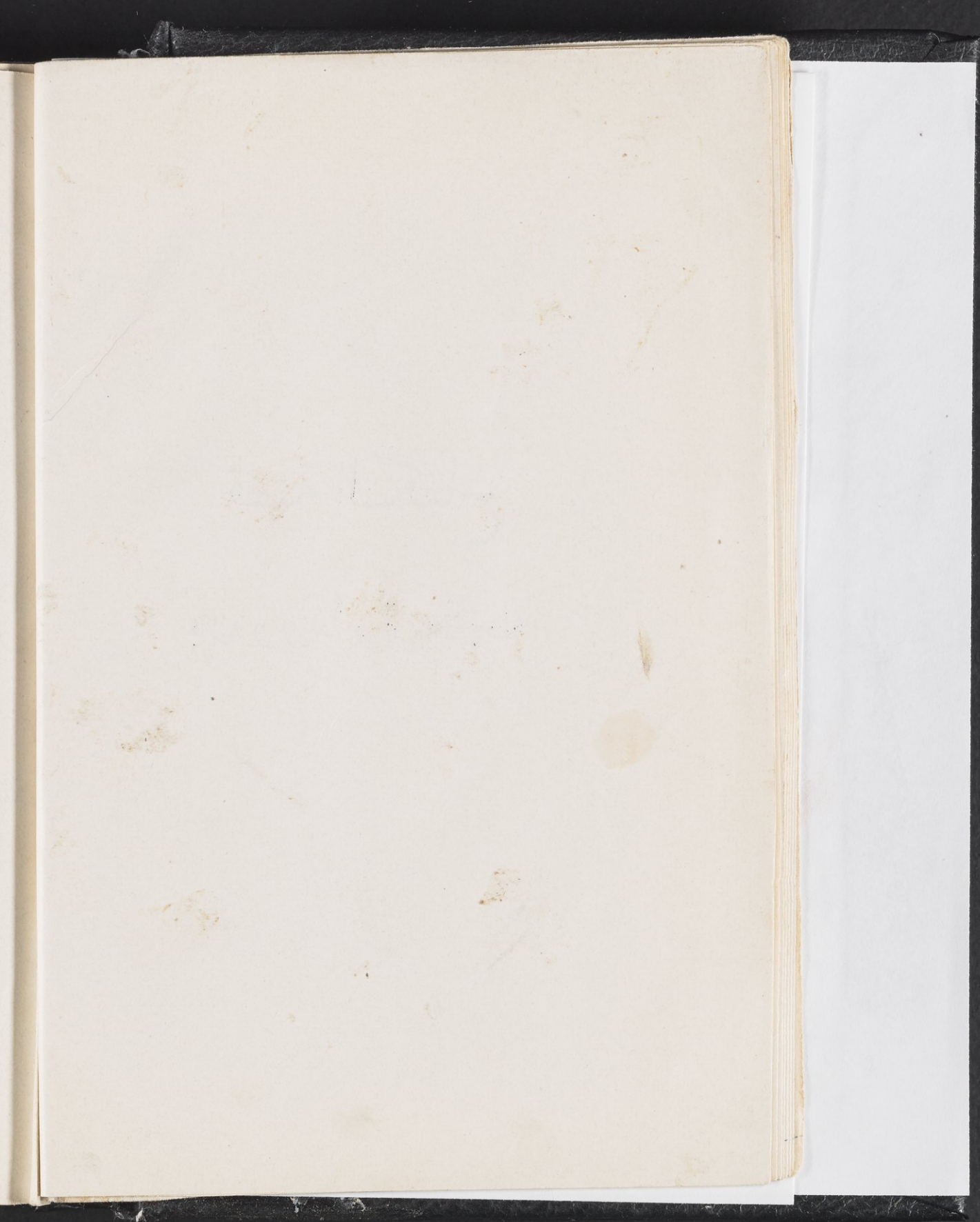
- انتصار قرطاجنه في دريبانوم Drepanum ٢٤٩-٢٤٨
- توفيق الحملة التي قام بها هملكار برقة على شاطئ إيطاليا وصقلية ٢٤٣
- هزيمة القرطاجنيين في إيجيت Aagates ٢٤٢
- نهاية الحرب البونية الأولى (ضياح صقلية) ٢٤١
- الحرب بين قرطاجنه وقطاع الطرق ٢٤١ - ٢٣٧
- غزو أسبانيا: هملكار - هسدروبال - هانيبال ٢٣٦ - ٢١٩
- موت هملكار Hamilcar ٢٢٩
- مصرع هسدروبال Hasdrubal ٢٢١
- حصار هانيبال لسغنتم Saguntum ٢١٩
- بداية الحرب البونية الثانية (لامتلاك إيطاليا) ٢١٨
- هانيبال يعبر الألب - ويتخطى الأبنين - ٢١٨
- موقعة تريبيا Trebia ٢١٨
- موقعة ترازمين Trasimenus ٢١٧
- مجزرة كانى Can rae ٢١٦
- فتح الرومان لسيرا كوز Syracuse ٢١٢
- استيلاء هانيبال على تارنتوم Tarentum ٢١٢
- سقوط كابوا Capua ورحيل هانيبال إلى روما ٢١١
- حملة سيبيو Scipio إلى أسبانيا ٢١٠

- ق. ٢٠
 ٢٠٩ استيلاؤه على قرطاجنه الجديدة (التي بناها هسدر وبال)
 ٢٠٧ دخول هسدر وبال إيطاليا
 ٢٠٧ متورس Metaures واستشهاد هسدر وبال
 ٢٠٦ خروج القرطاجنيين من أسبانيا
 ٢٠٤ حملة سيبيو إلى افريقية
 ٢٠٣ مجلس الشيوخ في قرطاجنه يستدعي هانيبال . عودته
 ٢٠٢ يوم زاما Zama
 ٢٠١ نهاية الحرب البونيه الثانية - سيادة الغرب في حوزة الرومان
 ١٩٥ هانيبال ينطلق من قرطاجنه شريداً
 ١٨٣ انتحار هانيبال
 ١٧٤ وفود روما في قرطاجنه
 ١٥١ حروب قرطاجنه مع ماسينيسا -
 ١٤٩ بداية الحرب البونيه الثالثة - (الرومان يحاصرون قرطاجنه)
 ١٤٨ موت ماسينيسا - ملك النوميديين
 ١٤٦ قرطاجنه تتوارى من التاريخ



قصة الكفاح

بين روما وقرطاجنه





خريطة حوض البحر الأبيض
وفيه مختلف البقاع التي يجتمع إليها القاري،



الاطلس
ط

نشأة قرطاجنة

آذن بالرحيل النصف الأول من القرن التاسع قبل
الميلاد بعد أن استوفى مليك « صور » أنفاسه ، وخلف
وراءه قتي يافعا تقلد الملك بعده في فيض من الطموح
والجشع ، وقتاة يتمشى الجمال الفتان في كيانهما ، وتشيع الأنوثة
الناضجة في جسمها . فبنى بها خالها أسرباس Acerbas
وهو كاهن مهيب الجانب موفور الحظ من إكبار الناس
لا يعلوه بين الشعب إلا المليك وحده ، وكان إلى هذا ثريا
عريض الثراء تملكه الجزع على أمواله الطائلة ، فغيبها في
أحشاء الأرض بعيداً عن مسكنه حتى لا تمتد إليها يد أثيمة
تبغى العبث بها . أو تقع عليها عين باغية تريد العدوان
عليها .

وكان يشتد به القلق ويثور بخاطره الجزع كلما ذكر
المملك وما يضطرم في نفسه من جشع . نخافه خوفاً شديداً
وإن كان ابناً لأخته وأخاً لزوجته ، لأن بريق الذهب
كثيراً ما يسفُّ بحرمة الرحم إلى مرتبة النسيان . ويهوى
بالنفوس إلى درك الاتهام ، ويهبط بقداسة الأخلاق
إلى مواطئ النعال .

وطارنبأ الكنز المغيب في جوف الأرض حتى اتصل
بسمع الملك . فحرك لامتلاكه رغبته وإن تخطى في سبيله
ماتعارف عليه الناس من مثل حسنى ومبادئ عليا . فأمر
بذبح خاله « أسرباس » توطئة لأشباع نهمته . وإرضاء شهوته .
واستشاطت زوجة القليل غضبا وأجنَّها الألم لهذه
الخطيئة التي أقدم على ارتكابها أخوها ، فعافت مرآه
وأشاحت بوجهها عنه ، واستوحشت نفسها من نفسه .
مرضاة لأنوثتها ، واستجابة للعدالة حين تحتقر الزوجة
التي ترى مصرع زوجها فتحتمل فجيعتها فيه ، ولا تثور على
قاتله ولو كان أقرب الناس إليها .. فان عاطفة الزوجية
أحرى بالأعزاز وأخلق بالرعاية من الأحساس بالأخوة ،
إن كان لابد من إثارة واحد على الآخر ، !

وهكذا قضت « إليسا Elissa » - وكان هذا اسمها -
أياماً، ركدت فيها علاقتها بأخيها، واكفهر بينهما جو المودة
حتى عزّ عليها احتمالها، فاصطنعت البشر وأقبلت عليه توهمه
بأن خطيئته قد درست في نفسها وعفى عليها النسيان .
كانت تبسم في وجهه وفي جوفها بركان ألم يضطرم ويهم
بأن يلقي ناره وحممه . حتى قالت له ذات يوم : لقد احتملت
من أجل زوجي فوق ما أطيق من لوعة وألم، واعتزمت ألا
أحرك في نفسي الأسف على فائت ، وأن أستقبل حياة
جديدة في ظلالك ، فأفارق مسكني - مبعث القلق ومصدر
الذكريات الأليمة التي لا تنقطع - وأفد على بيتك وأعيش
في كنفك وأستمد من حياتي معك ما يُنسيني لوعة الماضي
والمذكرى .

فشاع الرضا في نفس الملك . وتوقع أن يصيب
- فوق مرضاتها عنه - ما خلفه لها زوجها الصريع ..
واطمأن إليها حتى غفلت عينه عن رقابتها . وأرسل خدمه
ليمدوها بالعون في نقل متاعها . فهيمنت على شعورهم
وكسبت عطفهم حتى استحالوا عوناً لها على تنفيذ الخطة
التي دبرتها للفرار ! ..

وأبحرت بما تملك من كنز ومتاع إلى « قبرص »
مصطحبة في ركبها من سرها أمرهم وأعجبها سلوكهم . ثم
شدت رحالها من هذه الجزيرة حاملة معها فئة من حسان
العذارى ليتزوج منهن رجالها .. فلما بلغ الملك فرارها
اهتاج غضبا واعتزم أن يطاردها أنى حلت حتى يظفر بها
ويطعنها الطعنة التي تلحقها بزوجها .. ! وقاتل الله المال
— مبعث الطمع الذي لا ترده صلات رحم . ولا يدفعه
سلطان مبدأ .. !

وتوسلت إليه أمه أن يعدل عن قتلها . والتست عنده
العفو عنها والرضاء عن مسلكها . فاستجاب لها مخافة أن
تلحقه لعنة الآلهة ويدركه انتقامها — بهذا تنبأ له
العرافون وأنباؤه نبأ المدينة التي ستنشئها أخته بعد حين .
وحذروه من مقاومتها وأعلنوه بالشر ينتظره في غده ، إن
مانع في تأسيس هذه المدينة التي سيقدر لها أن تكون
أعظم مدن الأرض حظا وأوفرها في القوة نصيبا .
ثم تقدمت « إليسا » — أو ديدو Dido كما كانوا يسمونها
أحيانا — إلى إفريقية ووجدت أن الناس بها يميلون للأغراب
ويحنون إلى لقيائهم ، ويقبلون على التجارة عن رضا وشغف .

فابتاعت قطعة أرض تربض على خليج تونس في شاطئ
إفريقيا الشمالى، وتعاقدت مع ملاكها — اللويين — على
أن تدفع لهم ثمنها أقساطا سنوية حتى يتم سداده.
ووفدت على هذا المكان كثرة من أهل البقاع المجاورة
واتجرت معه واشتهر بين الناس أمره وذاع نبؤه.
ودرجت في حجره مدينة جميلة أطلقوا عليها اسم
« قرطاجنة » Carthage أى المدينة الجديدة .

وازدهرت المدينة بعد هذا وشاع أمرها طولا وعرضا.
وكان الناس يتسابقون فى الحديث عن ملكتها « إيلسا »
ويتبارون فى الكلام عن فتنة جمالها وعدوبة صوتها ورشاقة
قوامها وظرف حديثها ولدونة جسمها . وما إلى هذا
بسبيل ولو لم يكونوا قد رأوها بعد . . .

واتصلت أحاديثهم بملك المغاربة فأرسل فى طلب الذين
يتزعمون المدينة الجديدة ، وقال لهم حين مثلوا بين يديه :
عودوا إلى ملكتكم وسلوها رأيها فى زواجى بها . فان
أبت فقد وطلت العزم على أن أثير فى وجهها حربا ضروسا
تملاء بالها قلقا وضيقا ، وتنتهى بمديتها الناشئة إلى
الخراب العاجل .

فلما عاد الرسل احتالوا في عرض هذا المطلب على
مسمع الملكة، وقالوا لها إن ملك المغاربة يبحث عن فرد
أوتي القدرة على تهذيب شعبه، وتعليمه كيف يستقبل الحياة
برفق. ويضرب في زحمتها بدعة، ويتصل بأهلها في وداعة.
ولكن من ذا الذي يهجر وطنه إلى شعب بربري يشبه أبنائه
الوحوش خشونة وجفافاً، ليهذب مشاعرهم ويرقق طباعهم
ويحمل نفسه هذه المشقة كلها . . ؟

وكانت الملكة قد أجنتها الفخر بوطنها الجديد، وملاء
الاعزاز به شعاب نفسها، فكانت تكثر من الحديث في
أمره. وتطيل التغنى بمستقبله. والترنم بالمجد الذي ينتظره.
وتغتني كل فرصة لتبث هذا الروح في نفوس المتصلين بها،
حتى يشيع هذا الاحساس في شعبها. فلما سمعت حديث
الملك الذي يبحث عن فرد يجعل شعبه أحسن بالحياة
وأشد تحركاً لها واستعداداً لتلقي مؤثراتها، قالت لمحدثيها:
إن احتمال الحياة العسرة الثقيلة ليهون في سبيل الوطن،
وما يعود على الأمم المجاورة من خير على يدنا، مردّه لنا
ومرجع فضله إلينا. ومن كره الاستجابة لخير الوطن
وضاق بها وإن كلفته العسر فقد أثم ولزمته الخطيئة.

فقالوا لها حكمت بلسانك يامليكة البلاد . ومن أشار
بأمر كان أخرى باتباعه . ثم بسطوا لها حقيقة الأمر
وأنبأوها بما يراد بها ، فأحست بأن ردها قد أوقعها في الشرك
وأحاط عنقها بالأغلال . فهي لا تملك العدول عن ردها ،
لأنها كانت تكبر عهدا ، وتحترم وعدها ، وتعتبر نفسها
مثل الشعب الأعلى الذي به يقتدى وعلى هداه يسير . . .
ولكنها لا تستطيع الاستجابة لهذا الاثم فما جشمت نفسها
مشاق السفر واحتملت أخطار الاغتراب إلا
مرضاة لزوجها في قبره . وحرصا على حرمة ذكراه .
وتكفيرا عن ذنبها في عجزها عن الثأر من قاتله . والآن
يراد بها أن تقدم على الزواج من غيره . وتستريح لنفسها
العدوان على ذكراه . فما أخرج المأزق وما أضيق السبيل
إلى الخلاص منه . . ؟

والتزمت الصمت قليلا . ومر بخاطرها طيف زوجها
الذي فجعها فيه جشع أخيها ، فحزنتها الذكرى إلى الحنين
إليه والتأسي عليه . وشاع الحزن في نفسها ، ودب الدمع
إلى عينيها ، فحاولت حبسه ، ولكنها انفجرت باكية تترثي
زوجها ، وتندب مصيرها . وكل جارحة في جسمها تنضح

لوعة وتفيض ألما . ثم طلبت إليهم أن يمهلوها ثلاثة أشهر تشبع فيها رغبتها في التأسى وحينها إلى تقديس الذكري .

وقبل انتهاء الأشهر الثلاثة أقامت في أحد الميادين كومة وقيد كبرى . وأشعلت النار فيها — على مرأى من شعبها — وقدمت لها القرايين من شياه وثيران . فلما التهمت النار ضحيتها تقدمت « إيلسا » إلى كومة الرماد الذي خلفته النار وارتقتها والسيوف إلى جانبها ، ثم اتجهت إلى الشعب الذي كان يحوطها ويلتف حولها وألقت عليه نظرة ملؤها الحسرة والألم وقالت :

« تطلبون إليّ أن أذهب إلى زوجي .. فهاأنذا ذاهبة ؟؟
ثم استلّست سيفها من غمد، وغيبته في صدرها . وخرت على الأرض جثة هامدة ملطخة بالدماء . !!

هذه هي نشأة قرطاجنة كما روتها لنا أساطير الأولين، أدى إلى تأسيسها وفاء الزوجة لزوجها . والحرص على البر بوعدها والوفاء بعهدها ... فلنمض إلى سيرة حياتها ومصير جهادها - كما يحكيه لنا علماء الاجتماع وأهل التاريخ - لنرى ما تُفضي إليه الجهود الجبارة عند من يُعوزُه احترام

النفس ، وينقصه إكبار الكرامة . ولتكشف لنا نوااميس
البقاء في تنازعه . وتتبدى أمامنا قوانين الجهاد في انتصاره
وإخفاقه . ولتضح لنا مكانة « البواعث » من مصير كل
كفاح ، ولنعرف بعد استعراض هذه المأساة نصيب
مصيرها من العدالة وحظه من الأنصاف .



كيف كان يحيا أهلها

تجارتهم — أسطولهم البحري — صفاتهم رجالا ونساء —
بيوتهم — حضارتهم — اتصالاتهم بالمصريين والأغريق —
دينهم — ماديتهم — زواجهم — جيشهم
- نظام حكمهم -

شبَّت قرطاجنة ودب النضوج في جسمها . وراحت
بحكم موقعها تتجر مع البلاد الدانية والبقاع القاصية .
حتى أصابت الغنى الذى ملأها شعوراً بتفوقها على
جيرانها . ومال بها إلى الجور على أملاكهم ، والسعى
لاستعمار بلادهم . . وقد دفعتها طبيعة حياتها إلى بناء
أسطول بحرى هياً لها سيادة الدنيا بأسرها في فنون
التجارة والملاحة . فترامى اسمها إلى سمع الناس في مشارق
الأرض ومغاربها . حتى أقبلوا عليها من مختلف البقاع
وشتى الأجناس . ولو قدر لك أن تتجول في طرقاتها

لرأيت أخلاطاً عجبية من مصريين وسودانيين ويونانيين
وقرطاجنيين وبرابرة وأسبان ... على أن في وسعك
أن تميز القرطاجنى من بين هؤلاء جميعاً من غير جهد
ولا مشقة . فهو يطالعك بشعره القصير ولحيته الطويلة
ووجهه الناطق بالطيبة . ويقبل عليك فتأخذك الروائح
العطرية المنبعثة من جسمه . وتدهشك الجواهر
الثمينة التى يحلى بها نفسه ...! ويزيدك معرفة به غطاء
رأسه الشبيه بطربوش العمامة عندنا . وحذاؤه الذى يماثل
« الصندل » فى وقتنا الحاضر . وثوبه الفضفاض المهلهل
الذى كان يشبهه الرومان بلباس الحمام ...! كل هذه
دلائل تتم عنه ، مشيرة إليه ، دالة عليه . وإن كانت طبقتا
الأثرياء والعبيد تختلفان عن هذا الوصف اختلافاً يبرره
التفاوت فى المال . فالأغنياء يتشبهون بالأغريق —
والمصريين فى أول أمرهم — ويحتدون مثاهم . ويلتمسون
عندهم وسائل الظهور بمظهر الأرسوقراطية والترف .
ويترفعون عن الاتصال بغيرهم من عامة الناس . أما
العبيد من أسرى الحروب فتنتطق وجوههم بآيات الضنك
ومعالم الضعة ..

أما النساء فهن في مستوى العبيد والخدم أو ما يقرب
من ذلك . فاذا استثنيت الثريات اللأى يحاكن
الأغريقيات في مظهرهن ويتاح لبعضهن العمل مع
الرجال في المرا كز الملحوظة في الكهنوت ، عرفت أن
القرطاجنيات تثقلهن الواجبات وتعو زهن الحقوق —
شأن النساء في جميع الشعوب التي ينقص النضوج نهضتها —
على أن أهم ما يلفت نظرك إليهن ، ويشغل ذهنك بهن :
جواهرهن الكريمة وروائحهن الزكية .

فاذا تركت المارات والمارين في مسيرهم ، وتيامنت
بنظرك أو تياسرت ، لراعتك كثرة المحال التجارية
والحوانيت الشبيهة بالصوامع تملؤها السلع وتكظها
البضائع . وقد جلس فيها ملاكها منربعين يساومون
عملاءهم في تباطؤ وإسراف من غير ملل ولا يأس .

فاذا ضقت بهذه الشوارع الضيقة التي لا يكاد نور
الشمس أن يهتدى إليها ، وتسملت إلى البيوت لتعرف
ما تنطوى عليه من ناس وأحداث ، رأيتهامقامة من حجر
تعلو في الجو ست طبقات أو أكثر من ست في سقوف
مسطحة ونوافذ من خشب . وأدهشك ازدحامها

بالسكان وامتلاء الحجرة الواحدة بأسرة كبيرة يتكدر
أفرادها بين جدرانها كما تفعل النمل في جحورها .
يفترشون أرضها كلما ناموا حتى يحين موعد العمل .

على أن البيوت تتميز في مستوياتها بتميز الأحياء
— شأن سائر المدن في مختلف العصور — فانك إن مضيت
إلى حيث يقيم الأغنياء في « حى مجارا » طالعتك آيات
العز ومعالم الترف وروائع الفن . فترى فى البيوت آثار
الحضارتين : المصرية والأغريقية . إذ كان أهل المدينة
يفزعون إلى مصر أول الأمر يلتمسون عندها ما يشاءون
من مظاهر الحضارة . ثم جنحوا إلى بلاد اليونان
يستعيرون منها ما يلائم ثراءهم ويوافق ترفهم ويناسب
عزهم . . . وعلى هذا عاشوا حتى قضوا نحبهم . فلم يعرف
لهم تاريخ الفكر أدباً خلفوه ولا علماً تركوه . اللهم إلا
وصف رحلة إلى المناطق الحارة فى إفريقيا وكتاب
يتضمن معلومات عامة عن الزراعة . أما فيما خلا هذين
الأثرين فقد كانوا ينقلون . . فى غير حماس فلا
يحسنون النقل .

فان أقمت بينهم عرفت أن لهم ديناً يتمكن من نفوسهم
ويتسلط على أرواحهم ويتحكم في الكثير من مظاهر
حياتهم .. كانوا يقدمون لمعبودهم الأكبر Moloch أو
Baal Hamman الضحايا عن سعة لا تعرف تردداً
ولا إبطاء . وقد سجل التاريخ كثيراً من هذه المآسي
المروعة . فقد قدموا للنار حين حاصر أمتهم أجاثوكل
Agathocles قائد الأغريق مائتي طفل من أنبل الأسر
وخف ثلاثمائة رجل إلى التطوع يومئذ فرحين لأنهم
سيكونون قرباناً للمعبود الأكبر، عساه أن ينقذهم مما هم فيه
من ضيق ..! وتقديم الأطفال للنار على مذبح المعبود كل عام
كان من أقوى العادات الدينية الشائعة بينهم (الصورة ص ٢٣)
وثمة آلهة أخرى لا نرى بأساً في إهمال الحديث عنهم ...
وستعرف قبل أن تبرح البيوت أن الزواج بالاجنبيات
قد فشى بينهم، وإن غلبت عليهم عادة الاكتفاء بزوجة
واحدة ، وأن الجو الذي يتنفسه الأولاد منذ الصغر كان
يغريهم بحب المال. ويصور لهم الذهب كأعلى مثل
الحياة وأنبل ما فيها من مطامح ..! فكان طبعياً أن تنتشر
الرشوة بينهم . وقد بلغ من شيوع هذه العادة عندهم أن



وكان الآباء والأُمّهات يقدمون للنار في كل عام أطفالهم الأظهار الأبرياء راضين مختارين !!!

كان العرش والقيادة بين ما يباع ويُشترى من الوظائف
في مجلس الشيوخ — صاحب الحق في الهيمنة على شؤون
البلد كما ستعرف الآن... بل أفضت بهم عبادة
المال إلى الاستغناء عن جيش ثابت يحفظ كيانهم ويرد
عادية أعدائهم، فإن أكرههم نضال الحياة على قتال شعب
من الشعوب استأجروا له من الجنود المرتزقة ما يقوم
بقتاله، حتى يلزمه الطاعة ويكرهه على الخضوع. فإذا انتهت
الحرب انحلّ الجيش ولم يبق في الأمة إلا ثلة من الشرطة
تتولى حفظ الأمن العام...!!

وقد تهيأ لقرطاجنة بمرور الزمن نظام للحكم عرض له
بالثناء أرسطو في كتاب السياسة . فتولى أمرها :

(١) ملوك يرتقون الحكم بالانتخاب — لا بالوراثة
ولا بالأقدمية . وإن كان شرطهم الأول أن يكونوا قد
انحدروا من أسر ممتازة . وكانت سلطتهم ضيقة النطاق
ونفوذهم خافت الصوت . وإن خلو تاريخ البلد من طاغية
يحكم بأمره لشاهد صدق على ما نقول .

(٢) ويليه في المرتبة قادة الحرب . وكانوا ينوبون
عن الملوك إذا خلا العرش منهم ، بل كانوا يشغلون

الملكية والقيادة معاً في بعض الأحيان .

(٣) ويلهم مجلس الشيوخ Senato بهيئته: البرلمان أو الهيئة التشريعية كما نسميها اليوم. ويألف من ثلاثمائة عضو بينهم رؤوس الأسر الممتازة بالثراء . ومجلس آخر يمثل الوزارة أو الهيئة التنفيذية في عصرنا . وهو خمسون عضواً ينتخبون من بين الهيئة الأولى — وتاريخ نظام الحكم في قرطاجنة يقول إن مجلس الشيوخ كان لا يساير الزمن ولا يتكيف بتطوراته .

(٤) ثم مجلس عام للشعب يتولى النظر فيما قد يعرضه عليه مجلس الشيوخ من جلائل المسائل والمشكلات، وكانت سلطته محدودة ورأيه استشارياً .

وربما عرفت من هذا الوصف أن السلطة الفعلية في حكم البلد كانت في يد مجلس الشيوخ الذي تسلطت عليه طبقة الأشراف أي أرباب المصالح وأصحاب الأموال . وسنرى أثر هذا بيئناً في توجيه السياسة أيام هانيبال . . . هذا طرف من أساليب العيش وألوان الحياة عند أهل قرطاجنة . ذكرناه في إيجاز لعله يعيننا على فهم هذا الشعب واستيعاب نفسيته ، وتقدير المصير الذي ينبغي أن ينتهي إليه إذا اتقدت نار الكفاح

نشأة روما ونموها

أقبل النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد على ملك «ألبانجا» Alba Langa — إحدى مدن اللاتين — وهو في تأهب للقاء ربه . فلما وافته المنون اغتصب ملكه ابنه الصغير أموليوس Amulius وتولى الحكم على كره من أخيه الأكبر نوميتور Numitor . وكان لهذا الأخير ابنة قد تهيأ لها من الجمال الناطق ما أغرى بها أبناء السماء . رآها ذات يوم إله الحرب : مارس : Mars فهوياً وأحبها ولبث في عشرتها حتى رزقت منه بطفلين : رميلس Romulus وريمس Remus . فأمر الملك بوضعهما في سلة وإلقائهما في نهر التيبر عسى أن يموتا غريقين . ولكن الأقدار شاءت أن يفيض النهر وأن تحمل مياهه السلة إلى تل على الشاطئ ، وتستقر بالطفلين على أديم

الأرض على كشب من شجره تين . وأن تفد على هذا
المكان ذئبة ظمأى فتحمل السلة إلى كهفها، وتقوم باطعام
الطفلين وأداء ما تستقيم به حياتهما من مطالب . وهممت
الذئبة ذات يوم بارضاع الطفلين ، فمر بها راعي نوميتير
(المليك الذى اغتصب حقه فى حكم البلاد) فانزعجت
الذئبة وولت هاربة . فحمل الراعى الطفلين ، إلى بيته .
وأودعهما فى رعاية زوجته وأبنائه . فشبا يحملان لهذه
الأسرة الحب والعطف والتقدير ، حتى إذا اعتدى على
رب الأسرة أحد رعاة المليك أموليوس Amulius
اهتزت النخوة فيهما ، واتقد الغضب فى نفسيهما، وانطلقا
إلى الباغى ليسوماه العذاب . ولكن ريمس Remus قد
وقع فى كمين أعدده لهما العدو وحمل إلى مدينة ألبانجا ،
ومثل بين يدى المليك الذى راعه نبل مظهره فسأله عن
يكون . وعرف منه أنه حفيد أخيه الذى أمر بالقائه
فى اليم يوم وُلد . . ! وكان الراعى قد انطلق فى صحبة
ريمس Romulus وعدة من رجاله إلى إنقاذ الأسير من
أيدي الأعداء . واشتبك الفريقان فى عراك عنيف
أبدى فيه ريمس من البسالة ما مكنه من أن يصيب

النصر ويأسر المليك ويستل أنفاسه من صدره ، ويقوم
على البلاد نوميتير — جده وصاحب الحق الشرعى
فى حكمها — فلما استوى الملك الجديد على عرشه أخذ
يهيئ لحفيديه (رميلس وريمس) حياة تفيض بالخير
والعز والهناء . ولكن سرعان ما أحسَّ الملل من هذا
العيش الهنىء . وجنح إلى حياة تحفها الأخطار وتحوطها
المكاره . فوطنا العزم على العودة إلى التل السالف الذ كر
— مدرج حياتهما الأولى ومهد طفولتهما الملائى بألوان
الضنك والضيق — وشدا الرحال إلى هذا المكان وعقدا
النية على أن يقيما فيه مدينة تحمل اسم واحد منهما .
فأصر كلاهما على أن يكون هو صاحب هذا الاسم .
واتسعت بينهما فرجة الخلاف ، ثم عادا للاتفاق على أن
يكلا الأمر لآلهة السماء . وانتظرا ما تشير به الآلهة .
ثم زعم ريمس ذات يوم أنه رأى فى السماء ستة نسور
تحلق فى الجو . وبينما رميلس ينصت لحديث أخيه إذ
لاحظ منه التفاتة إلى السماء فرأى فيها اثني عشر نسراً
تحوم فى فضاءها العريض . فاعتبر هذا إذناً من الآلهة
باطلاق اسمه على المدينة الجديدة . وهمَّ ببنائها من غير

تردد ولا تباطؤ . فأقام أكواخاً في مساحة تبلغ الستة أميال مربعة، وأحاطها بسور يحميها عادة الأعداء ، وأطلق عليها اسم «روما» وكان ريمس مغيضاً مخنقاً فتخطى السور هازئاً وهو يقول : أهذا هو السور الذي أقمته ليحمي مدينتك ، ويقيها بغى المعتدين ويصد عنها عدوان المهاجمين .. ؟ فاتقد أخوه غضباً واستحل دمه وطعنه طعنة أردته على الأرض قتيلاً . . (الصورة ص ٣١) ودفنوه على كشب من شاطئ التير . فكان هذا أول دم أريق على أرض روما .

وتولى ريمس حكم مدينته ، واهتم بأمورها ، وبذل الجهود الجبارة في تعميرها ، وإغراء الناس على العيش بين جدرانها ، فجعلها ملاذاً للمجرمين وملجأً للهاربين من عبيد جيرانه . فقويت المدينة واشتد بأسها وكثر أهلها . ووضحت الحاجة إلى وجود نساء بها . فأرسل ملكها إلى الجيران ينشد مصاهرتهم . فأبوا عليه ذلك إباء شديداً . وعافوا أن يكونوا أصهاراً لعصابة من اللصوص والمجرمين . فضاق الملك بهذا وخشى أن يؤدي خلو مدينته من النساء إلى خرابها العاجل . فهدته الحيلة إلى

خير وسيلة تمكّنه من الظفر بهذا الجنس الذى لا تحلو
الحياة بغيره، ولا يستقيم العيش من دونه. فأعد حفلاً
يقوم فيه رجاله بضروب من الألعاب الغريبة الجذابة.
ودعا إلى الحفل جيرانه من قبائل السابين Sabine فأقبلوا
على مشاهدة هذا الحفل فى صحبة نساءهم كما كانت تقضى
التقاليد عندهم. وأكرم أهل المدينة وفادتهم، وبالغوا
فى الترحيب بهم والاحتفاء بمقدمهم، وساروا فى صحبتهم
يطلعونهم على أسوار المدينة وبيوتها وسائر ما بها. حتى
إذا فرغوا من هذا مضوا بهم إلى الحفلة ليشهدوا الغريب
من الألعاب. وبينما الحفلة قائمة تشير فى نفوسهم الإعجاب
باللاعبين، وتستوى أفئدتهم وتستوعب شعورهم إذ
برميلس يشير إلى رجاله إشارة خفية فينقضون على
المدعوين بسيوفهم، يثرون الرعب فى قلوبهم، وينشرون
الجزع فى نفوسهم حتى ولى الضيوف الأدبار. فاستولى
أهل المدينة على بناتهم ولاذوا بهن فراراً...

ثم جمع الملك كافة من أسر رجاله من فتيات.
واعتذر إليهن عن قسوته فى الظفر بهن. مبرراً موقفه
بكبرياء آبائهن الذين رفضوا المصاهرة فى تعنت



«فاتقد أخوه غضباً واستحل»
دمه وطعنه طعنة أردته على الأرض
قتيلاً . . . »

وإصرار . ثم أخذ يصبّ الاطمئنان في آذانهم . ويغريهن
بحياة الزوجية وما تنطوي عليه من ضروب النعيم
والوان السعادة . ويعدهن بالحرص على ما يكفل لهن
الهناء حتى انتزع من قلوبهن الجزع ، واستلّ من نفوسهن
الوهم والفرع ..

ولكن آباء الفتيات كانوا يتميزون غيظاً لهذه الخيانة
الفاجرة . ويهتزون من فرط الغضب لهذا الغدر الذي
أفقدهم فلذات أكبادهم ، فجيشوا جيوشهم وجمعوا جموعهم
وانطلقوا إلى روما لاسترداد بناتهم ، وغسل الأهانة التي
لحقت بهم .. وثارت الحرب في عنف بالغ وقسوة
فائقة . وانتصر الرومان في بدايتها فحمل رميلس أسراه
وغنأه ومضى بها إلى الكايتول ، وأقام معبداً للاله
جوبيتر قدم له الضحايا والقرايين .. ولبثت الحرب
قائمة تلتهم المقاتلين عن سعة حتى تهبأ النصر للساين ،
واستولوا على قلعة روما فاشتعل رميلس من وقدة
الغضب وانطلق كمن به مس من الجنون ينشد العون من
جوبيتر ، ويميل على رجاله في هياج بالغ ويبت الحماس
في نفوسهم حتى اتقدت الحرب ناراً حامية ، تتأجج في غير

رفق ولا رحمة . وبينما الرءوس تطيح والجثث تهوى على
الأرض فى غير انقطاع أو اتئاد إذ بالنساء فى روما وقد
انطلقن إلى ميدان القتال وألقين بأنفسهن وسط السيوف
والخناجر ، ضارعات با كيات يلتمسن إيقاف الحرب
لأن فيها قتل أزواجهن أو هلاك آبائهن . وليس فى أحد
هذين المصيرين ما يرضى عواطفهن ... وأخذن يؤكولن
قائلات للمقاتلين من كلا الجانبين : إنا لنؤثر الموت الزؤام
على العيش الهنىء أرامل من غير أزواج . أو يتيمات من غير
آباء وساد الصمت ميدان القتال ، ونشر السلام
أجنحته . واستلّ من القلوب الضغائن والأحقاد . . .
وكان شياطين الجحيم ملائكة رحمة وصفاء (الصورة ص ٣٥)

ثم استكان السايين للرومان . وخضعوا لزعامتهم
وساروا فى ركابهم مختارين . فازدادت روما قوة ومناعة
وتألق اسمها بين جيرانها . واستقرت على الأرض قدمها
وامتدت إلى الأفق البعيد مطامحها وآمالها . ولبث رميُلس
يتولى حكمها أربعين عاماً حافلة بغنائم الحرب وخيراتها .
ثم جمع شعبه فى ساحة القتال ذات يوم فثارت ريح

صرصر عاتية أظلمت الجو وأحالت النهار ليلاً داكناً ،
فوالى الشعب الأدبار حتى إذا سكنت العاصفة عاد إلى
الميدان يلتبس مليكه رميلس فلم يعثر له على أثر . . . لقد
حمله أبوه « مارس » إله الحرب فى عربته إلى السماء . . .
ثم ظهر رميلس لأحد رجاله ذات يوم وقال له : قل
لشعبى أن يكفَّ عن البكاء فى طلبى . وأن يعيش
ما امتدت به الحياة يهوى الحرب ويعشق النضال ، فهذا
وحده تنال المدينة حظها فى القوة ونصيبتها فى العظمة
وتضحى سيدة الدنيا بأسرها . . . فان رغب الشعب عن
حياة الكفاح الممِضِّ أفل مجده وغربت شمسهُ واضمحَل
بين الشعوب اسمه . . .

عرف الشعب أن زعيمه قد بات إلهاً . . فأقام له
معبدًا وراح يقدم له الضحايا والقرايين . ويسعى جاداً
لتحقيق مطلبه فى سيادة الأرض فى شتى آفاقها .
ومختلف ساحاتها . .

هذه هى نشأة روما كما روتها لنا بعض أساطير
الأولين . أدى إلى تأسيسها ميل عن العيش الرغيد والنعيم
الموفور . وإيثار حياة تحفها الأخطار وتهدها المكاره . . .



انفجر بركان الحرب من اجل
النساء . . . وبقدرتهن ساد السلام
ميدان القتال . . . فكان أبالسة
الجحيم ملائكة رحمة وشفاء . . . !!

ويتبدى لنا من استعراض المرحلة الأولى من حياة
روما ما كان عليه أهلها من بسالة وقوة . وما كان يضطرم
في نفوسهم من الحرص على وجودهم ، والميل إلى العدوان
على جيرانهم ، والرغبة في تهيئة الجو الملائم لمطامحهم
وآمالهم ، ولو تخطوا الحدود وامتنوا الحقوق واتهكوا
الحرمات . ؟ ولم لا . . ؟ إن روما قد تولى بناءها ابن إله
الحرب . . وكانت آخر وصية أوصى بها أفراد شعبه بعد
أن رفعه أبوه إلى السماء أن يعيشوا عباد حرب وقتال .
وأذرهم بسوء المصير إن جنحوا عن التزام هذه
النصيحة - وفي الحق لقد سجل التاريخ صدق هذه النبوءة .
فقال إن روما قد تأهبت للغروب شمسها ، وتهيأ للمغيب
مجدها ، ودبت إلى جسمها الشيخوخة حين شملت رفاهية
أدت بشعبها إلى احتقار الحرب والميل عن الانخراط
في سلك الجندية ، واعتبار مثل هذه الأمور من شأن
العبيد والأسرى وحدهم .

على أن الرومان قد حرصوا على التزام الوصية التي
أوصاهم بها زعيمهم مدة طويلة من الزمان . فلبثوا يثيرون
العشائر في وجوه جيرانهم . وينشرون الجزع في بلادهم .

بيع الرومانه والغاليين :

ولا يضير الاطماع أن تقرر
البطون وتراق الدماء . .



حتى تمكنوا من الظفر بمقاطعة « اتروريا Etruria »
في شمال بلادهم . ثم قاوموا أهل الغال الذين زحفوا من
شمال نهر البو وهاجموا روما وعاثوا في أرضها فساداً
(وفي صفحة ٣٧ صورة تمثل مظهراً من مظاهر هذا العداء بين هذين العدوين)
ثم عاد الرومان إلى قتالهم وصراع من انضم إليهم من
أهل اتروريا وبلاد الأغر يق وغيرهم .

وكانت تارنتوم Tarentum بجنوبي إيطاليا لم تخضع
للرومان بعد . واستعانت عليهم بالأغر يق . فخفّ لنصرتها
بيروس Pyrrhus ملك إيروس Epirus - إحدى مقاطعات
الأغر يق - (الصورة ص ٣٩) وصارع الرومان صراعاً
عنيفاً تبدّت فيه شدة مراسهم وصلابة قناتهم ورصانة
كفاحهم . فلما واثاه النصر في موقعة هرقله أرسل إليهم
رسله يعرضون الصلح ويطلبون إيقاف الحرب . وعرض
الرسل هذا المطلب في مجلس الشيوخ الروماني . ومال
بعض الأعضاء إلى التسليم به والرضا عنه . فروع هذا
الموقف « أيوس كلوديوس كايكس » Appius Claudius
Caecus وهمّ بالاعتراض فخائته قواه ولم يقو على النهوض ،
لأنه كان رجلاً مُسِيناً حَلَّتْ الشيخوخة جسمه ، وأوهن

وبلغ « تارتوم » قائد
الاغريق يحمل معه أطاعه التي
لا تحدد . . .



لهرم عظامه . فحمله بعض الأعضاء إلى منصة الخطابة
وانطلق في شيخوخته البادية يستفز المجلس ويستثير نخوته ،
ويستنكر مرضاته عن مطالب العدو ، ويطالب الأعضاء
بإثارة الحرب الضروس قائلاً لهم : « ينبغي أنه يكون
ردنا على مطلب الاغريق : انه ايطاليا بأسرها ملك لروما ومهرها ،
وروما لا تأذنه لعدو من أعدائها ، أنه يقدم على التفارص
مع نوابها ، وقدمه لا تزال على أرضها... » الصورة ص ٤١

فاستجاب المجلس لرأيه . وعاد النضال عنيفا قويا حتى
انتهى باخفاق « ييروس » وسيادة روما على إيطاليا بأسرها

واتسعت رحاب الأمل وامتدت آفاق الطموح .
وأحست روما بأن نبوءة معبودها (رميلس) في سيادة
الدنيا بأسرها قد آن لها أن تتحقق . . لا بل هي قد
تحققت فعلا فليس على ظهر الأرض كلها أمة تعد لها الآن
قوة وعظمة ونفوذاً . . وإن أهلها لعباد حرب وأبناء
نضال . فلن يأذنوا للشعب تظله السماء أن يهدد سيادتهم
أو ينازعهم سلطانهم إلا إذا باتوا كلهم جيشا هامة
وأشلاء متناثرة . .

في مجلس الشيوخ الروماني :

« أيوس كلوديوس » الطاعن في السن يحمله
الاعضاء الى منصة الخطابة ليخطب قائلا :
« ينبغي أن يكون ردنا على الأغرقي : ان إيطاليا
بأسرها ملك لروما وحدها . وروما لا تأذن
لعدو من أعدائها ، أن يقدم على المفاوضة
مع نوابها ، وتدمه لا تزال على أرضها . »



وإذا لم يكن على سطح البسيطة كلها أمة تقوى على
صراعهم حتى تفنيهم وتهيل التراب على أجسادهم ، فأى
شعب هذا الذى سيقدر له أن يستجيب لوسوسة الشيطان
الخناس ، ويلقى بنفسه إلى جحيم النضال مع الرومان .. ؟؟



هذا هو الشعب !

موقع قرطاجنة — زراعتها — ملاحظتها — تجارتها وآفاقها —
ملازمة الشرطة الطبيعية الأقرباء — بعثاتها لاستكشاف المناطق المجهولة —
مستعمراتها في إفريقيا الشمالية — في صقلية — احتكاكها
بالأفريق في صقلية — أجاثوكل — بيروت — طبيعة القرطاجنيين

وشاء ربك أن تكون قرطاجنة أجمل ثغر على شاطئ
إفريقيا الشمالية يهيمن على اتصال الشرق بالغرب، فيبسط
لأفريقيا يمينه، وينشر لأوربا يسراه. ويجمع من كليهما
مافاض عن حاجته فتحمله سفنه وتمضي به إلى حيث يشتد
الطلب عليه، وتمس الحاجة إليه .

وكان نهر مجرد Mejerda ينساب على كشب من المدينة
ويتدفق في أرضها، يسقي مواتها ويمد بالحياة أرضها، فاهتزت
الأرض وربت وأنبئت من كل زوج بهيج .

ومضى أهل هذا البلد الأمين في ركب الحياة. منشغلين
بالتجارة منصرفين إلى الملاحة، يشتد بهم الطمع ويتسع
أمامهم أفق الأمل، فيضربون في آفاق الأرض ويسيرون
في مناكبها وينتشرون في فضاءها حتى يبلغ بهم التجوال
ساحل إفريقيا الجنوبي، ويستقر بهم عند ما نسميه اليوم
رأس الرجاء الصالح وسيراليون جنوبا. ويتهم بهم
التطواف إلى التوغل في أسبانيا وفرنسا وانجلترا شمالا...!
وقد استطاعوا بهذا أن يستوردوا العاج والجلود من ليبيا،
والعبيد من السودان، والأرز من صور، والبخور واللبن
من بلاد العرب، والنحاس من قبرص، والحديد من إلبا،
والصفيح من كورنويل Cornwall بإنجلترا، والنيذ من
بلاد الأغر يق، والفضة من أسبانيا، والذهب والأحجار
الكريمة من جزائر ملابار Malabar والشمع والعسل من
قورسيقه، والراتينج من شمال إيطاليا، والكهرمان من
البليطيق، والكبريت من صقلية...

وهكذا استغلت قرطاجنة خصوبة أرضها ووفرة
منتجاتها وخبرتها بالبحرية ونبوغها في الملاحة ومهارتها
في التجارة حتى أقبل عليها الغنى وأدركها الثراء، ودفع
طموحها للتخليق وحرك جناحيها للطيران.

وإذا دبت القوة في شعب من الشعوب اندفع بطبيعته
إلى الجور على حقوق الضعفاء من جيرانه ، والسعى في
مناكب الأرض طلباً للاستعمار والعدوان ، ورغبة في الفتك
بمن لا يقوون على احتمال هجومه ، ليغتصب ملكهم ويتسلط
على أموالهم وينعم في ظلال خيراتهم . ولو حاول القوى
أن يحرص على حقوق الضعفاء ويلتزم حياة الدعة والهدوء ،
لنكلف أمراً لا تحتمله طبيعته ولا يتمشى مع فطرته . . !
فالتطبيعي أن يوجد في الدنيا بغى وظلم واستعمار وقتك
وعدوان . وغير الطبيعي حقاً أن تخلو الحياة من هذه
الظواهر الكريهة وفي الدنيا قوى وضعيف . . !! وقد
أحسست قرطاجنة — بعد أن أصابت الغنى — بأن القوة
تدب في كيائها ، فمالت بطبيعتها إلى الجور على الضعفاء
من جيرانها . وأرسلت بعوثها تعمل — بأمر الحكومة —
على استكشاف المناطق المجهولة . وإقامة المراكز التجارية
في رحابها . واستعمار البلاد الضعيفة وامتصاص الرزق من
نتاج أرضها وجهود أبنائها (الصورة ص ٤٧) وقد خلفوا
في معابدهم وصفاً لبعض هذه الرحلات وتحديد المواقع
التي مروا بها ، وأقاموا سلطانهم في ميادينها .

وقد تمكنوا بعد حروب أثاروها في وجه القبائل
المجاورة لهم أن يسيطروا على شاطئ إفريقيا الشمالى كله
— على وجه التقريب — وإن أقاموا على سداد إيجار
الأرض التى أسسوا عليها مدينتهم حتى جاء عصر
هسدر وبال وهملكار — واستطاعوا أن يتخطوا البحر
إلى صقلية وينشروا طيلسانهم على الجناح الغربى منها، فيدرّ
عليهم الخير الوافر والرزق الواسع .

وقد كانوا فى استعمارهم قساة غلاظ الأكباد، لا يحتلون
بلدا إلا فرضوا الذل على أهله ، ووضعوا يدهم على كافة
ما تنتجه أرضه . وأخذوا يمتصون ماله ويرتشفون خيراته
حتى يصيبه الفقر ويدركه الضنك . فدرّت عليهم هذه
الطريقة الذهب الكثير والمال الطائل — وإن دفعوا ثمنها
باهظا حين شغلتهم الحروب مع أعدائهم الأقوياء فيما بعد .
وقد تهيأ لقرطاجنة هذا السلطان الواسع النطاق دون
أن يكون لها جيش من أنبائها، يتولى الذود عن كيائها،
والسعى لتحقيق أطماعها . فقد كانت تعتمد — كما ألعنا من
قبل — على الجنود المرتزقة تستأجرهم بالمال، وترسلهم إلى
الميدان حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، سرحت الجيش
وعاشت قانعة بقوة من الشرطة تقوم بحفظ الأمن العام .



وانتشرت بعوث القرطاجنيين في
مناكب الأرض لاستكشاف
المناطق المجهولة ، واستعمار البلاد
الضعيفة ، وامتصاص الرزق من نتاج
أرضها وجهود أبنائها . .

ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه الجنود المرتزقة
كانت تواقعة للدم نزاعة للشر محبة للقتال . ولهذا كانت
خطرا يهدد الأعداء وبقوتها سارت قرطاجنة في
مشارك الأرض ومغاربها حتى انتشر اسمها، وعلا في الآفاق
ذكرها، واستقر في مختلف البقاع سلطانها .

وقد عرفت أن قرطاجنة قد عبرت البحر إلى صقلية
واستقرت في جناحها الغربي . ولكن الأغريق قد خفوا
بعد قرنين من الزمان — إلى صقلية وراحوا ينشرون
على أرضها عائلهم . ويخضعون مدنها وثغورها لسلطانهم .
ثم ساروا غربا وهددوا الجناح الصغير الذي تسوده
قرطاجنة . فانتظرت هذه حتى إذا هاجم الفرس بلاد اليونان
اغتنمت الفرصة واشتبكت مع الأغريق في صقلية في قتال
عنيف، طال أمده واشتد عذابه بين انتصار واخفاق، ويأس
ورجاء حتى تولى أمر الأغريق أجاثوكل Agathocles ولازمه
النصر حتى فكر في غزو قرطاجنة، فمضى إليها وقرع أبوابها
وشدد الحصار على أهلها وكاد أن يلزمها طاعته . ولكن
القرطاجنيين دحروه وأكرهوه على التفكير في الهرب .
وعلم بذلك جيشه فتار عليه وتولى قتله بنفسه

ثم قاومت قرطاجنة أقوى قادة الأغريق وأخطرهم
شأنًا: «بيروس» Pyrrhus الذى كان لا يقنع بما أصاب سلفه
الأسكندر إلا كبر من مجد وما استحوذ عليه من نفوذ،
ويأبى إلا أن ينشر على الدنيا بأسرها سلطانه . ودامت
الحرب بينه وبين القرطاجنيين فى ميادين صقلية حتى انتهت
باخفاقه واضمحلال آماله ، فعاد إلى وطنه إيروس
— إحدى مقاطعات الأغريق — مغنظًا محنقا .

ودب الغرور فى قرطاجنة وملاً أهلها شعورا بالقوة
واعترازا بالنفس واطمئنانا من خبايا المستقبل .

وهذا وجد الشعب الذى تدفعه طبيعته وتسوقه ظروف
حياته إلى نضال الرومان ... حقيقة هو شعب تجارى يتخذ
الحرب أداة لفتح الأسواق واستعمار البلاد وجلب الذهب
وتهيئة الجو المشبع بالغنى والثراء . ولكنه يستطيع بأمواله
الطائلة أن يستأجر من الجيوش الجرارة ما يكفل له السيادة
ويضمن لسلطانه الذبوع ، ويهدد الرومان بالويل العظيم
والشر المستطير .. ولكن أين يكون احتكاك الشعبين ..؟؟



والتقت عند أرض صقلية مطامع العدوين فويل للغلوب . .

أصلح الميادين للاحتكاك

اخفاق بيروس - خواتره يوم أقبل على صقلية - محاورته مع سنياس
الفيلسوف - موقع صقلية بالنسبة لقرطاجنة - خطورتها على روما
معاهدات الود بين القرطاجنيين والرومان

انطلقت السفينة تمخر الماء وتشق العباب حاملة
بيروس Pyrrhus بعد أن استنفد الجهد في الظفر بصقلية ،
واستفرغ الوسع في التسلط على موارد الرزق في مدنها،
والتمتع بخصوبة أرضها ووفرة نتاجها واعتدال جوها

والانتفاع بموقعها ، ولكنها امتنعت عليه فارتدت إلى
بلاده كسيح الأمل واهن الرجاء — على نحو ما عرفت
من قبل .

مضت السفينة في طريقها ورأسه يزدحم بذكريات
جهاده وصراع أسلافه من حكام الأغرقي وقادتهم .
طافت بخاطره آماله يوم أقبل على هذه الجزيرة موفور
الرجاء في امتلاكها ، والتسلط بعدها على قرطاجنة وروما ،
والظفر بسيادة الدنيا وجعلها في حوزة الأغرقي ...
وإنه ليدكر المحاورة الممتعة التي دارت بينه وبين ناصحه
الفيلسوف سنياس Cineas ويزكر كيف حاول هذا
أن يصور له الحياة أبسط مما يفهمها أهل الحرب وعباد
النضال ، ليثني عزمه عن السعي لتحقيق هذا الحلم الذي
يطوف بخاطره ويشغل قلبه وعقله معاً (١)

إنه ليدكر هذا ويلتفت وراءه فتصافح عينه شواطئ
صقلية وهي تهم بالاختفاء عن ناظريه ، فيردّ بصره وقد

(١) لا بأس من أن نورد المحاورة في إيجاز :

سنياس . - ان الرومان يامولاي أهل حرب وأبناء نضال . وان عليهم ليحقق
على بقاع رحبة الآفاق . فلو قدر لنا أن ندحرهم ونلزمهم طاعتنا
فماذا نستفيد من انتصارنا . . ؟

اهتز كيانه من فرط الأسى وفيض الألم ولذعة الأُخفاق،
قائلاً لرفاقه : « ما أروعها من حلبة للصراع تتركها بين
قرطاجنة وروما »

وكانت صقلية تمتاز — إلى جانب ما أسلفناه لك
في مستهل هذا الفصل — بموقع لا نظير له في ربط

بيروس - سؤال سهل الجواب . لن يقو على الوقوف في وجهنا بعد
اندحارهم اغريق ولا برابرة . فنسود إيطاليا بأسرها من غير
منازع . ونصيب ثراها الطائل ، ونحمل اسمها الذائع ، ونتمتع
بعظمها الفتية . . .

سنياس - (بعد صمت قليل) وإذا استولينا على إيطاليا كلها فإذا
نفعل بعد يامولاي . . . ؟ . . . ؟ . . .

بيروس - على مقربة من إيطاليا تقوم « صقلية » وهي تنشر ذراعيها
لاستقبالنا . وهي على ما تعرف من عظمة وثراء . ثم هي في اضطراب
واضح منذ مصرع أجاثوكل - تعوزها الحكومة وينقصها القادة . .
سنياس - وإذا قدر لنا يامولاي أن ندجر صقلية وننشر على أرضها علينا .
أنتقف حروبنا عند هذا الحد . . . ؟

بيروس - ان السماء لتبارك جهودنا . فما الذي يمنعنا من المسير الى افريقيا ،
ونشر سيادتنا على قرطاجنة نفسها . . . ؟ وإذا تهيأت لنا سيادة هذا
البلد عدت الى بلاد اليونان وفرضت سيادتي على الأغريق جميعاً . .

سنياس - من غير شك . . . ثم ماذا بعد . . . ؟

فضحك الملك وقال : ثم نهدياً بعد هذا ونستريح . .

فأجابه الفيلسوف - وما الذي يمنعك يامولاي من أن تهدياً الآن وتستريح ؟ . . !

أوروبا بأفريقيا وتيسير الاتصال بينهما . وهذا هو الذي
استهوى قرطاجنة وملاً قلوب أهلها بالرغبة في امتلاكها .
ليتيسر لهم إقرار السلطان التجارى وتمكين السيادة
البحرية . فكافحوا الأغريق هذا الكفاح الممض الذى
ألمعنا إليه من قبل . ثم امتلأوا بعد النصر إحساساً بأنهم
أحق شعوب الأرض قاطبة بامتلاك صقلية بأسرها . .
ولكن صقلية لا تبعد عن شواطئ إيطاليا أكثر من
ميل أو ميلين . فاذا استطاعت قرطاجنة أن تظفر بها
وترفع العلم فى أرضها فقد هددت روما فى إيطاليا وأندرتها
بسوء المصير .

وحقيقة إن قرطاجنة كانت على وفاق مع روما منذ
أواخر القرن السادس قبل الميلاد . وأن الصلة بينهما
فى صقلية كانت تقوم على معاهدة من الود قد كفلت
لكليهما الطمأنينة والأمان . ولكننا نعرف أن
المصلحة وحدها هى التى تحدد آجال المعاهدات، وتتحكم
فى علاقات الشعوب .

قرطاجنة فى مقتبل عمرها . وروما فى فتوة شبابها .
وصقلية — مفتاح السيادة — لا تبعد عن الأولى أكثر
من خمسين ميلا، وعن إيطاليا أكثر من ميلين.. فالنضال
بين هذين الشعبين قد أصبح قضاء لا مفر منه ولا حيلة
فى رده.. وكان ييروس على حق يوم قال لرفاقه :
« ما أروعها من حلبة للصراع تتركها بين
قرطاجنة وروما »

عرفنا الآن أصلح ميدان لبقر البطون وفصل الرؤوس
وإزهاق النفوس وإهراق الدماء . وبقى علينا أن نعرف
السييل إلى احتكاك الشعبين . أو الظرف الطارئ الذى
يهيئ الجو لهذا الكفاح المنتظر :



كيف احتك العدو أن

اللذة الفنية في فعل الشر - قطاع الطرق في مسينا - حصار
«هيرو» لهم - انقسامهم حزبين - التماس النجدة من قرطاجنة
وروما - روما بين التردد والاقدام - مسارعة قرطاجنة
الى ارسال النجدة - اجتماع أهل مسينا للمشاورة في أمرهم -
القبض على قائد الأسطول القرطاجنى - انتصار الرومان -
عودة القتال - انضمام «هيرو» لروما - حصار أجري بجهتوم ونجدة
قرطاجنة - بناء أول أسطول رومانى - بدء الصراع على أديم الماء

كان في جزيرة صقلية آلاف من الجنود المرتزقة
الذين انحدروا من أصل إيطالى . وقد كثر عديدهم واشتد
بأسهم حتى خافتهم الحكومات ، وخشى الناس شرهم .
لا ينتظمون في الحرب عن فقر ومسغبة . بل رغبة في إشعال
نارها . وميلا إلى خوض غمارها . فلما عزّ عليهم إشباع
رغبتهم في أوطانهم ، خفوا إلى القتال في جانب روما أو في
صف قرطاجنة ، في سبيل أجر يتناولونه . أو أمل في نصر

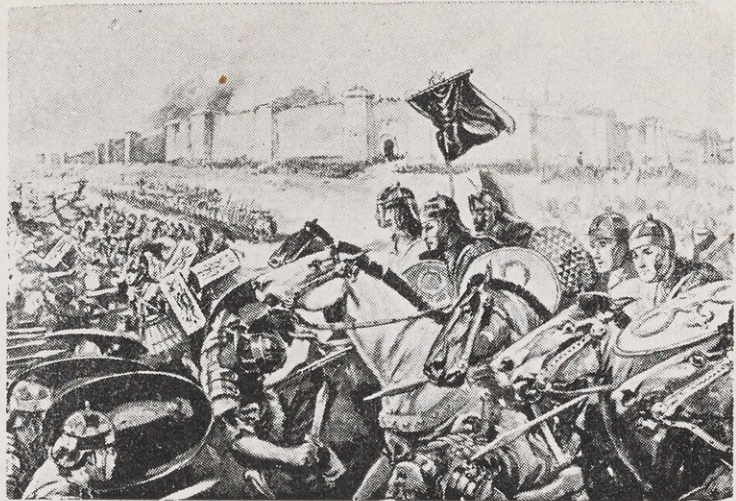
يصبونهم . فلها مات طاغية هذه الجزيرة « أجاثوكل »
Agathocles الأغريق ، أعلن الاستقلال منهم من كانوا في
خدمته . وانطلقوا يعيشون في الأرض فسادا . ويتبارون
في إلقاء الرعب في قلوب الناس . فهبطوا مدينة « مسينا »
Messana ووزعوا شرورهم على أهلها في غير شح ولا تقدير .
ثم استبدلوا بها كل ما أصابته أيديهم من غنائم وأسلاب ،
وتقا سموه فيما بينهم والدنيا للأشرار . . هم أقدر من
الأخيار على ملاقاتة التيار وخوض العباب ومكافحة اللجة
الطامية ، والضرب في الزحمة المزهقة . وصيحتهم تعلو —
وإن قلّ عديدهم — على صوت الأبرار . لأن الفوز في الدنيا
للجراحة والأقدام والتبجح . وحظ الأشرار من هذا أوفر
من حظ الأطهار . . وقد تشور الأقدار على الأشرار فتعجل
حسابهم وتسارع إلى تعذيبهم ولما نزل الدنيا مستقراً لهم .
وهكذا قيضت الأقدار لقطاع الطرق الذين أنزلوا
« بمسينا » شرهم ، قائداً جريئاً هو « هيرو » Hiero — حاكم
سيراكوز Syracuse إحدى مدن الجزيرة — وسلطته عليهم
فتطلعوا إلى النجدة — وكانوا حزينين يختصمان في غير رفق :
تجنح الرغبة بأحدهما إلى الاستغاثة بروما ، ويميل ثانيهما إلى

طلب النجدة من قرطاجنة ، فسارع الأول إلى الاتصال
بالرومان وأعلن خضوعه لهم واستنجد بهم. فخار الرومان في
هذا المطلب الجديد، وترددوا في الاستجابة له ، لأنهم كانوا
قانعين بسيادتهم لأيطاليا، لا يرغبون في التسلط على ما وراء
شواطئها جنوبا، ولا يميلون إلى تعريض جيوشهم لأهوال
الحرب في صقلية . فكانت هذه القناعة من جانبهم غير
طبيعية لا تتفق مع دولتهم الفتية ، ولا تلائم موقفهم الدقيق
من قرطاجنة ، وإن كانت تتناسب مع طبيعة الاتزان الذي
لازمهم في شتى مراحل حياتهم . ولم يفارقهم حتى في أمس
الأوقات حاجة للتطير والجزع

فكّر الرومان في أن يتجاوزوا حدود إيطاليا بعد أن
بلغتهم دعوة الأشرار ، وخافوا إن هم رغبوا عن إجابة
المطلب أن تسارع قرطاجنة إلى التسلط على مسينا وتخطيها
إلى سيرا كوز لتنشر طيلسانها على صقلية بأسرها، وتصبح
مصدر الفزع للرومان ومبعث القلق الدائم . ولكنهم
— رغم هذا — لم يتسرعوا في بحث المطلب وشغلوا به
مجلس الشيوخ جلسات طوالا رأى فيها الأعضاء شبح
قرطاجنة الرهيب ينذرهم بالشر. ويسلط عليهم الوهم والجزع.

ولما كانت روما في هذه الأيام على مودة مع «هيرو»
الذى يتولى حصار هؤلاء الأشرار، وكان مجلس الشيوخ
لا يميل إلى التحالف مع شراذم من قطاع الطرق، فقد طال
النظر في إجابة المطالب حتى تخطت المسألة جدران المجلس،
وساهم الشعب في بحثها، فلم يتردد في الموافقة عليها والدعوة
لها . . . وعلى هذا استقر الرأي العام في روما . . . وسارت
النجدة إلى قطاع الطرق (الصورة ص ٦١)

أما الحزب الثانى من الأشرار فلم يسلم بموقف خصمه،
وأرسل في طلب العون من قرطاجنه . وسرعان ما رحبت
بالدعوة وخفّت إلى إجابتها، وأبحر أسطولها إلى الميناء،
وحطّ جيشها على قلعتها قبل أن تبلغها نجدة روما . وعقد
القرطاجنيون مع «هيرو» صلحا توقعوا بعده نصراً
مبيناً . . . فعقد أهل المدينة اجتماعاً للنظر في أمرهم،
والتشاور في مصيرهم، والتعرف إلى وجه الحق في موقفهم
وموقف الشعوب المختصة منهم . فحضر الاجتماع قائد
الأسطول القرطاجنى رغبة في صيانة الصلح الذى عقد مع
«هيرو» وحرصاً على سلامة نصوصه، إذ كان يخشى أن



تردد مجلس الشيوخ الروماني في
ارسل النجدة الى قطاع الطرق ،
ولكن الرأي العام في روما
سلم بها وطالب بارسالها . . وسرعان
ما خفت النجدة لمعونة الأشرار . .

يشور المجتمعون به ويعلنوا احتجاجهم عليه ، وعصيانهم له ، وتطوعهم للدفاع عن أنفسهم . وبذلك يقوى جانب روما ويشدد أزر من تولى دعوتها من الأشرار . فهاج المجتمعون لمرآه . وثاروا في وجهه وقبضوا عليه .. فأما زميله « هانو Hanno » قائد الجيش فقد قبل تسليم القلعة بشرط أن يأذنوا له في العودة إلى وطنه على رأس جنده .. وأثبت القائدان — بهذا الموقف — أنهما قصيرا النظر تعوزهما الحكمة ، وينقصهما العزم ..

وبسط الرومان سيادتهم على « مسينا » من غير ثمن ...
باهظ أو رخيص ...

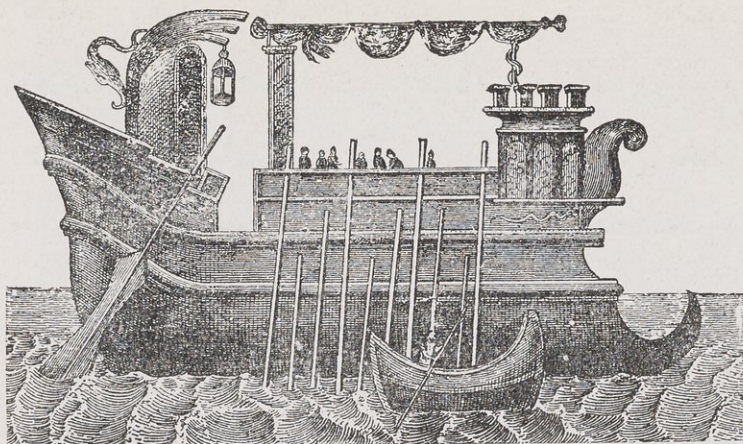
فأحنقت هذه الهزيمة أهل قرطاجنة ، وساء لهم من قائدهم « هانو » قصر نظره واعوجاج مسلكه وسوء تقديره مما أدى إلى انتصار العدو من غير جهد ولا مشقة . فعمدوا إلى تعذيبه — وكانت هذه عادتهم مع من يخطئه التوفيق من قادتهم — ثم حاصروا المدينة حصاراً شديداً وكان الرومان يميلون للانسحاب لو وافق « هيرو » على إبقاء اللصوص الذين أسلفنا الحديث عنهم من غير إقلاق ولا إزعاج . فلما رفضت شروط الصلح الذي

تقدموا به سارعوا إلى إعلان الحرب وأنزلوا « بهيرو »
هزيمة شفعوها بنصر على الجيش القرطاجنى فاضطر إلى
رفع الحصار ...

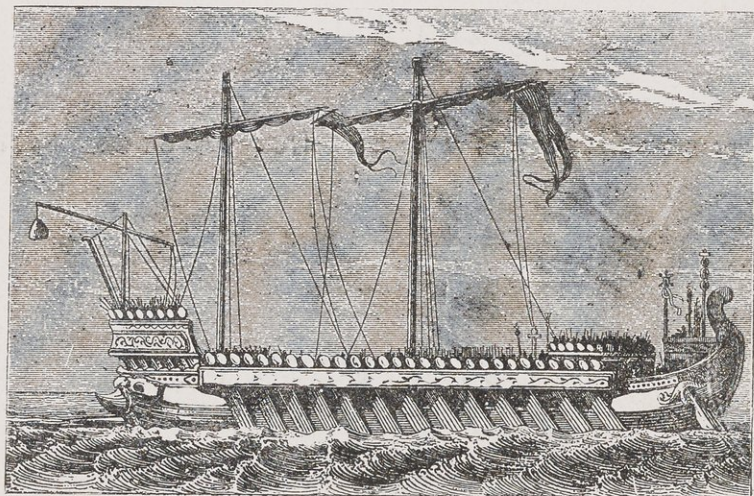
ولكن قرطاجنة قد أبت الاستكانة للهزيمة، فأرسلت
جيشاً لجباً وأشعلت النار من جديد، واختار « هيرو »
الجانب الأقوى فسارع للانضمام إلى روما . وأضحى
من أشد حلفائها تأييداً لها وانتصاراً لقضيتها ... ! وتبعه
فى ذلك كثير من مدن قرطاجنة وصقلية ..

ومضى الرومان إلى أجريجتوم Agrigentum —
وكانت قرطاجنة قد جعلتها قاعدة أعمالها الحربية، ومستقر
ذخائرهما ، ومستودع آمالهما — فحاصروها حتى أدرك
جيشها القحط ولحق به السوء . فلما أرسل إلى قرطاجنة
يطلب المدد أرسلت اليه الفيالق تترى، واشتعلت نار حمى
وطيسها وطال عذابها وكثرت ضحاياها ثم خمدت بعد نصر
أصابه الرومان على قلة عددهم . فأسكرهم النصر وحملهم
على جناح الخيال، وحلق بهم فى فضاء الأمل العريض
وأشرف بهم على قرطاجنة، وكشف لهم عن مدى الخطر
الذى ينتظرهم على يدها . فأحسوا بأنهم لا يملكون

العيش الرغيد والمستقبل السعيد ما تنفّس هذا العدو
 الحياة إلى جوارهم . فكم كانوا يخشون على شواطئهم وهي
 ملك لهم من هجمات أسطوله واعتداءاته . فكيف يفكرون
 في استعمار جديد وهم لا يأمنون على أنفسهم عاديته . . ؟
 فجنحت بهم الرغبة إلى بناء أسطول يقاوم قرطاجنة —
 أميرة البحر — وينزل بأسطولها الشر ، ولكن أين هذا
 الأمل العريض القلق من أسطول قرطاجنة الذي يلاطم
 اللجة الطامية ، وينثر الرعب في النفوس ، ويلقى الرهبة أينما
 حلّ وأنى كان . . ؟ لقد كانت سفنه من النوع الضخم
 ذى الخمس (أو الثلاث) طبقات Five-Banked vessels
 (الصورة صفحة ٦٣) بينما لا يملك الرومان سفينة صغيرة . . !
 وشاءت الأقدار أن تسوق عاصفة شديدة عاتية
 إحدى سفن قرطاجنة إلى شواطئ الرومان ، فتقع تحت
 يدهم في وقت قد اشتد فيه الظمأ إلى بناء أسطول ينشر
 طيلسانهم أنى اتجهت رغبتهم وحيثما مالت بهم مطامح
 الوطن . فاتخذ الرومان هذه السفينة نموذجاً يبنون أشباهها
 لها (الصورة صفحة ٦٥) حتى توفر لهم في بضع أسابيع —
 لعلها لم تتجاوز الأربعة — مائة سفينة من هذا النوع



احدى سفن الاسطول القرطاجى
- أمير البحر -

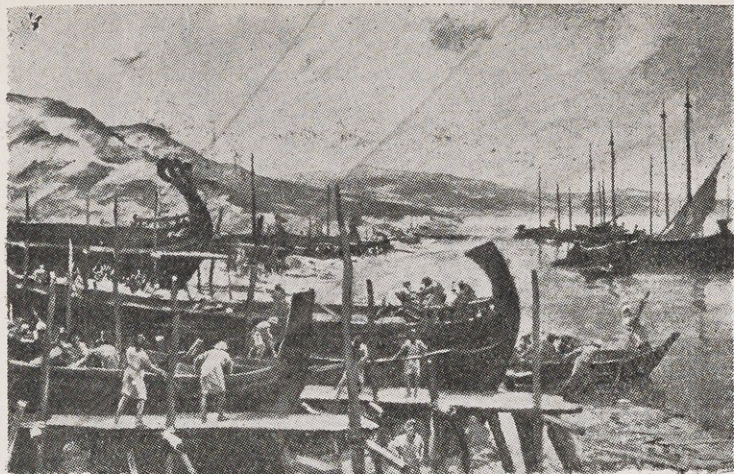


احدى سفن الاسطول الرومانى

الضخم (الصورة صفحة ٦٥) وعشرين من ذات الطبقات
الثلاث . - ولم يكتفوا بتقليد النموذج ومحاكاة أجزائه بل
أضافوا إلى سفنهم من الأدوات ما مكنها من تعطيل
حركة السفن المعادية ، والظفر بها إن اشتبكت معها في
صراع !..

وسرعان ما واجه قرطاجنة هذا الأسطول الجديد ،
فألقي في نفوس قادتها الدهشة وأشاع في كيانهم القلق ..
واشتبك مع أسطولها في مايلى Mylae سنة ٢٦٠ ق م
فاذا سفنها الأمامية في قبضته تحاول الخلاص على غير
جدوى (الصورة صفحة ٦٧) حتى التمس قائدها سبيل النجاة
بما بقي له من بوارج ، وعاد إلى وطنه حيث استقبله الشعب
استقبالا يليق بهزيمته ، فقبض عليه وصلبه وتولاه بعذابه !..





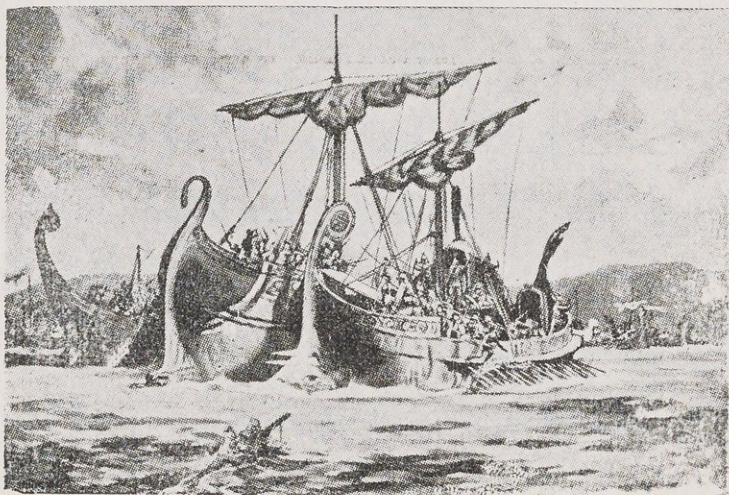
واستبان للرومان عجزهم عن
 نشر سلطانهم وقهر أعدائهم ، بغير
 أسطول يمكنهم من أمارة البحر .
 فما وقعت تحت يدهم إحدى سفن
 قرطاجنة حتى أخذوها نموذجاً
 يبنون على نمطه أسطولا حريياً
 يعمل على تحقيق مطامعهم الواسعة

الرومان في إفريقية

إكونومس . « هانو » يطالب مواطنيه بالتأهب للقاء العدو - قيادة الأثرياء
الحركة الدفاع - انتصار رجليس *Regulus* - حلفاء قرطاجنة ورعاياها
يتمردون على حكمها - شراء النصر بالمال . « رجليس » في سجون قرطاجنة
خمس سنوات . انتدابه سفيراً لمفاوضة قومه - يقسم على العودة من
تلقاء نفسه - يطالب مجلس الشيوخ باثارة الحرب - المجلس يقرر
بطلان القسم - رجليس يخطب في المجلس مستذكراً لمخلص الأعضاء
من قداسة العهد - رجليس بين القلب والواجب -
انتقام زوجته - موقفه بين الخلق والمنطق -

أسكرت روما أنباء النصر فاعتزمت أن تشعل
الحرب في أحشاء إفريقية، لتهاجم العدو في وطنه، وتصب
في قلبه نارها وعذابها . وهيات لذلك أسطولها وحشدت
جموعها وتأهب القرطاجنيون للقاءها عند رأس إكونومس
Economus في شاطئ صقلية الجنوبي - ودارت معركة
دامية انتهت باستيلاء الرومان على أربع وستين بارجة

واندحرت أميرة البحر في « مايلي »
أول مرحلة من مراحل
الصراع على أديم الماء .. !



بملاحيتها وغرق مائة سفينة لقرطاجنة ، وفرار بقية
الأسطول في شتى المناحي ملتتمساً النجاة من جحيمه ..
فأما الرومان فلم يفقدوا غير ست وعشرين سفينة غرقت
جميعها ..

ولم يبق على روما بعد هذا النصر إلا مهاجمة العدو في
دياره ، فسارع « هانو » إلى قرطاجنة وطلب إلى مواطنيه
أن يهيئوا أنفسهم للدفاع قبل أن ينزل بهم الشر الزاحف
والخطر الداهم ، وكانت قرطاجنة قد خسرت بقسوتها محبة
رعاياها وخلفتهم على أهبة الثورة في وجهها . وأصبحت بعد
فقدان ممتلكاتها ضعيفة لا عون لها ولا حول تدفع
به عن نفسها - ولو سارع الرومان إلى حصارها بعد
المعركة الأخيرة من غير توان لكان من المحتمل أن
يستولوا عليها ، ويفرضوا سلطانهم على أبنائها من غير
جهد ولا عناء . ولكن الغنائم والأسلاب خدعتهم
وفوتت عليهم فرصة لا تعرض في حياة الشعوب
إلا لمالاً .

وكان الأثرياء لا يحتملون هذا العدوان الذي أنزله
بهم الجيش الروماني حين اعتدى على أملاكهم وسلب

أموالهم واستباح حرماهم . فكانوا ينادون بالقتال
ويطلبون الانتقام العاجل عن لطفة وشغف . واستجاب
الشعب لدعوتهم وخفَّ إلى الميدان، يدفعه الأقدام ويحفه
الأمل وتحوطه الرهبة. ولكن قائده « هملكار Hamelcar »
أخطأ فعسكر فوق تل على كذب من المدينة، فأض نصف
قوته - فيلة وخيلا - معطلا لا يقوى على الحراك فوق هذا
التل . وفطن لهذا رجيلس Regulus قائد الرومان فتقدم
لحصار التل، وأنزل بمن يعتلونه هزيمة أعقبها الاستيلاء
على مكان لا يبعد عن قرطاجنة بأكثر من خمسة أميال !..

وترامت إلى الأفق البعيد أنباء النصر، وحلقت فوق
رعايا قرطاجنة وحلفائها، فأوحت إليهم بالثورة في وجهها .
وشرع الأفريقيون في نهب ممتلكاتها، واستباحوا حماها
بشراقة لم تتوفر - عند الرومان - ألد من تحمل الأرض
لها من أعداء .. ولم يبقَ لهذا الشعب إلا مدينته الزاخرة
بجموع الهاربين الذين أقبلوا عليها من شتى البقاع المجاورة .
وكان القحط ينذر لها بشره وويله ..

وكان رجيلس قد خشى أن تنقضى سنة خدمته

قبل أن تزفر الحرب نفسها الأخير ، فأرسل في طلب الصلح
من قرطاجنة . فاستجابت له وخفت إلى التعاقد معه ،
ولكن البطل قد تشدد في وضع نصوص الصلح مخافة أن
يأبى المجلس في روما إقرارها . . فأعلنت قرطاجنة رفضها
للشروط المجحفة معترضة أن تستमित في الدفاع اتقاء لما
قد يحقق بها من شر ويحط عليها من عدوان . . وكان التردد
في التضحية إيداناً بالهوان المقبل والذل الزاحف ، الجيش
يُحوزها والعدو على أبوابها ، فلوحّت بثروتها الطائلة
للجنود المرتزقة ثم صبتها في جيوبهم عن غير شح ولا
تقتير . فانهالوا عليها وانتطموا في صفوفها للدفاع عن
كيانها . وكان بينهم كزاتيب Xanthippus وهو قائد
وقد على قرطاجنة من أعظم مدرسة في الدنيا لتخريج رجال
الحرب وأهل المعركة « اسبرطه » فلما بلغته قصة الهزائم
التي حاقت بهذا البلد رغم ما توفر فيه من قوات جبارة ،
أعلن لأصدقائه أن مصدر الهزائم عوز في مهارة القادة .
ونقص في خبرتهم الحربية واضطراب في طريقة
تنظيمهم للجيش وملاقاتهم للعدو ، ثم شرع في تدريب
الجند وتهيتهم للقتال ، وإذا به يستلّ إعجابهم به وإكبارهم

له، ورغبتهم في الانضواء تحت علمه . فقاد هذا الجيش
وقد بلغ عديده اثني عشر ألفاً من المشاة وأربعة آلاف
فارس وعدداً ضخماً (يبلغ المائة) من الفيلة ومضى
بهم جميعاً إلى ساحة القتال .

واضطرمت نار الحرب ، فصرع العدو وأهلك من
رجاله اثني عشر ألف مقاتل وطارد ألفين من الفارين
وأسر نصف ألف وألقاهم في غياهب السجون - وكان
بينهم «رجيلس» بطل روما الذي أصاب من سمو النفس
ويقظة الضمير وقداسة الكرامة أوفر نصيب . . ولما
انطفأ نجم طالعه في زحمة الهزيمة الأخيرة زج به أعداؤه
إلى السجن فاستقر في ظلامه خمس سنوات طوال . . !

وقيل إن قرطاجنة قد اتدبته سفيراً يفاوض باسمها
قومه، فأرسلته في وفد يطلب في جملة مطالبه إيقاف الحرب
وافتداء الأسرى أو استبدالهم . وأذنت له في ذلك بعد أن
أقسم ليعودنّ للأسر من تلقاء نفسه إن ضل سبيل التوفيق
في مسعاه - أملاً في أن يضعف هذا القسم من شدة قومه .
ويدفع بهم إلى التسليم بمطالبه، حرصاً عليه واتقاء للشر
الذي ينتظره . .

فلما أقبل البطل على مجلس الشيوخ في روما امتنع أول الأمر عن دخوله ، معتذراً بأنه أسير قرطاجني لا حق له في حضور الجلسات ... ! ثم وقف تحت قبة المجلس استعداداً لأداء رسالته .. ولكنه استحمياً أن يطلب الصلح مرضاة لعدو يكرهه ، ويرجو اليوم الذي لا يسمع فيه صوته ولا يرى فيه رسمه . فنادى في المجلس باستئناف الحرب حتى يتيسر للوطن أن يملئ شروط صلح ميمون تتناسب مع سلطانه ولا تمس أطماعه بسوء !

ورحب بنصيحته الأعضاء الذين آذاهم كفاح العدو وملاهم ضيقاً به ورغبة في الانتقام منه ..

ولكن «رجيلس» قد أقسم ليعُودَنَّ إلى قرطاجنة أسيراً من تلقاء نفسه إن أخفق في مسعاه . وها هو ذا قد أقبل على قومه وامتنع عن مفاوضاتهم في الصلح وتمادى فطالبهم باستئناف القتال . فماذا هو فاعل في يمينه إذن ؟ ..

ولكن ماله والتفكير في يمين أقسمها تحت تأثير طغيان العدو الجائر . وبطش الأسر الظالم .. ؟ هكذا يقول مجلس الشيوخ فاذا تطنع أعضاؤه إلى رئيس

القساوسة الجالس بين صفوفهم يمثل الدين، ألفوه راضياً
عن رأيهم مغتبطاً بموقفهم ..

وليس في هذا الا فتاء ما يستدعي الدهشة أو يتطلب
الزراية. فان الشعوب إذا اضطربت بينها نار القتال
واندلعت ألسنتها، كان من حقها أن تثور على بعض الفضائل
التي تعارف عليها الناس في وقت السلم ..

وكان «رجيلس» على علم بما ينتظره في قرطاجنة من
عذاب أليم إن ألقت به الأقدار في يدها. وإذا كانت تصلب
قاداتها الخاسرين. وتسومهم عذابها وتصليهم نارها، فان
انتقامها من أسراها الذين يحبطون خططها لأشد هولا
وأكبر ويلا ..

وإذا كانت غضبة الضمير تصدر عن الشعور بسلطان
العرف — بما يذهب الكثير من العلماء — فما هو ذا الجمهور
قد ألقى ممثلاً في برلمانهم ورئيس قساوسته بسقوط اليمين
الاضطرارية ..

وإذن فليبدأ «رجيلس» بالا وليقر نفساً وليطمئن ضميراً
فلا وزر عليه ولا جناح ..

ويستقر المجلس عند هذا الرأي السديد والحل الموفق

استمرار الحرب ورفض تبادل الأسرى أو اقتنائهم ،
وسقوط اليمين الاضطرارية .

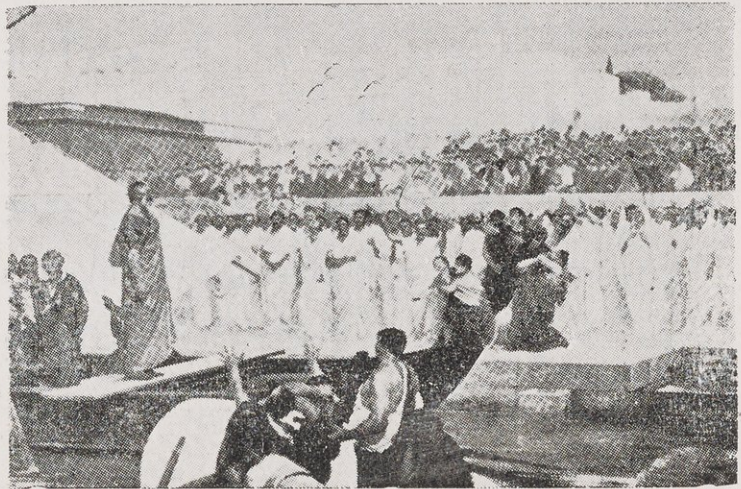
فاذا انتهى الأعضاء إلى هذه النتيجة فقد أطلق البطل
لسانه يجلجل فيهم كالرعد قائلا لهم :

« أو أجمعتم إذن على فضيحتي .. ؟ أنا لا أجهل أن
العذاب الأليم في عودتي ، والموت الرهيب في انتظارى ..
ولكن ما العذاب وما الموت إذا قيسا بخسة النفس وضعة
الضمير وخلف الوعد وجرح الكرامة .. ؟ ! إني وإن
كنت الأسير في زمرة الأعداء ، لأحمل بين جنبي نفس
رومانى . وقد أقسمت أن أعود فقد وجبت على العودة
وأصبحت فرضا لازبا وقدرًا محتوما .. فلا رجعت إلى
الأعداء ولتفعل السماء ما تشاء .. ! » (الصورة ص ٧٥)

فأيقنت زوجته بانعقاد نيته على البر بيمينه والرضا
بهلاكه . مرضاة لضميره واستجابة لشرفه . فهاها أمره
وأحنقها مصيره . وتقدمت إليه ضارعة تسكب على قدميه
دمعها ، وتلتمس منه البقاء مرضاة لولديها . ولكنه أشاح
عنها بوجهه . ومضى إلى لقاء موته .. !! (الصورة ص ٧٧)
فاذا بلغ قرطاجنه ونبئت بما كان من أمره تولته

في مجلس الشيوخ الروماني :

« رجيس » يخطب : « أو أجمعتم
على فضيحتي . . . ؟ . . . اني
وان كنت الأسير في جماعة الأعداء ؛
لأحمل بين جنبي نفس روماني . وقد
أقسمت أن أعود من تلقاء نفسي ،
فقد وجبت على العودة وأصبحت
قدراً محتوماً . . . »



بعذابها في وحشية بالغة حتى نفدت أنفاسه وأسلم
روحه . .

وكان مجلس الشيوخ في روما قد سلم زوجته أسيرين
من أشرف قرطاجنه رهينة عندها ، لتضمن سلامة زوجها ،
وتطمئن على مصيره . . فلما ترامت إلى سمعها أبناء مصرعه
أمرت بأن يُشد الأسيران إلى جدار ، وأن يحكم وثاقهما
ويمنع عنهما الماء كل والمشرب . . ! فما انقضت خمسة أيام على
هذا المشهد الوحشي حتى مات أحدهما من شدة العذاب . .
وخافت « المرأة » أن يلحق به الثاني قبل أن تشبع وحشيتها
النهمة من تعذيبه ، فأمرت بأن يبقى الحي إلى جانب الميت
على أن يعطى له من الشراب والزاد ما يكفل بقاءه في شيء
من الجهد والعناء حتى يطول عذابه ، ويمتد شقاؤه وتثقل
عليه آلامه . . !

فتحركت عاطفة الأنسانية في نفوس الخدم الذين كانوا
يقومون على هذا التعذيب ، وثاروا في وجه « سيدتهم »
ورفعوا أمرها إلى حكام الشعب ، فأنقذوا المسكين من
بين براثنها وأدوا رسالة الأنسانية على كره منها . . ،
وموقف « رجيس » يرضاه الخلق وإن أبتة العدالة .



« فأيقنت زوجته بانعقاد نيته
على البريمينه والرضا بهلاكه ، مرضاة
لضميره واستجابة لشرفه ؛ فتقدمت
اليه ضارعة تسكب على قدميه دمعها ،
وتلتمس منه البقاء مرضاة لولديها ؛
ولكنه أشاح عنها بوجهه ؛ ومضى
الى لقاء موته . . !! »

لأن العدالة إنما تقوم على الحق وتستند إلى المنطق . أما
الخلق فانه يعتمد على التضحية ويركن إلى الغيرية...
وكثيراً ما يسلم الحق في الأحكام عن التضحية ، ويرضى
المنطق بالتزام الأنانية . فاذا حرص زعيم أمة على حياته
وضنّ بها على خلاص مواطن من موت محقق ، كان هذا مما
يرضاه العدل ويقبله المنطق — لأن الأمة أحوج إلى
زعمائها من طعام أبنائها — فأما الخلق فانه يكبر من
شأن الذين يتخطون العدل ويتجاوزن قواعد المنطق
ليعيشوا في عالم التضحية المسرفة والغيرية البالغة — وكلما
أسرف الإنسان في التهاون بنفسه وعدم الاكتراث
بمصالحه، مرضاة لعاطفة الغيرية من غير نظر إلى المنطق
والعدل ، كان عند أهل الفلسفة الخلقية أخلق بالأكبر
وأحرى بالاجلال ... !!

فاذا كان رجسٌ — في عرف المنطق والعدالة —
قد أسرف وتجاوز الحد وكلف نفسه فوق ما ينبغي أن
تحتمله، فان الخلق ليرتاح لموقفه ، ويأنس بتضحيته، ويطمئن
إلى إصرافه في الحرص على وعده، وإمعانه في الوفاء بعهده ..

عُود إلى صقلية

احتضار السيادة الرومانية بحراً — حصار ليلبيوم — صقلية في
قبضة قرطاجنة — هملكار رب الأسرة الظالمة للحرب — اريكس
أثرياء الرومان يتسابقون في بناء أسطول حربي — ايحيت — انهيار
قرطاجنة - ضياع صقلية بأسرها - النهاية العيسة للحرب البونية الأولى

تسامع الرومان بالهزيمة التي أدركت «رجيلس»
في مجاهل إفريقيا، فسارعوا إلى نجدة ما بقي من جيشه حتى
تيسر له أن يقهر العدو ويسترد بعض نشاطه. ولكن الأمل
الزاهر الذي أقبل به جيش «رجيلس» قد أضى بعد أسر
زعيمه أكسح لا يقوى على النهوض، ثم لازمه العرج
بعد النصر وأعوزته الحركة السريعة والوثبة العاجلة،
ففكر في العودة إلى صقلية لعله يصيب التوفيق بحراً بعد
أن امتنع عليه النصر الحاسم برأ...

وكانت سيادة روما على البحر بعيدة الشأو ممتدة الأمد
وإن كان أجملها قد حان واقترب ، وأن لأميرة البحر أن
تسترد عرشها المغتصب ، وتستعيد سلطانها المسلوب .
فبارح جند الرومان إفريقيا ومضت إلى صقلية حيث
اشتبكت مع القرطاجنيين عند شواطئها الجنوبية على كره
من ملاحيا الذين أشاروا باجتباب القتال عند هذا
الساحل الخطر — ودارت المعركة وكشفت عن البون
الواسع المدى بين بحارة العدوين وملاحهم . فبينما كان
الرومان على نصيب وافر من الجمل والنقص ، كان
أندادهم من القرطاجنيين موفوري الحظ خبرة وكفاءة
ومهارة .. فأسفرت المعركة عن انهزام الرومان انهزاماً
فادح البأس حافل الخطر ، إذ خسروا خمسة أسداس القطع
التي كان يأ تلف منها أسطولهم البالغ أربعة وستين ومائة
عداً ... !

وداخل الاطمئنان قرطاجنة ، ودب فيها الأمل وتمشى
في كيائها الرجاء البالغ ، فعاودت الانتصار على الرومان في
موقعة أخرى أفقدتهم فيها أسطولاً ثانياً وطيرت الأمل
في سيادة البحر من رؤوسهم حتى اقتنعوا بعد هذا

الفشل الذريع بأن يرسلوا سفنهم تخرج باب البحر وتلاطم
لجته ولا عمل لها إلا أن تحمل الذخيرة للجيش المقاتل . . !
واطمأنت أميرة البحر بعد أن نشرت طيلسانها وأقامت
عرشها واستردت صور لجانها، فمضت إلى « مدينة ليلييوم »
Lilybaeum وضربت عليها الحصار الشديد، وكانت شاهقة
الأسوار محكمة القلاع عميقة الخنادق موفورة القدرة على
القتال. و طال الحصار وانقطعت عن قرطاجنة أنباء جيشها
حتى ظنت به السوء، وسارعت إلى نجدة بأسطول يأتلف
من خمسين بارجة وجيش يبلغ العشرة آلاف مقاتل .

ودارت الحرب حتى تهيأ لبعض الجنود القرطاجنيين
أن يوقد النار في ثلاثة أماكن في المدينة، فزحف الدخان
الكثيف على جيش الرومان وحطّ على بصره حتى كاد
أن يمنع القدرة على العمل، ويباعد بينه وبين الرجاء . .
واحترقت البروج الشاهقة، واتقدت الدور وذابت آلات
الهدم وحلّت الهزيمة على الرومان في غير رفق . .

وكان الأسطول القرطاجني رابضاً في دريانوم
Drepanum خفّ إليه أسطول الرومان خفية وباغته وهم
بالقضاء عليه، ولكن سادة البحر عرفوا كيف يردون.

الهزيمة الزاحفة ، ويقتنصون النصر الهارب ، ويلجئون
القائد المهاجم إلى الفرار بثلاثين سفينة يغمره الحمد لنجاته
بعد أن خسر مائة سفينة بأكثر من تحمل من بحارة
وملاحين ..

وعلى مقربة من كمارينا Camarina لحقت بأسطول
الرومان الثاني هزيمة بالغة البأس وثقلت عليه حتى حطمت
سفينه، فلم يبق في واحدة منها لوح من الخشب إلا أصابه
التدمير . . !

وأضحت اليوم روما من غير أسطول يتولى العمل
على تحقيق آمالها ، ونجد سعي المنافسة حول سيادة البحر
واطمأنت أميرته إلى عرشها حتى غفلت عنها عن حراسته .. !
وكيف يدركها القلق وقد « كادت » صقلية بمدنها و ثغورها
أن تصبح في قبضة يدها . . ؟

أما الرومان فإن الأمل قد عاودهم حين تيسر لهم
الاستيلاء على إريكس Eryx — ثاني جبال صقلية علوا —
فتقدموا لحصار ليلبيوم من جديد . ولكن الأقدار أبت
إلا أن تفجعهم في هذا الأمل فهيأت لقرطاجنة قائدا موفورا
الحظ من البطولة وإن كان في باكر الشباب ، ذلك هو :

«همليكار برقة» Hamlicar Barca - رب القتال براً وبحراً -
فمضى بجيشه إلى صخرة شاهقة على كشب من «دريانونوم»
واعتلاها واحتوى بها وكانت حصينة لا يسهل اقتحامها
أو الهجوم عليها . فلبث جاثماً على قمتها ثلاث سنوات طوال
وأسطوله يجوب شواطئ إيطاليا الجنوبية فينهب منها
ما شاء ثم يعود إليه ليقدم له الزاد وما يحتاج . .

وفي نهاية السنوات الثلاث بارح همليكار مكانه
مختاراً ، ومضى - جيشاً وأسطولا - إلى إريكس Eryx
وحمل عليها حتى أصاب النجح في حملته ولبت فيها عامين
قاوم خلالها عصيان جنوده المرتزقة الذين كانوا يجأرون
بطلب الأجر فيدفعه لهم وعوداً تفلح حيناً وتفشل أحياناً . .

ولكن روما قد عزت عليها هجرة البحر وعادوها
الحنين إليه حتى إذا اشتد بها صح عزمها على بناء أسطول
تقيم به مجدها المنهار . وتسترد عزها الهارب . . ولكن
أين لها المال الكفيل بتحقيق مطلبها بعد هذه الحرب
الضروس التي امتد أجلها ربع قرن من الزمان نزع
ثروتها وخلفها فريسة الحاجة والسغب . . ؟ ولكن ماذا
يُحوِّجها إلى التفكير في المال وأغنيائها مازالوا أحياء لم

يتخطفهم الموت ولم تزل قلوبهم دائبة الخفق باسم الوطن
شديدة الحنين إلى مجده .. ؟

وهكذا يتسابق الخُلص من أثرياء روما في تحقيق مطلبها
وسد حاجتها، ويتبارون في تقديم الأموال وبناء السفن
— كل على قدر استطاعته — حتى تهيأ لروما أسطول
دقيق الصنع محكم البناء يأتلف من مائتي قطعة من ذوات
الخمسة طبقات .. ثم جدّ به المسير إلى صقلية في وقت كان
القرطاجنيون في أمس الحاجة إلى التأهب للقاءه ،
والاستعداد لنزاله — إذ كان الاطمئنان يشيع في
نفوسهم طويلاً وعرضاً منذ قهروا أسطول العدو، وألجأوه
إلى هجرة البحر هذه السنوات الطوال فتقدم الأسطول
الروماني إلى ليليبيوم ودريبانوم فلم يجد أمامه من يعترض
طريقه ويسد السبيل على مطامعه ، فضرب على الثانية
حصاره وأذن لبعض الملاحين أن يأخذوا أنفسهم بالمران
والتدريب على شؤون الملاحة ..

وأقبلت من إريكس Eryx نجدة من خيرة المقاتلين
تحت إمرة بطلمهم هملكار . وخطر لقنصل الرومان أن يثير
الحرب مع « هانو » قبل أن تصله نجدة هملكار ، وكانت

سفن قرطاجنة تنوء بما تحمل من أكداس الذخائر والمؤن. فعاون هذا ما كان يُعوز ملاحيا من قدرة وخبرة وكفاءة وتدريب، حتى إذا التقت بروما عند إيجيت Aegite أفاقت فاذا خمسون سفينة قد استقر بها المقام في قاع اليم، وسبعون ونيف قد صارت إلى أيدي الرومان، وبقيّة الأسطول قد حملته المصادفة على جناح ريح طارئة وقذفت به إلى مرفأ قريب وأنقذته من جحيم الأسر...

فنزح اليأس إلى قرطاجنة وتولاها بقدرته، وتحكم في توجيهها حيثما أراد حتى أعلنت بأن قتالها في صقلية يجر عليها ويلا ثقلا وشرا مستطيرا، وفوضت هملكار في طلب الصلح... وسرعان ما استجاب الرومان لهذا المطلب. فقد كانوا يضيقون بما أنزلته الحروب بوطنهم من ضعف وما أصابتهم به من اضمحلال. ودارت المفاوضات حتى أسفرت عن معاهدة كان أهم شروطها: (١) انسحابت قرطاجنة من صقلية وتسليم روما كافة ممتلكاتها بها — وكان هذا المطلب أدى صدمة أصابت قلب قرطاجنة منذ عرفت سبيلها إلى الكفاح — فقد لبثت في قرطاجنة أربعة قرون طوال جاهدت في القرنين الأخيرين

قوية الأمل في امتلاكها ، عظيمة الرجاء في التهام كافة
أراضيها ومدنها — فصارعت الأغر يق في صقلية وغالبتهم
حتى قضت على نفوذهم فيها وانتزعت الأمل من رؤوسهم ،
وبعثت اليأس إلى نفوسهم ، وأكرهت آخر قوادهم
«بيروس» على مبارحة أرضها محطم النفس كسيح الرجاء ،
ثم صارعت الرومان صراعا عنيفا أسلفنا لك الحديث عنه .
وأفلح جهادها حتى كادت في بعض الفترات أن تبتلع الجزيرة
بكافة ثغورها ومدنها على نحو ما رأيت من قبل ، فلا غرو أن
أدمت هذه الطعنة صدرها وأصابت بالارتجاج منها

(٢) إكراه قرطاجنة على دفع غرامة تبلغ الثمانمائة
ألف جنيه . . في عشرة أعوام

(٣) ألا تشير حربا مع «هيرو» وحلفائه يوما ما

(٤) تساييم الجيش الرابض في إريكس .

فثار لهذا المطلب الجارح «هملكار» وأعلن رفضه
ومضى الجيش إلى قرطاجنة في يأس مرير وألم بالغ .
وبهذه المأساة الممضّة أسدل ستار الحرب البونية

الأولى

اقامة امبراطورية في اسبانيا

طبيعة الشر - حب الشر لأنه شر - تمرد الأشرار - روما
تقبل هديتهم بعد رفضها - اتحاد البركان -

عمرير:

وضعت الحرب أوزارها، وآن للأشرار الذين كانت
قرطاجنة تستأجرهم للذود عنها أن يفارقوا ساحة الحرب
إلى أوطانهم حيث تظللهم راية السلام، ولكن كيف
السبيل إلى هذا وقد ألفت الحروب الطويلة بين قلوبهم
ووجدت بين نزعاتهم وردتهم جيشا «ثابتا» تعرّف بعضه
إلى بعض وطالت بالحرب خبرته حتى مهر في شئونها،
وعز عليه العيش من دونها...! والحرب رغم ما تسفر
عنه من خراب وما تُفضي إليه من أهوال، أمر طبيعي

لا ينبغي اجتنابه والسعى لتلافيه، أو قل إنها شر لا بد منه،
يسوقنا إليها تنازع البقاء، ويُمليها علينا الميل إلى التطور
والنزوع إلى السكّال. وليس من بلد لزم السلام وحرص
عليه إلا دفع عن طمأنينته ثمنا قد يكون أبهظ من ويلات
الحروب، ولكن الشر البالغ أن يتهياً للحارب «إحساس
فنى» يجب إليه القتال لأنه قتال، ويرغبه في الحرب حتى
تصبح غاية في ذاتها. وقد كان هذا حال اللصوص الذين
أسلفنا الحديث عنهم من قبل. والمرء إنما يمقت الشر إن عاش
بعيداً عنه، ويهلع لا ارتكاب الخطيئة إذا لم يألفها، فإن
أقام في جوها وتنفس نسماها أحبها ومال إليها حتى لا يطيق
فراقها، ولا يحتمل العيش من دونها. ! وقد يصبح الشرير
«محترفاً» يفعل الشر لذاته. ويأثم بارتكاب الخطيئة
ولا غاية له إلا التمتع بها، وإشباع شهوته منها. والجندى
الذى يمضى إلى القتال مضطرباً جزعاً ويلقى طعنته الأولى
خائفاً وجيلاً لا يلبث حتى يشتد به الظمأ إلى بقر البطون
وإهراق الدماء...

فكيف يمضى هؤلاء الأشرار إلى بلادهم ليعيشوا
في جو من الدعة والهدوء بعد أن مارسوا الحرب

هذا الزمن الطويل ، وتوثقت بينهم عرى الزمالة وروابط
المحبة ، وألفت بينهم وحدة الأمل ونزعة السوء وفضاظة
القلب وحب الشر والاستهانة بالموت ..؟! إن الحياة
المهادئة الناعمة لا تصلح لهم ولا ترضى مزاجهم ولا
تشبع أطماعهم . فاذا لم يكن ثمة ما يبرر الحرب ، فليكن
حب القتال وحده كفيلاً بانسياقهم لأرقة الدماء وإزهاق
النفوس وبقر البطون وفصل الرؤوس ..

مضى هؤلاء الأشرار إلى قرطاجنة جماعات جماعات
وعسكروا على أبوابها، وشرعوا في نشر الفساد في أرضها،
وطالبوا بأجورهم وكانت قرطاجنة مرهقة أضنت الحروب
ثروتها وأثقلت مآلتها ، فلما سلمتهم جانباً من أجورهم
وطلبت إليهم أن يمهلوها في سداد الباقي تهيأت لهم أسباب
الثورة، وانطلقوا يجأرون بالحرب ويطلبون القتال «بعاطفة
فتية» جعلت الأجر آخر ما يطلبون ..!

وانفجر البركان ناراً وحمماً أربعين شهراً لا يهدأ
ولا يكل ولا يفتر ، حتى اغتصبوا «سردينيا ويوتيكاً»
من قرطاجنة بالعنف البالغ وقدموهما إلى روما ..!
ولكنها أبت قبولهما وحذرت تجارها من أن يتصلوا

بالثوار وإن أذنت لهم في إرسال مدد إلى قرطاجنة . . !
ولعل السر في هذا أنها كانت تخشى انتصارهم ، اتقاء
لزعاجهم وهرباً من صراعهم . . !

ولكن الجشع عاودها ودفع بها إلى الندم على تفريطها
في قبول سردينيا . فلما قدمها لها الثوار لثاني مرة خفّت
إلى قبولها وتهيأت للدفاع عنها ضد كل غاصب توسوس
له نفسه بامتلاكها — وأخيراً تمكن هملكار من أن
يخمد حرب الثوار المتمردين بعد أن سامهم العذاب
ألواناً (الصورة صفحة ٩٣)

وكانت هذه الحرب قد أنهكت قرطاجنة وأرهقت
جنودها وأفقدتها طائل الأموال وآلاف الرجال .
فخافت مغبة الأقدام على استرداد سردينيا بعد أن سمعت
روما تجار بالحرب مع كل من فكر في أمرها ، وتهدد
بالشر كل من أقدم على غزوها . .



الى اسبانيا...

ثورة هملكار على النهاية الآلية في إيجيت - خشية الاحتكاك بروما
- إقامة أمبراطورية على أرض أسبانيا - هانيبال يلتزم اصطحابه
إلى ميدان الحرب وهو في التاسعة من عمره - مصرع هملكار - خلافة
هسدروبال - شخصيته - قرطاجنة الجديدة - غيرة روما -
معاهدتها مع هسدروبال - اغتيال هسدروبال - خلافة
هانيبال - حصاره سغتم - رفضه للقاء الوفد الروماني
- الوفد الروماني في مجلس الشيوخ القرطاجني -
حزب السلام يطلب تسليم هانيبال للأعداء -
الوفد الروماني يخير المجلس بين الحرب
أو السلام مندوب الوفد يتحدى
المجلس - انفجار البركان

انتهت الحروب بقرطاجنة إلى شر ما تنتهي إليه من
سغب وضعف واضمحلال، فهي لا تجرأ اليوم على الوقوف
في وجه روما ولا تستطيع أن تصمد لجيوشها إن اشتبكت
معه في قتال. ولكن على رأسها اليوم بطل من خيرة من عرفت
الدنيا من قادة وأبطال هو : هملكار برقه Hamilcar

رب الأسرة الطامئة للمجد — وقد أنفق ماسلف من حياته في ملاطمة اللجة الطامية والضرب في زحمة الحرب الدامية ، فلن يرضيه اليوم أن يلتزم الدعة ويستكين لذل الرومان ..

فان ثار في وجهه دعاة السلام في مجلس الشيوخ ، واستعانوا عليه بتصوير الضنك الذي جرت به الحروب ، استمد من شخصيته الساحرة ما يعينه على إقناع الأعضاء بضرورة الحرب لأنقاذ الأمة من أهوال الفقر وشدائد الضنك .

وإن جهاد الوطن في سبيل الجزر الجاثمة في البحر الأبيض عامة — وصقلية خاصة — ليطوف بخاطره ، فاذا أربعة قرون طوال عامرة بالكفاح حافلة بالنصر في أغلب مراحلها ، زاخرة بدماء الشهداء من أبناء قرطاجنة وغير أبنائها ، تنتهى كلها على شر ما ينتهى إليه الكفاح في « إيجيت » وما تلاها من معارك أطار الأشرار عثيرها في وجه قرطاجنة .. إن المأساة التي أسدل عليها ستار الحرب البونية الأولى لألمية إلى أقصى حدود الألم ، ذليلة — عند أهل الجهاد — إلى آخر درجات الذلة .



كانوا يسارعون الى ميدان القتال
بعاطفة فنيه جعلت الحرب عندهم غاية
في ذاتها ... فانفجر البركان ناراً
وحماً أربعين شهراً لا يهدأ ولا يفتقر ،
ولا غاية لهم منها الا اشباع شهوتهم
في حب القتال . . وأخيراً تمكن
هملكار من أخماد البركان وعقاب
المتبردين . . .

فاذا ثار هملكار لهذه النهاية الأليمة ، واعتزم السعى
جاداً لاسترداد المجد الشارد ، واقتناص العز الهارب ،
خطرت لذهنه روما الجبارة تنذره بالشر المستطير إن
أقدم على الاحتكاك بها وتهديد ممتلكاتها .. وإن روما
لقوية يُخشى بأسها ولا يؤمن قتلها . وإن قرطاجنة
ليعوزها المال الذى يكفيها استئجار من يقوم بقهرها
وتدمير الشاهق من مجدها ... أيُقعده الخوف من روما
عن السعى فى سبيل المجد والجري وراء الأمل والعمل على
اقتناص النصر .. ؟ لا .. وإن طبيعته لتأبى الاقتناع
بحاله ، والرضا عن حياته .. إن لقرطاجنة ثغوراً تجارية
ممتدة على شواطئ أسبانيا ، فما باله لا يفكر فى فتح هذا
البلد والتجول فى أرضه ، والاستيلاء على خيراته ورفع
العلم فى شتى بقاعه .. ؟ إن روما لا تحميه ولا تتولى
حراسته ، فالهجوم عليه مأمون العاقبة محمود النهاية .
فليمض إذن إلى غزوه حتى إذا نشر طيلسانه فى أرضه ،
تهيأت له القوة التى تعينه على قهر روما ، والجور على
سلطانها واكتساح أملاكها ..

على هذا ينعقد رأى هملكار فى النضال المستظر .

فاذا هم بالرحيل التمس طفله الصغير أن يصطحبه
ليشهد القتال في لجته الطامية وبحره الزاخر ، فاذا تردد
الأب في قبول الالتماس ألح الصغير وأسرف في الأُلحاح
حتى يجاب مطلبه ، فيمضى همليكار مع صغيره خفية إلى
أسبانيا حتى يباغت بالحرب قبائلها مروّعا أهلها زاحفاً على
أرضها ، جامعاً خيراتها حتى يتيسر له أن يقيم على الحرب
تسع سنوات طوال لم تعوزه فيها نجدة من ذخيرة أو
رجال . بل توفر له من الأسلاب والغنائم ما يمكنه من
أن يمد بالمال حزبه في قرطاجنة ليشد من أزره ويضاعف
من جهوده . . .

وفي نهاية هذا العهد الخافل بالمجد يسقط البطل قتيلاً في
معركة حامية، فيحمل العلم صهره «هسدروبال» Hasdrubal
ويمضى في تحقيق الخطة التي راح ضحيتها هذا الشهيد . وكان
«هسدروبال» يمتاز بالمهارة الحربية والحزم الأدارى وحسن
التصرف ومرونة الخلق وسحر الشخصية مما حجب فيه
القبائل الأسبانية وكثيراً من صغار زعمائها . فاستغلّ
مواهبه وكفاءته وزاد فصاهر بيتاً من بيوتات أسبانيا،
فأصابته قضية الوطن من شخصيته المسالمة أكثر مما

أصابته ضربة السيف وطعته الخنجر ..

ثم شاد على كشب من مناجم الفضة الغنية عند الشاطئ الشرقي مدينة أطلق عليها اسم « قرطاجنة الجديدة » سرعان ما ازدهرت ونمت وأضحت عاصمة الأقليم الجديد .. وكان ديب الغيرة من هذا النصر المتعاقب يسرى في كيان روما ويتمشى في صدور أهلها . فلما استعانت بها «سغنتم» Saguntum على الغزاة خفت إلى حمايتها وأقبلت على أسبانيا تنذر بالشر الداهم إن مسّ حليفها السوء ، أو أصاب أهلها الضيم .. فجرت المفاوضات بينها وبين «هسدروبال» حتى انتهت بعقد معاهدة نصت على :

(١) أن يكون نهر الأبرو Ebro حداً فاصلاً لا ينبغي أن تتخطاه قرطاجنة في فتوحاتها شرقاً .

(٢) أن تتمتع «سغنتم» Saguntum باستقلالها وإن كانت خارج الحدود المتفق عليها بخمسين ميلاً ؟ ولبت «هسدروبال» ثمانية أعوام يكيل فيها النصر لوطنه ، ويبسط فيها نفوذه أنى حل وأينما ارتحل ، حتى أقدم على إعدام زعيم من زعماء القبائل الأسبانية عقاباً له على إهانة وجهها للحكومة القرطاجنية ، فثارت قبيلة هذا الزعيم

واتقدت غيظا ومضى إلى القائد أحداً فرادها، واعتاله انتقاما
لزعيمه وغسلا للأهانة التي لحقت بقييلته ..

وخلف القليل بطل^٩ تكشف عنه الأقدار منذ
سبعة عشر عاما حين كان صبيا لم يتجاوز التاسعة من عمره ،
ورأى أباه «هملكار» يهجم^{١٠} بغزو أسبانيا وإقامة امبراطورية
على أرضها ، فهزه الحنين إلى اصطحاب أبيه حتى توصل
إليه ألا يبرح الوطن من دونه ..! ذلك هو « هانيبال »
Hannibal رب القيادة في عصره . وألح^{١١} في التماسه حتى
قبل الأب هذا المطلب العجيب، وتقدم بالصغير إلى المذبح
وطلب إليه أن يضع على الضحية يده ، ويقسم ألا يخلو
قلبه من بغض الرومان وكراهيتهم ما عاش (الصورة ص ٩٩)
وسترينا الأيام أن الصغير قد برّ^{١٢} يمينه فلبث طيلة حياته
يرسل عليهم الجزع ويمطرهم بالهلع والفرع حتى ركل
الدنيا ومضى إلى أخراه ..! وقد سعى أهل الرأي في
قرطاجنة سعيا جادا لمنعوه من خلافة هسدر وبال ، ولكن
الجيش كان يحبه إلى حد العبادة فلم يسع الحكومة في
قرطاجنة إلا أن تستجيب لمطلبه ..

استهل هانيبال حياته قائدا بنصر حاسم على جيش

أسباني قيل إنه بلغ المائة ألف عدا..!

ثم مضى إلى « سغتم » وقرع أبوابها وضيّق الخناق على أنبائها ، وأوقد النار الحامية في أحشائها . فأرسلت روما وفدا يذكره بالمعاهدة التي عقدها سلفه (هسدروبال) مع الرومان ونصت على استقلال « سغتم » فأبى هانيبال لقاء الوفد وادّعى العجز عن حمايته إن وطئت المعسكر قدماه ..! فانطلق الوفد إلى قرطاجنه حيث انتصر له « هانو » زعيم الحزب الذي يؤيد السلام ويهاجم الحرب ودعاه . ونصح أعضاء المجلس بأن يطلبوا انسحاب الجيش ويدفعوا لسغتم تعويضا عما تكبدته من خسائر ، وأن يسلموا هانيبال للعدو لأنه تخطى نصوص المعاهدة وأشرف بوطنه على صراع ممتد النهاية مشوب العاقبة ... ولكن المجلس قد أبى عليه ذلك فعاد الوفد إلى روما مغیظا مخنقا ..

وضرب هانيبال على المدينة وأحاطها بشتى صنوف العذاب وألوانه (الصـورة ص ١٠١) حتى تمزق أمهها في الدفاع وحق بها يأس مرير بعد ثمانية شهور قضتها في دفاع مجيد . فأعلن هانيبال استعداداه للصلح إن رضى



وتقدم الى المذبح « هانيبال » وهو في التاسعة من عمره، وأقسم أمام أبيه على بغض الرومان وكرهيتهم
 ما عاش . . ومضى الصغير الى ميدان القتال في صحة أبيه، وغاب عن الوطن ستة وثلاثين عاماً . . !

أهلها أن يبرحوا أرضها، ويفارقوا سماءها، ويهاجروا
في صحبة زوجاتهم وأولادهم لا يحمل الواحد من متاعه
أكثر من ثوبين اثنين لا يتجاوزهما...!!

ف عقد مجلس الشيوخ في المدينة جلسة فوق العادة تناول
فيها بحث هذا المطلب الذي ينضج الذلة والهوان .
وازدحمت جموع الشعب في قاعة المجلس لتسمع كلمة الفصل
في أمرها، وصيحة الغضب أو الرضا بمصيرها . فتسلل
نفر من أهل الرأي فيها وانطلقوا إلى ميدان في وسط
المدينة وأوقدوا فيه نارا كثيفة جمعوا لها كل ما أصابته
يدهم من أثاث ومتاع وثروة وقذفوا به إلى اللهب حتى
إذا اضطرم وتأجج، وثبوا إليه في عزم كله يأس، ورضا
كله ضيق...!!

وأصبحت الحرب بين روما وهانيبال أمراً محتوماً
لا مفر منه ولا خلاص من شره... فأرسلت إلى
قرطاجنة وفداً ثانياً يطلب التفاوض في أمر الصلح،
ويعلن براءة روما من تهمة العدوان... وتقدم الوفد إلى
أعضاء المجلس القرطاجني وألقى عليهم هذا السؤال :
«أكان غزو «هانيبال» لمدينة «سغنتم» تنفيذاً لأمر الحكومة؟»



وضرب « هانيال » على المدينة
وأحاطها بشق صنوف العذاب وألوانه،
ثم أعلن استعدادَه للصلح إن رضى
أهلها أن يرحوا أرضها ويفارقوا
سماءها ويهاجروا في صحبة زوجاتهم
وأولادهم لا يحمل الواحد من
متاعه أكثر من ثوبين اثنين
لا يتجاوزها . . . !

فأبى المجلس أن يجيب إجابة صريحة وتملّص فقال
مندوبه الذى تولى الكلام باسمه: إن المعاهدة بين روما
وقرطاجنة لم يرد فيها نص بشأن سغتم . أما اتفاقها مع
هسدروبال فليس يعترف به المجلس . . ؟ !

وعند ذلك طوّح « كوتس فايوس » Quintus Fabius
مندوب الوفد الرومانى بيده وثوبه فى قبضته قائلا
فى صوت جهورى يعلن الشر وينذر بالتحدى :

أما مكم الحرب أو السلم ، فاختاروا ما نساؤره .
فارتفعت فى المجلس صيحة تنطق بالتحدى الصارخ :
— تخيروا أنتم ما نريدوه .

فجمع مندوب الوفد طرفاً من ثوبه فى قبضة يده ،
وقذف به فى وجوه الأعضاء وقد تجسمت على سمته
آيات التحدى الصارخ ومعالم الغضب المتقد قائلا لهم :
الحرب نخيرنا .

فانطلقت أصوات الأعضاء صائحة :

— قبلنا قبلنا . وبهذه الروح التى قبلنا بها الحرب
منصليكم نارهنا . . . (الصورة صفحة ١٠٣)
وبدأت الحرب البونية الثانية



في مجلس الشيوخ القرطاجني:

« كوتنس فايوس » Fabius
مندوب الوفد الروماني يتحدى
الأعضاء فيلقى بثوبه في وجوههم ،
ويعلم انفجار البركان من جديد . . .

هانيبال يعبر الألب

— لأول مرة في تاريخ الإنسانية —

صلة التهور بالبطولة - صلة هانيبال بجيشه - قلة جريئة وأكثريّة مترددة -
اقتحام البرانس - الالتحام بالغالين - نقل الفيلة على أديم الماء -
عيون سيبو يلتقون بعيون هانيبال - سيبو يفش عن
هانيبال ثم يعود الى إيطاليا - مشاق الحملة العجيبة -
هانيبال يشرف على سهول إيطاليا ويصبح من
فرط الغبطة والحماس .

إن البطولة لتكبر الحكمة وتعلو على العقل —
ولو خضع أصحابها للمنطق لكان خطبهم واضمحل أمرهم
وباتوا في مستوى لا يعلو طعام الناس إلا قليلا . لأن
أكثر الذين يتنكبون عن مسالك البطولة ويحجمون عن
اقتحام أبوابها إنما يبررون مسلكهم بالمنطق . ويردونه
إلى الحكمة فرارا من اتهامهم بالجبن والخور .. وأخص
مميزات البطولة - فيما نعلم - جرأة لا تفترق في أكثر



هانيبال يعبر الألب لأول مرة في تاريخ الإنسانية

مظاهرها عن الطيش البالغ والتهور المرذول...!
وإن أخطر المشروعات وأدعاها لبثّ الذهول في النفوس،
لو خضعت لمحك العقل وأطاعت ما تمليه الحكمة، لصارت
إلى العدم وما قدر لها وجود.

بهذا التهوس البالغ فكر هانيبال في أن يقتحم جبال
الألب الشاهقة، لأول مرة في تاريخ الإنسانية كلها...!!
ثم يسعى جاداً في فتح إيطاليا...!

ولم لا...؟ إن روما التي استولت على أكبر شطر
فيها ليقلقها اليوم ضجر رعاياها واستنكارهم لها،
واستياؤهم من حكمها، فليس بعيداً أن يسارعوا إلى الثورة
في وجهها والاتصار لعدوها يوم يعتزم تنكيس علمها..

اطمأن هانيبال إلى هذا التبرير من غير تفكير فيما
سيلاقاه في الألب من هول وجحيم، فعاد بعد غزو «سغتم»
إلى قرطاجنة الجديدة، وأذن لمن شاء من الفرق الأسبانية
في الجيش أن يعود إلى وطنه، في زيارة أهله وصحبه
وعشيرته وذويه، قائلًا للجنود في ثقة القائد المطاع من
عشيرته:

« عودوا إلىّ في مستهل الربيع ، وسأتولى بنفسى
قيادتكم في حرب تسفر عن مجد باهر ونصر زاهر »
وكان تخطّى نهر الأبرو إعلاناً لعداوة يطول أمرها
وتشتد نارها بين روما وقرطاجنه . وقد بدأت هذه
العداوة عند ما استباح هانيبال لنفسه حصار «سغنتم» وأبى
مجلس الشيوخ في قرطاجنه استنكار عمله أمام الوفد
الرومانى ، ورفض الاعتراف بالمعاهدة التى عقدت مع
هسدروبال ، ونصت على أن يكون نهر الأبرو حداً فاصلاً
لا ينبغى أن تتخطاه قرطاجنه فى فتوحاتها . .

وفى غسق الدجى استنام هانيبال ليستريح استعداداً
لرحلة الغد ، فرأى فيما يرى النائم شاباً إلهى الطلعة وسيم
المحيا يقبل عليه ويقول له :

« لقد أرسلنى جوبتر Jupiter لأقود جيشك فى فتح
إيطاليا ، فاتبعنى قدماً وحذار أن تلتفت إلى الوراء »
فتبعه هانيبال فى ارتجاف لم يستطع معه أن يمنع عينيه من
الانظر إلى الوراء ، فرأى ثعباناً طويلاً ضخماً الجثة يتعقبه
مدمراً كل ما أصابه فى طريقه .

فلما تساءل هانيبال عمّ يكون هذا ، قيل له إنه دمار
إيطاليا ، فامض في طريقك ولا تطل التساؤل ، ودع خطط
القدر تسبح في ظلامها . . . !

ولما اتصل بالجند عزمه الجبار على أن يقتحم جبال
البرانس ، أدرك بعضهم الخوف وأصابه التردد ، وكان
هانيبال يعلم أن قلة جريئة تسعى معه ، تخدم قضية المجد
الذي يجاهد في سبيله ، خير من أكرثية ضعيفة مترددة .
فطرد من جيشه كل من دب فيه التردد أو لحق به اليأس .
ثم مضى فاقترح « البرانس » بخمسين ألفاً من المشاة
وتسعة آلاف فارس ، وتابع سيره إلى نهر الرون ومضى
فيه حتى تبين على شاطئه الأقصى قوة كبيرة من « الغالين »
تتولى حمايته . وأرشده أدلاؤه إلى وجود جزيرة على بُعد
خمسة وعشرين ميلاً قد يسهل عليهم أن يعبروا النهر عندها ،
ويباغتوا العدو في مؤخره . فأرسل هانيبال فيلقاً من
جيشه للقيام بهذا الغرض . وتقدم الأسبان في هذا
الفيلق إلى الماء وقد شدوا ملابسهم وأسلحتهم إلى مثانهم ،
وألقوا بأنفسهم بين أحضانهم ، ومضوا سابحين حتى بلغوا
المكان الذي قصدوه . وكان الأفريقيون في الفيلق

لا يألّفون الماء ولا يحسنون السباحة ، فعبروا في
أرماث Rafts حتى إذا التأم شمل الفيلق واكتملت
جموعه ، تهيأ لالقاء الطعنة القاتلة في مؤخر العدو حين
تحين الساعة وينادى الخطر ..

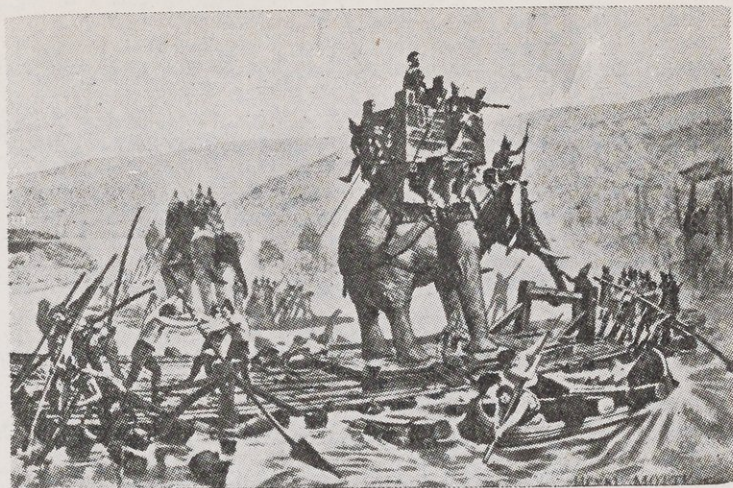
فأما هانيبال فقد كان — أثناء ذلك — جاداً في إعداد
نفسه وتهيئة جيشه لللمحمة التي يزحف خطرهما من غير
توان . فمال على القبائل الموالية له على الشاطئ الأيمن
للنهر وجمع منها ما تيسر له جمعه من الزوارق ليعبر
فيها المشاة من مقاتليه . ثم أقام رجاله للخيالة في جيشه
أرماثا وسفنا تكبر الزوارق حجما وألقوا بها في أعالي
مجرى النهر لتخفف من حدة التيار ، وتهوّن من سورته
حتى تحتمله الزوارق وتقوى عليه السفن الصغيرة ..

ثم رأى أهل الغال دخانا كثيفا يزحف عليهم من الخلف ،
فتبينوا مصدره فإذا هو نار تندلع وتسد عليهم سبيل
الفرار إذا التمسوه . وتحمس هانيبال — وكان على علم بأمر
هذا التدبير — واندفع ماضيا في زورقه الذي ينطلق به
في مطلع الزوارق حتى إذا بلغ الشاطئ وثب إليه وحمل
على العدو الذي جفل أمامه ، وانكسر من غير أن يقاوم

هذا الشر الزاحف من وراء ومن قدام ..

ولكن الفيلة ما زالت على الشاطئ الآخر، فكيف السبيل إلى نقلها .. ؟ خطر له أن يبنى لها رمثاً كبيراً يغطي أرضه بتراب ليختلط عليها الأمر فتحسبه أرضاً ولا تجفل إذا سيقت إليه ، وثبته في الشاطئ وشد عليه رمثاً آخر يصغره حجماً حتى إذا سارا على ظهر الماء ريع الفيلة ونزل بها الهلع ، وامتنع عليها سبيل النجاة . فسكنت في مكانها لا تقوى على الحراك (الصورة ص ١١١) — إلا اثنان منها خرج بهما الروع إلى الوثب في الماء والسباحة فيه حتى الشاطئ الآخر ..

ومضى هانيبال حتى بلغ « إزير » Isère واستمد العون ممن حالقوه في أهلها . وزود جيشه بما يتطلبه من معدات وذخائر — حتى الأحذية أخذ منها بنصيب وافر ! .. !
والرومان .. ؟ أكانوا في غفلة عما ينتظرهم من شر ويقبل عليهم من ويل .. ؟ لا . بل كانوا منصرفين إلى قتال الغالين في شمال إيطاليا ، فلما تسامعوا بأمر هانيبال خف سيديو Publius Cornelius Scipio إلى لقائه عند منابع النهر ، ولو سار إليه تواء من غير تباطؤ ، لكان من المحتمل أن يصد



وعبرت الفيلة نهر الرون على
أرماث ، فلزمت السكينة من فرط
الجزع حتى بلغت شاطئ النهر . . .

غارته ويقوى على رده ، ولكنه تريت هناك ولبت في مكانه وأرسل فرقة من خياله، لتستطلع الأمر وتوافيه بالنبا اليقين . فأخذت تتجول حتى التقت بفرقة من خيالة هانيبال كانت تطوف في جنبات الوادي رغبة في التجسس على العدو واستطلاع أنبائه، فبدأت ملحمة حادة أفضت إلى انتصار الفرقة الرومانية، فعادت إلى بطلها تحذنه نبأها، وسارع سينيوس إلى هانيبال حتى إذا بلغ مكانه افتقد أثره وضل طريقه، فلم يلحق به باحثا عنه تلافيا لما قد يعقب اللحاق من شر ويتسبب عنه من خطر . وأوفد أكثرية جيشه إلى أسبانيا تحت إمرة أخيه، وقفل راجعا إلى إيطاليا .. أما هانيبال فقد أقام الدليل بهذا الأقدام العجيب على أنه قد صيغ على غير شاكلة الناس ..

وإن مسير جيش لجب محل بكل ما يتطلبه من ذخائر وأثاث وفيلة وخيل ، ومضيه إلى الألب ليعبرها ويقتحم صعابها ويتخطى مشاقها لا أقدام يتجاوز نطاق التصور ويجور على حدود المنطق . وقد شرع هانيبال في تنفيذ هذه الخطة الجهنمية في فصل يشتد فيه البرد اشتدادا

لا يتفق مع الجهد الشاق الذي يتطلبه تحقيق هذا المطلب العسير
وما وقفت الطبيعة وحدها في وجهها نيبال ترده عن عزمه،
وتدفعه عن الأقدام، فقد انتشرت في طريقه قبائل جبلية
متوحشة تثير العداء في وجهه وتنشر العثير في عينه، رداً لتطفله
على بلادها، واغتناماً لفرصة السلب والنهب وما إليهما بسبيل،
فما ارتقى الجبل حتى بدأت حملاتها تتوالى وهجماتها تترى
حتى كاد أن يبلغ نهاية رحلته. وقد استهل مسيره بطريق
ضيق شديد الانحدار فصب عليه أهل الجبل وابلا من
قذائفهم، وأمطروه بالهجمات حتى كان الجيش لا يقطع
ميلاً واحداً إلا إذا ظفر به بعد حرب ضروس يثيرها، إلى
أن بلغ بحيرة بورجت Bourget حيث زائله الخوف وداخله
الاطمئنان. فانطلق إلى مدينة يستوطنها الجيليون واستولى
عليها واسترد منها معظم ما سلب من متاعه، ونهب من
من أثاثه. ثم مضى في طريقه آمناً ثلاثة أيام لجأت القبائل
بعدها إلى الحيلة ولاذت بالمكيدة بعد أن امتنعت عليها
مطاردته بالقوة، وعزّت مقاومته بالشدة، فسار زعماءها
إلى معسكر القرطاجنيين وزودوه بالمدد وقدموا له
الرهائن. لتتطوّر بولائهم له، وعطفهم على حركته.

وتظاهروا بالاستعداد لاُرشاد الجيش إلى سبيله من
أخصر الطرق وأدعاها للأمان . ورغم ما لزمه هانيبال
من حيلة وحذر وتردد فقد وقع في الشرك ، وأذن لهم
في قيادة الجيش فسلكوا به طريقاً شديدة الضيق تحفها
الأخطار ، ومضوا فيها حتى إذا حانت الساعة استيقظ
الجيش من غفلته فاذا الصخور الضخمة تنحدر زاحفة
إليه ، ووابل الأحجار ينهال عليه — في غير تمهل ولا
انقطاع . . . وساعده على احتمال هذا الشر النازل وجود
الفيلة في صفوفه لأن الأعداء كانوا يخافونها ويجفلون إذا
رأوها مقبلة عليهم في سلاحها الرهيب حتى تمكن من أن
يصمد لهذه المكيدة وينجو من شرها وإن لحقته منها
خسارة فادحة . (الصورة ص ١١٥)

وكان هانيبال يلتقي في مسيره بصخور ضخمة لا يقوى
رجالها على ارتقائها أو اقتحامها أو الانحدار منها ، فكان
يلجأ إلى أشجار تجاوره فيستمد منها الوقود ويكدسه
أكواماً كثيفة يوقدها إذا هبت الريح ، ويصب الخل
فيذوب الصخر وينحل حتى لا يقوى على احتمال الآلات
الحديدية التي تعمل فيه بعد . .



همة الفيل في ميدان القتال . . !

وكان الجيش يمضى في طريقه يقاوم البرد القارس
والثلج الهاطل والصخر الرابض والعدو الكامن.
والتَّصَبَّ الملازم والمرض الداهم. حتى ارتد الجنود
إلى اليأس ومالوا إلى القنوط .. ولكن هانيبال أخذ
يذكى حماسهم ويصون نشاطهم ويوقد آمالهم، ويُلَوِّح لهم
بما ينتظرهم من خير حتى أشرفوا من قمة عالية على سهول
إيطاليا الخصبة فصاح فيهم قائلاً :

« إيطاليا لا تقنعنا .. روما .. روما ستكون في قبضة يدينا
بعد معركة — أو معركتين انه طال الجحود واشتر الكفاح »

وانحدر الجيش إلى السهول فبلغها في ستة أيام بعد
أن جاوزت رحلته إليها من « سغنم » أربعة أشهر طوال
حافلة بالأهوال ، وأضحى الجيش عشرين ألفاً وستة
آلاف فارس — أنهمكهم النَّصَب وضعضعهم الضعف .
وخلف في طريقه ثلاثة وثلاثين ألفاً نهباً مقسماً بين
المرض البغيض والبرد الشديد والتعب المُلِح ..

فتح إيطاليا

١- تريبيا Trebia

١ « تريبيا : آية النعمة في سبيل الإنسان — استهانة قادة الحرب بالنفوس البشرية — خلفاء سيبيو يحملون رؤوس الرومان إلى معسكر هانيبال — فرار سيبيو إلى تريبيا — انتصار هانيبال .

ب « ترازمين : خلفاء هانيبال يضيقون به — تنكره — مشاق رحلته العجيبة — فقدان عينه — لا يشعرون بهزة زلزال عنيف — اكبار البطولة للبطولة — الاحجام عن غزو روما — سياسة التخريب .

ج « سياسة التواني في اضرار النار : مثال من حيل هانيبال مع أعدائه — المشاعل في قرون ألفين من الثيران . هياج الحلفاء على قائد الرومان — عودتهم إلى الرضا عن سياسته — فوز الحرب الداعي للحرب في الانتخابات — فارو وأمليوس .

توارت من جنود هانيبال بعد هذا الجهد الممض
« سبيل الإنسان » وسواهم التعب الشاق في سحنة القردة وما
إليها بسبيل . وليس ذلك يدع فان المكدود الذي أعياه

الأجهد طويلا، يحمل معالم الشقاء وآيات النصيب في سحتته،
كما يحمل السعيد الذي طال تمتعه بالعيش الرغيد آية النعمة
في وجهه، فأصاب العطف هانيبال على هؤلاء الأشقياء
الذين يسمون « ناسا » تجوزا في التعبير . . ! وأمهلمهم
عدة أيام يتنفسون فيها برد الراحة . . ثم ألقى طعنته الأولى
فاذا قبائل إيطاليا الشمالية في صفه، تدمه بالعون، وتزوده
بالذخيرة، وتقدم له المقاتلين عن سعة . . !

فلما بلغه أن سيديو P. Scipio قنصل الرومان قد اقتحم
جبال « الأبنين » وعبر نهر « البو » وتهايا للقاءه، أمر
طائفة ممن أسرهم عند اجتياز الألب أن يقاتل بعضهم
بعضا، فمن أصاب نصرا فقد فاز بحريته وانطلق محملا
بالسلاح جزاء انتصاره، ومن أخطأه التوفيق لقي حتفه
إن ضل الموت سبيله إليه أثناء قتاله. وأقيمت المباراة وأقبل
الأسرى على القتال يحتويهم الأقدام ويملاهم الحماس
ويحدوهم الأمل، وتحوطهم غبطة زملائهم من سكان الألب
الذين لم يقع عليهم اختيار هانيبال . . . وبينما المقاتلون
يُشيرون العثير ويُغيّبون خناجرهم في أجسام خصومهم .

فتهوى على الأرض جثثهم إذ بهانيبال يتجه إلى رجاله
ويقول لهم :

« إن هذا ليمثل موقفكم أصدق تمثيل ، فأنتم اليوم
مخيرون بين أمرين لا ثالث لهما : التمتع بفخار النصر
وجلال الحرية ، أو ملاقة موت شائن لا مفر منه ولا
خلاص من عاره . فانظروا كيف أقبل على القتال هؤلاء
البرابرة ، وحذار أن تكونوا أقل منهم حماسا للحرب
واتصارا للقتال ... ؟ »

وكان يعلن — منذ عبر الألب — في أنحاء إيطاليا أنه
إنما جاء ليخلص الطليان من شر الرومان ، وأعطاهم دليلا
يشهد بصحة دعواه فأطلق سراح الأسرى من أهل إيطاليا
دون أجر ولا اقتداء .

ثم اضطربت النار بين العدوين على الشاطئ الشمالى
لنهر البو واشتد سعيها حتى كاد أن يقضى سيبيو فيها
نحبه (الصورة ص ١٢١)

ولكن ابنه الذى لم يتم الحلقة الثانية من عمره قد
أنقذه من فم الموت بعد أن أصابه جرح بليغ . . ثم
لاحت بوادر النصر بعد أن طال انتظاره وامتد أمد الجهاد

في سبيله ، خفف إلى معسكر هانيبال كثير من قادة الغالين
الذين كانوا ينتصرون للرومان وينتظمون في صفوفهم .
بل انقضّ بعضهم على الرومان وأعمل فيهم سيوفه
وخناجره ثم حمل رؤوسا فصلها عن أجسام أصحابها ومضى
بها تحت جناح الظلام إلى معسكر هانيبال لتكون أنطق
دليل على وفائه، وأبلغ حجة على استيائه من الرومان !!
فدعا هانيبال قادتهم وزعماءهم واستعرضهم أمامه ،
ليعرف مدى العون الذي ينتظره منهم ، وغاية الولاء الذي
يحملونه له في قلوبهم (الصورة ص ١٢٣)

وارتاع سيديو لهذه الحركة التي أخذت تسرى في
حلفائه من أهل الغال ، ودفع به الفرع إلى المضي شمالا
حتى إذا بلغ تريبيا Trebia استقر بها واطمأن على حياته
من كل سوء . . .

وأرسل هانيبال الأفريقيين من فرسانه ليتعقبوه
وينزلوا به الشر في طريقه ، فأبطأوا وتوقفوا عن المسير
عندما بلغوا معسكر الرومان ليقوموا بواجبهم في نهبه
وسلبه أحراقه . . . !

وعوّض هانيبال هذه الفرصة التي فرت من يده

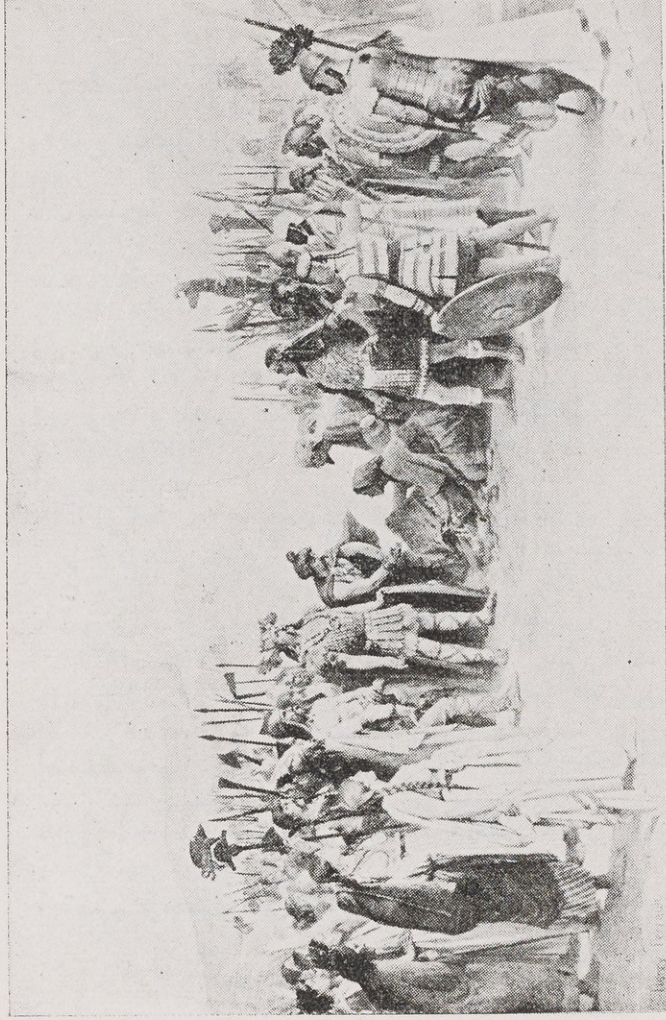


احدى المعارك بين « سيبو » وهانديال

بالاتفاق مع حارس الحصن الذي جمع فيه الرومان
ذخائرهم ، على تسليمه في سبيل أربعمائة قطعة من الذهب .
وأقبل بعد هذه الصفقة قنصل الرومان الثاني فآض
جيشهم لجباً يوحى بالأمل ويبعث على الرجاء ، فاعتزم
أن يسارع إلى القتال حتى إذا تخلف زميله بسبب الجرح
الذي ألزمه فراشه ، حمل وحده فخار النصر الذي يصيبه ،
واتجه إليه إعجاب روما وإكبار جنودها قبل أن
تنقضى سنة خدمته . . .

وكان هانيبال لا يقل عنه شوقاً للحرب ورغبة في
اقتحام نيرانها ، فأعلنه بها وتقدم له قائد الرومان بجيش
يلذعه الجوع ويؤذيه برد الشتاء القارس . وكان المطر
ينهمل في غير شح حتى غمر نهير ترييا وعلا بين
شواطئه حتى بلغ صدور الرجال .

أما جيش هانيبال فقد كان يقاتل موفور الحظ من
الدفء والشبع على السواء ، فأثنى عدوه ضرباً وقتلاً
وأطلق فيه يده حتى أفقده نصف قوته الجبارة بين هالك
وشريد وأسير وضال . . !



دعا هانيبال قادة الغنـاليين وزعمائهم ، واستعرضهم أمامه ليعرف مدى العون الذي ينتظره
منهم ، وغاية الولاة الذي يحملونه له في قلوبهم ...

— ب — ترازمين

ولكن أهل الغال الذين خفّوا إلى نصرته من قبل ،
وأمدوه بالعون وأحاطوه بالعطف قد أحسوا بأنهم مطالبون
بأن يسدوا حاجة الجيش من زاد وذخيرة ومقاتلين ، فساءتهم
هذه الضريبة البغيضة وتنكروا له حتى داخله الريب
في إخلاصهم ، وخشى أن يغتاله واحد منهم . فأخذ يتنكر
في زيه ويلبس شعراً مستعاراً ويجاهد ليخفي عنهم
أمره . . . !

وكانت جيوش الرومان تراقبه وتتولى حراسته .
فاتّقى في سيره مواطن وجودها ، وانطلق إلى قلب اتروريا
Etruria - في شمال إيطاليا - سالكا أخصر الطرق وإن ملأته
المستنقعات حتى عزّ على رجاله أن يجدوا فيه مكاناً يتنفسون فيه
برد الراحة ، فكانوا إذا ضاقوا بمشقة السفر ألّقوا في الماء
أمتعتهم وجثث الهالك من خيلهم ، وانخطوا عليها هامدين .
وقد أدركهم في هذه الرحلة النصب الممّض ، ونزل
بهم الجوع البغيض ، ولجّ بهم شوق إلى النوم ، ولحق بهم أذى

بالغ . وقاسمهم هانيبال ما اصطحبهم في رحلتهم من
شقاء ، وسابقهم إلى أخذ نصيبه كاملاً غير منقوص ،
فجاز برمد أصاب عينيه ولم يفارقهما حتى اصطحب معه
إحدهما . . . !

ومضى هانيبال في طريقة وخلف وراءه جيش العدو
وأضحى خطراً يزحف على روما التي لا يفصلها عنه جيش
يحميها ويتولى الدفاع عن أهلها . فلباطار النبأ إلى «فلامنيوس»
Flaminius قائد الجيش الروماني تعقبه في غير تباطؤ .
فكمن له هانيبال — وكان يتوقع مجيئه — في تلال تمتد
على كشب من شواطئ بحيرة ترازمين Trasmennus
حتى إذا مر به انقضَّ عليه هانيبال بخيله ورجله وأوسعه
ضرباً وأثنخه قتلاً وقتك به فتسكا ذريعاً . ولم يتيسر للعدو
أن يتقي هذا الشر الداهم لأنه فوجيء به على غرة وهو
محصور بين البحيرة وجيش هانيبال في جو أعتمه الضباب
الكثيف . وكان جيشه — إلى هذا — مضطرب النظام
يُعوّزه التدريب وينقصه الممران ، إذ كان حديث عهد
بالحرب لا يعرف أفراداً إلا فلاحاً إلا أرض وزراعة الكرم
وصناعة النبيذ .

على أن المعركة قد استمرت تضطرم ثلاث ساعات
كوت فيها المقاتلين بنارها. وأفقدتهم إحساسهم بما يدور
حولهم حتى لم يتيسر لواحد منهم أن ينتبه لهزة زلزال
عنيف ثار أثناء المعركة، وأصاب بالتخريب أكثر من
مدينة في إيطاليا...!

وسقط في هذه المعركة الحامية قائد الرومان فلامنيوس
وخارجنده وخبت نارها، فالتمس بعضهم سبيل الهرب بين
التلال وسبح البعض ناجياً بنفسه، وتوقف عن السباحة
من كانت تثقله الأسلحة، وجازف بعض هؤلاء فألقى
بنفسه في أحضان الماء يائساً، فغرق من غرق وتقهقر
إلى الشاطئ من لم يقوَ على السباحة، فاستقبلتهم سيوف
الأعداء وقامت بواجبها نحوهم... (الصورة ص ٢٧)
وقد تجاوز عدد الهالكين الآلاف من الرومان، وألفين
 وخمسمائة مقاتل، وبلغ عدد الأسرى من الجيش المنهزم
خمس عشرة ألفاً...!

فلما سكنت عاصفة القتال وثبت الذكرى إلى
خاطر هانيبال، وملأت كيانه بالأسى لمصرع خصمه
العنيد: قائد الرومان، فأمر رجاله بالبحث عن جثته



في تارمين :

النس بعضهم سبيل الحرب بين
التلال ، وسبح البعض في الماء ناجيا
بنفسه ، فتعقبهم جنود هانيبال
وأدوا واجههم نحو اعدائهم . . !!

ليحسن دقنها ويعز مشواها ، ويؤدى واجبه فى إكبار
البطولة وتقديس ذكراها ... !

ثم انتقل هانيال إلى الجنوب دون أن يفكر فى
غزو روما التى يُعوزها اليوم من يحميها ويقوم على
الدفاع عنها . ومضى إلى الجنوب الشرقى يعيث فى كل
أرض يمر بها فساداً ، ويمتص ما بها من غنائم وأسلاب
حتى بلغ البحر الشرقى على كسب من مدينة «هادريا» Hadria
واستراح بعد هذا العناء الشاق .. وكانت خيله مغطاة بالجروح
والقروح فاغتسلت بنبيذ معتق عافاها من آلام ما بها .
ثم خطر له أن يتصل بوطنه الذى انقطعت عنه أنباء
حملته منذ عبر نهر الأبرو ، فأرسل إليه رسلة حاملة وصف
ما قام به من حروب وما انتهت إليه من نتائج ..

وانطلق بعد هذا إلى الجنوب مطلقاً يده بالتخريب
والتدمير فى الجناح الشرقى من إيطاليا حتى بلغ «أپوليا» Apolia
وكانت عداوته وقتئذ وقفاً على روما وحدها ، فأمر
بقتل مواطنيها وإهلاك فتيانها الذين يقوون على حمل السلاح ،
أما الطليان الذين وقعوا تحت يده فقد عفا عنهم وحرص
على سلامتهم .

ج - سياسة التواني في إضرار النار

فلما عرفت روما أن هانيبال قد خلفها وراءه ماضياً في طريقه، زایلها الفزع وفارقها الجزع، وتيسر لأهلها التفكير في جو من الهدوء والسكينة. فأجمعوا على الحرب رأيهم دون أن تدب إلى واحد وسوسة الضعف، أو تتسلل إليه همسة العجز فتميل به إلى الرغبة في التسليم، أو يهزه اليأس إلى التفكير في طلب الصلح ..

وسلمت روما قيادتها إلى جندي مارس الحرب وخبر شئونها ومهر في فنونها، ونصبته دكتاتوراً لا يحاسب عما يرى ويفعل - ذلك هو فاييوس - Quintus Fabius Maximus فبدأ بتقوية الجيش والأسطول معاً . ثم أمر بتخريب كل شيء يمر به هانيبال . فلما تقدم جيش هذا في طريقه أحس كأنه يضرب في صحراء تشملها العزلة، وينتشر الركوند في فضاءها العريض ... ! وانطلق في طريقه لا يجد من يعترضه أو يقاوم هجومه حتى بلغ أغنى مكان عرفته الدنيا في زراعة الكرم -

ذلك هو « سهل افلارنيان » Flarenian Plain وتعقبه
« فاييوس » حتى إذا لقيه في هذا السهل وثبت الغبطة إلى
نفسه، واستخفّ الرضا وأخذ الظن بأن عدوه قد صاده
الشرك ، وانسدت في وجهه سبل الخلاص في شتى المناحي . .
ولكن هانيبال كان خصب القريحة سريع البديهة ،
في ذهنه فيض من الحيل والمكائد ينطلق في أشد الأوقات
عسراً وضيقاً . فما أحسّ بتعذر الهرب حتى هياً الحيلة
التي تكفل لنفسه ولجيشه النجاة محملاً بكل ما أصابه في
طريقه من غنائم وأسلاب ، قيل إنه جمع ألفين من الثيران
التي كانت تكتظ بها البلاد التي قام بسلبها وتخريبها ، وأوثق
بقرونها جميعاً حزماً من عساليح جافة . ولما أقبل غسق الدجى
تقدم إلى الشرق والثيران في طليعة جيشه ، فمابلع التلال
حتى أمر بأن تشعل حزم العساليح . (الصورة ص ١٣١)
فلما انتشر وميض النور شاع الرعب في الثيران ، وما
اتصل اللهب بلحمها عند منبت قرونها حتى اندفعت تعدو
إلى الأمام في وحشية بادية الأثر ، فريغ الأربعة آلاف
روماني الذين كانوا يقومون على حراسة الممر الرئيسي
في التلال ، ونال منهم هذا المنظر كل منال ، وأيقنوا أنه



امرى ميل هانيبال : يجمع ألفين من الثيران ويوثق بقرونها حزاماً من
 عسالىج جافة ، يشعلها في غسق الدجى فترتاع الثيران
 لوميضها ، وتضطرب حين يتصل اللهب بمنبت قرونها ، فتعدو في اتجاه العدو
 الذى يأخذه الروع وتذهله الحيرة فى أمرها ...

خطر رهيب يقبل عليهم ويسارع إليهم وإن تعذر عليهم
أن يدركوا مغزاه...! فبارحوا مكانهم وانطلقوا إلى
أعلى التلال مذعورين...!

ورأى فايوس هذا المشهد العجيب وهو في معسكره .
فشاعت الحيرة في نفسه ولم يجرؤ على أن يبرحه حتى
تنفس الصبح...! ونجا هانيبال بجيشه وأسلابه فتعقبه
فايوس وقد ناء بثقل هذه الصدمة ، لأنها أثارت عليه
خصومه الذين أخذوا يهاجمون في المجلس سياسته ، وينعون
عليه تفويت الفرص بالتزام البعد عن الحرب على كره
منهم — فالخلفاء الذين خلف لهم هانيبال الخراب والدمار
في بلادهم ، ولم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم تنفيذاً
لسياسة الدكتاتور ، قد هاجوا غضباً وغلا الدم في رؤوسهم ،
وصبوا على فايوس لعناتهم في سخط . وكذلك كان
موقف الأغنياء الذين رأوا ممتلكاتهم وقد أصابها الخراب
وتولاها الفقر ، قد جأروا بالاستياء والشكوى .
وانطلق الدكتاتور إلى روما في قضاء أمر يعنيه ،
وترك قيادة الجيش لسيد الفرسلان — كما كانوا يسمونه —
«منو كيس» Minucius بعد أن شدد عليه في التزام السياسة

التي ترمى إلى تجنب القتال مع العدو — جرياً على سنته —
ولكنه عصى الأمر وقام بحرب أفضت إلى نصر غير مبين .
فلما اتصلت أنباؤه بروما اشتد خصوم فايوس في الهجوم
عليه والخط من شأنه والسخرية بسياسته . وطالبوا
الشعب بتقسيم الجيش بين الدكتاتور وخليفته — ولكن
هانيبال أنزل بالثاني هزيمة أدت به إلى الاعتراف بخطيئته ،
وتسليم القيادة كلها إلى بطلها فايوس .

وكانت سياسته ترمى منذ البداية إلى ترغيب الرومان
في الحرب ، وكانوا يرهبون نارها ويخشون شرها حتى
صبّ المواطنون على قادة الجيش سخطهم ونالوا منهم كل
منال . وخاف هؤلاء إن هم تمادوا في ترك هانيبال
يعيث في الأرض فساداً أن يفقدوا عطف حلفائهم
ولا يجدون النجدة إذا التمسوها ، فمالوا إلى الحرب وكانوا عنها
معرضين . .

ولما بدأت الانتخابات فاز الحزب المؤيد للحرب
فوزاً مبيناً وانتخب « فارو » C.T.Varro قنصلاً بأغلبية
ساحقة ، فأضاف إلى جيشه قوات عديدة آض بعدها
تسعين ألف مقاتل يحنون إلى الزحف على هانيبال .

أما القنصل الثاني أمليوس Amelius فقد كان
جندياً مارس الحرب وخبر أمرها ومهر في فنونها، فوثب
إلى خاطره الشك فيما ستنتهي إليه المعركة المعتمز إثارتهما .
وأراد التمهّل بها والانتداد في خوض غمارها، فأخفق مسعاه
لأن « فارو » كان تواقاً لها نزاعاً لا إشعال نارها .
ومضى — على كره من زميله — إلى مكان يتوسط
هانيبال والبحر ، ثم استقر على أرضه ، فكان هذا نذيراً
بما ينتظره من ويل وما سيلقاه من شر .

مجزرة كاني

الشخصية الأخاذة - جيوش العدوين - علم يخفق على معسكر
« فارو » - جحيم القتال - رسالة « أمليوس » إلى
روما - فظاظة القرطاجيين

للشخصية الفذة سحر أخاذ بالنفوس خلاب للخواطر
خداع للناس ، وإن صاحبها ليفعل باسمها ما لا يقوى على
فعله بكل ما أوتي من مواهب وكفاءات ، وإنه ليتسلط على
رقاب الناس وليس لديه من الصفات الملبوسة ما يبرر
سلطانه الواسع النطاق .. بل إن اسمه وحده ليحمل
الناس على جناح الخيال ويسوقهم على غير وعى منهم إلى
حيث لا يرغبون ...

وقد كان هانيبال — كسائر الأفذاذ من الأبطال —
يبعث في جنوده الميت من آمالهم ، ويشعل الخابي من

نشاطهم ، ويثير الراكد من حماسهم حتى ليحسون بالحياة
تدب في نفوسهم ، وفتوة الشباب تشيع في كيانهم ، رغم
ما ينالهم من ضعف وما ينتابهم من اضمحلال ..

وقد حطَّ على الجيش الهزال بعد ما خاض من معارك
واقحم من حروب ، وها هو ذا اليوم يقبل على معركة
حامية دامية ، فيخلق هانيبال من هزلة قوة ، ومن ضعفه
فتوة ، ومن يأسه رجاء ومن ركوده نشاطاً ..

وأقام «هانيبال» معسكره على كشب من «كاني» Cannae
جنوبي نهر أفيدس Aufidus وكان جيشه ستين ألف
مقاتل فوكل إلى عشرة آلاف منها حراسة المعسكر .
وأقام في الجناح الأيسر (الخريطة ص ١٣٧) ثمانية آلاف
فارس كلهم أسبان وغاليون ، يتولى قيادتهم هسدروبال —
وهو غير هسدروبال أخو هانيبال — ويليهام المشاة
من أهل إفريقيا ، وقد استعاروا ملبسهم وسلاحهم من
غنائم « تريبيا » Trebia وترازمين Trasemene ويليهام
بقية المشاة من الأسبان والغاليين يتولى أمرهم « هانيبال »
وأخوه « ماجو » Mago وقد ارتدى الأسبان كعادتهم ثياباً
من كتان في أكمام قصيرة وتقلدوا سيوفاً ذات أطراف

مدية يلقونها في جسم العدو ولا يطعنونه بها وهي باقية
في أيديهم ، أما أهل الغال فكانوا يحملون سيوفاً طويلة غير
مدية تظل في أيديهم طوال المعركة . وقد استعان الفريقان
بدروع مستطيلة تقيهم شر الأعداء . وكانوا أطوال الأجسام
حتى بدوا عمالقة في نظر الرومان والطلليان . وكان يلي
هؤلاء جميعاً فرسان من أهل إفريقية ونوميديا Numidia
أما الرومان فقد كان جيشهم ثمانين ألف مقاتل ،
يبدأ بفرسان روما ، يليهم المشاة ويبلغون سبعين ألف
راجل ، يعقبهم فرسان الحلفاء يتولى قيادتهم « فارو »
وتنفس الصبح مع علم يخفق على معسكر « فارو »
معلنًا الحرب منذراً بشرها المستطير وويلها الرهيب . .
وكان الرومان يواجهون الشمس في وقتهم ، فأنقذهم
الصباح الباكر من أذى توهجها ، ولكن ريحاً حارة سافت
سحباً من الأثرية على وجوه الرومان كادت تفقدهم
القدرة على النظر إلى ما يجري أمامهم . . وبدأت المعركة
بوابل من الأحجار يهطل على الجيش الروماني ، ويشير
حتى يتقد العراك ناراً حامية ، فيتطاير العشير وتغيب
في الأجسام السيوف ، وتدفن الحراب والخناجر ،

وتسيل الدماء ، وتغطي الأرض جثث القتلى والجرحى ،
ويمتلئ الجو بالأنين يتجاوب مع صليل السيوف حتى
يملّ القرطاجنيون الذبح والفتك والأسر والتشريد .

وقيل إن في هذا العذاب الذي يتقد في جهنم طارت إلى
صفوف الرومان كتيبة من جيش هانيبال ، وألقت على
الأرض حرايبها ودروعها وكل ما تحمل من أدوات القتال
وسلمت للعدو نفسها ، فرحب بها وأخلى لها الطريق لتجتازه
إلى صفوفه الخلفية . . وتظل النار في اشتعالها حتى إذا حان
الوقت الملائم واشتد هانيبال على صدر الجيش الروماني ،
أخرجت هذه الكتيبة حرايبا وخناجر وسيوفاً كانت
تخفيها تحت ثيابها ، وأعملتها في مؤخرة الجيش المخدوع ،
فانتشر فيه الذعر وذاع فيه الروع وعلا صياحه وعويله ،
وتمشى الاضطراب بين صفوفه ، وانطلقت جموعه
تهرع يمنة ويسرة لا تعرف اتجاهها تسلكه لتتجو من
هذا الجحيم ، وتتقى العذاب الذي يطرها به هانيبال
ويحيطها بشره من وراء ومن قدام . .

وتتساقط جثث الخيل مع جثث القتلى والجرحى
بعضها فوق بعض يلاقى الحى منها عذاب الأثقال التى يحملها
فوق آلام ما ينبث فى جسمه من جروح...!
وفى وسط هذا الجحيم يبصر ضابط روماني ضابطا
من جنسه وقد انحطّ على حجر، واثنت رقبته لا يملك
رفعها والدم يتدفق من جسمه، فيسير نحوه ويتبينه فاذا
هو القنصل الروماني « أمليوس » يوشك أن يدركه
الأغماء...! فيتقدم الضابط نحوه ويعرض عليه جواده
ليمتطي ظهره، وينجو من هذا العذاب الذى يتنفسه كارها -
فيأبى القنصل قائلا :

لست أريد البقاء حيا، فامتطِ جوادك وسارع
إلى روما، وقل للحكومة على لسانى إنا خسرنا كل شيء،
لنتأهب للدفاع عن روما قبل أن يدركها هانيبال...! فيتركه
الضابط ويمضى على جناح البرق ليعلن لها هذا النبأ المروع...
ويبقى القنصل فى مكانه لا يريم حتى يمر به فيلق من جيش
هانيبال فيغرز فى جسمه الواهن حرا به واحدة بعد أخرى
حتى يلفظ نفسه الأخير... .

وبعد ثمان ساعات من بدء المعركة كانت الشمس تهمّ

بالمغيب ، وتهيء للأشقياء سبيل الهرب . . ! ففر تحت
جنح الظلام ثلاثة آلاف مقاتل ، وهلك سبعون ألفا بينهم
ثمانون عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ ، وهرب « فارو »
بسبعين فارسا ، وأسر معسكر الرومان وسجن الذين كانوا
يتولون الدفاع عنه .

أما هانيبال فقد خسر في هذا الجحيم كله ستة آلاف
مقاتل هلكوا في بداية المعركة . . !

فاذا أصبح الصباح انطلق الجند إلى ساحة الحرب ،
ليشهدوا آيات النصر الزاهر وبوارق الأمل الباسم ، فاذا
آلاف الجثث ملقاة تدمى جروحها ، ويتأوه من صحابها من
لم تفارقهم الحياة بعد — وما كانوا على التأوه والأنين
بقادرين . . !

وينساب الجنود وسط هذه المأساة الرهيبة ليطعنوا
الجرحى بحراهم ساخرين ضاحكين . . ! ويكشف بعض
هؤلاء صدورهم طالبين الخلاص من شقاء آلامهم
وعذاب ما بهم . . .

نتائج كاني

— ١ — على قرطاجنه

احترام الهزيمة عند الجماعات — سحر • كاني — انضمام كايوا —
وسط ايطاليا وجنوبها — حكم التاريخ — حماس «مهربال»
وسياسة «هانيبال» — «ماجو» يخطب في مجلس
الشيوخ — زعيم حزب السلام يبسط اعتراضاته
— نجدة هانيبال —

تقول سيرة النصر والأخفاق في تاريخ الكفاح بين
الأمم: إن الجماعات البشرية لا تعرف السبيل إلى احترام
الهزيمة، ولا تدرك القداسة التي ينطوى عليها احتقار
الغلبة في كثير من الأحيان، لأنها بطبيعتها تخاف القوة
وتتملق أصحابها، وقد تدفع كرامتها اتقاء لشرهم وحرصا
على كيانها من عدوانهم...!

على أن انتصار « كاني » لم يكن منقصة لصاحبه ولا
معرفة لتاريخه — في عرف تنازع البقاء إن لم يكن في عرف
ملائكة السلام — وقد اجتمعت فيه آيات القسوة ومظاهر
الروعة فانتشر نبؤه في مشارق الأرض ومغاربها ، وساق
خصوم الغالب إلى طلب مرضاته ، والسعي للسير في ركابه .. !
ففى كابيو : Capua بدأ الشعب يجار بالهتاف لقرطاجنه ،
وطلب الانضواء تحت علمها ، وأبت جماعة الأشراف ترداد
الهتاف ، وقاد حركة المعارضة شريف صاهر بيتا من بيوتات
روما المعروفة ، فثار الشعب في وجه مجلس الشيوخ ،
واغتال طائفة من الرومان الذين يقيمون في المدينة ، ثم
أرسل وفدا يدعو هانيبال إلى زيارتها ..

وكانت « كايوا » موفورة الحظ من القوة والشهرة
والعظمة ، لا يعلوها بين سائر المدن الإيطالية غير روما
وحدها ، وكان في مقدورها أن ترسل إلى الميدان ثلاثين
ألف راجل وأربعة آلاف فارس مزودين بالعدد
والذخائر .

فلما اتصل بهانيبال وفدها ، وأبلغه دعوتها خفّ إلى
إجابة المطلب وقد استخفه الرضا وشاعت الغبطة في كل

جارحة في جسمه، واعتبر هذا نصرا يفوق انتصاره
في « كاني » ..

ولما بلغ هانيبال المدينة حضر اجتماعا عقده مجلس
الشيوخ بها، فتعهد للأعضاء أن تأخذ « كايوا » مكان
روما في سالف مجدها وغارب عزها . فنال من نفوسهم
بالوعد أكثر مما كان يُحتمل أن يناله بالسيف .. فلما
اطمأن إلى ميلهم له ومرضاتهم عنه، طلب إليهم أن يسلموه
رجلا من أهل المدينة تولى مقاتلته منتصرا لروما وأبلى في
حروبه بلاء حسنا، فألقوا القبض عليه وسلموه إليه،
فأرسله هانيبال إلى قرطاجنه .. !

وسط إيطاليا وجنوبها : وانساق إلى هذا المصير معظم
القبائل في وسط إيطاليا والمدن الآهلة بالسكان العامرة
بالقوة في جنوبها. وسارعت إلى عصيان روما والانتصار
لهانيبال .. ! وما كان لهذا الانسياق من سر إلا روعة
النصر، وخديعة الغلبة، وإيحاء الرهبة ..

*
* *

وبينما التاريخ يتأهب ليعلم للناس حكمه ، فينشر طرسه
ويتناول قلبه ويهم بأن يقول للأجيال المقبلة :
تهيات لقرطاجنه سيادة الغرب وإمامة الدنيا بعد
« كاني » وشاغت روما قبل أوانها ، فايض شعرها ،
واصفر لونها ، وتقوس ظهرها ، ودب الوهن في عظامها ،
وتمشى السقم في أوصالها ، وأصاب ساقها الانحلال ،
وعينها الضعف ، وجسمها الهزال ، وحشرت الروح
في صدرها فأعدّ الزمن رمسها ، وراح يكتب للناس نعيها ..
بينما التاريخ يتأهب لأعلان هذا النعي فيفرغ من روما
الهرمة ، لينصرف إلى قرطاجنه الفتاة ، إذ بصوت القضاء
يهمس في أذنه :

بل سنبها روما .. هكذا أراد الرومان ، وإرادة الشعوب
من إرادة الله «

فيرفع التاريخ قلبه ، ويطوى طرسه ، وقد أخذه
الذهول لأن تجربته بالاضمحلال والبعث كانت إلى هذا
العهد ، أضيق من أن تحتمل هذا النبأ الجديد الذي يطرق
سمعه ..

وفي الحق أن الحادثات التي انتهت إليها هذا الكفاح
الغنيف لتبعث على الحيرة في أمر روما المغلوبة .. فإن
حلفاءها قد تألبوا عليها ، واثتلفوا مع العدو وأجمعوا
الرأى على دحرها ، وأحاطوا بالأخطار حياتها ، وهى في
أمس الأوقات حاجة للعون ، وأدعاها لشد الأزر .
أما هانيبال فقد التف حوله قاداته وضباطه والطرب
يستخفهم ، والتفاؤل يحملهم على جناحه ويخلق بهم في فضاء
المستقبل السعيد . فيقول له « مهربال » Mahrabal قائد
الخيالة في جيشه :

بعد أربعة أيام على التحقيق تتناول عشاءك في
« الكايتول » فدعنى أنطلق بخيالى إلى روما ، لأفجأها
بقدومى وأفسد عليها التفكير في التأهب لاستقبالى .
ولكن هانيبال كان يؤثر التأنى والاتئاد حتى يمتد أجل
العذاب الذى يتجرعه العدو ، ويمتع النفس بمראה وهو
يحتضر ، لأن كراهة الإنسان لأعدائه لا تعيش في قلبه
إذا انتقم لنفسه منهم ، وهو يريد الاحتفاظ بالبغضاء
ما عاش .. ! فينفجر مهربال في سورة كلها غضب
ويقول له :

« انه الله لا يهرب كافة نعمه لا نساها واضمه ، فأنت تحسن
معرفة الطريق الى النصر ، ولكنك لا تعرف السبيل للاستفادة
من نصرك .. »

وسيجيء اليوم الذى يندم فيه هانيبال على تفويت
هذه الفرصة دون أن يغتتمها وينتفع بها ..
ولكن روما أخذت تهيب نفسها لقتال عدوها، والدفاع
عن حياضها ، فأرسل هانيبال أخاه « ماجو » Mago إلى
قرطاجنه يطلب العون ليتيسر له أن يضربها الضربة التى
تستل حياتها على عجل ..

فلما مثل « ماجو » بين يدي الأعضاء فى مجلس الشيوخ ،
انطلق يصف لهم روعة النصر الذى أصابه هانيبال ، وجلال
الاندحار الذى لاقته روما فى مجزرة « كانى » وما سبقها
من معارك ، ويحدثهم عن الذين لا قوا حتفهم من أعدائهم
وقد بلغوا المائتى ألف قتيل ، والذين زُج بهم إلى غياهب
السجون وقد بلغوا الخمسة آلاف مقاتل ، حتى إذا فعل
خطابه فى نفوسهم فعلة صب على الأرض ما جمعه الجنود
من خواتم كان يتزين بها أفراد الطبقة العليا فى خيالة العدو ،
فيأخذهم العجب وتتولاهم الغبطة .

ولكن «ماجو» يختم خطابه الممتع بطلب النجدة التي
يستلزمها هذا الموقف الأخير لانهاء الكفاح بين قرطاجنه
وأعدائها. لأن هانيبال قد أصاب النصر الحاسم وحفر
للعدو قبره بثمان... زهيد... دفعه من رءوس جنده
وجهود الأحياء منها. وروما بلد حربى محكم التحصين،
على أهبة للدفاع عن نفسه فى كل حين، وهو لهذا يناشد
الوطن المال والرجال والذخائر..

فيصيب هذا المطلب قبولا من نفوس الأعضاء الذين
أسكرتهم أبناء النصر وكانوا من دعاة الحرب، ويلتفت
أحدهم إلى «هانو» Hanno زعيم الحزب المطالب بالسلام،
الخانق على دعاة الحرب ويقول له:

ألا يزال «هانو» نادما على إثارة الحرب ضد روما..؟
فيسارع هانو إلى الجواب قائلا:

بلى. وما أظن نادما حتى أرى الحرب وقد وضعت أوزارها.
وانتشر السلام فى ربوع البلاد. انه قائمكم ليطلب من
المرد ما لا يطلبه الا القائم المهزيم. فهو يقول لكم:
أهلكت جيوشه العدو فأمدوني بجنود... أسمرت
معسكره عاميه بالذخائر والأسلح والفتائم فأسفوني

بالخطة والمال . . . ! فهاذا كله يطلب لهانيبال غير هذا لو
انصرت مبيوش ، وسلبت زخاثره ومطت عليه أقى الرزائم
وأفطرها . . . ؟

إني لا أرى ما يبرر الآمال التي تعلقونها عليه . وإلا
فليجبنى ماجو : هل ائتلفت معنا مدينة واحدة من مدن
اللاتين . . ؟ وهل انضم إلى صفوف جيشنا رجل واحد
من قبائل روما الخمسة والثلاثين . . ؟

فلم يستطع أن يجيب « ماجو » بغير النفي .
فعاد هانو قائلا : هل وصلتكم أنباء من روما عن
رغبتها في طلب الصلح . . ؟
فأجاب ماجو سلبا .

فقال هانو : انا اذنه لبعيدونه عن نهاية الحرب بعدنا
عنها يوم عبر لهانيبال الى ايطاليا ، وأما لا أستطيع التصويت
في جانب الحرب ولا الموافقة على مدد يرسل ليطيل من أجلها ،
ويكثر منه عدد ضحاياها ، ويكبدنا خسائر جسيمة ، ويتبع
لعبادها كفاما لا خير فيه ولا رجاء منه .

ولكن أنباء النصر كانت قد أسكرت بعض الأعضاء
وخدرت أعصابهم فلم يملك عليهم شعورهم هذا البيان

الذى أذاعه فيهم زعيم حزب السلام . فأكرهوا المجلس
على أن يرسل إلى هانيبال مددا ضئيلا يأتلف من أربعة
آلاف جندى إفريقي وأربعين فيلا وزودوه بمال قليل .
وكان على « ماجو » أن ينطلق إلى أسبانيا ليؤلف
جيشاً من عشرين ألف جندى ، تقوية لنفوذ قرطاجنه
بها وبايطاليا على السواء . .

— ب — على روما

رعاية الخلق — تكوين الجيش من عصابات اللصوص — جزع
النساء والأطفال — المجلس يقرر منعهم من مبارحة البيوت
— انفضاضه لهدئة الحال — الحراس على أبواب
المدينة — موت « هيرو » ونتيجته —

أما في روما فقد بدا الخلق الرصين الذى هياً لها
الظفر بأوسع امبراطورية مرت بالتاريخ القديم ، والتزم
الشعب الثبات واحتفى بالعزم واستظهر بالرجاء فى
المستقبل ، واستعان بالتفاؤل فى عواقب الكفاح ، وأعلن
استعداده لنصرة قاداته ولو كلفته الحياة وما ملك . وبلغ
من اتزان عقله واستقرار رأيه وثقته بنفسه ، أن تقدم
مجلس الشيوخ لاستقبال « فارو » حين عاد إلى الوطن

بعد أن جلب عليه هذا الوبال كله ، فأحسن استقباله
ورفع له الشكر على ما بذل من جهود و قدم من خدمات ...!
و شرعت روما في إعداد جيش يحمي ذمارها ويحرس
كيانها ، و سلكت لتكوينه كل سبيل خطر لها ، فجنّدت
العبيد و استهوت عصابات اللصوص و قطاع الطرق و أهل
الشر ، و استمالتهم للانضمام إلى الجيش ، و وعدتهم جميعاً
بالعفو عما سلف من جرائمهم و غبر من شرورهم ، و ائتمنت
لها بهذه الطريقة ثمانية آلاف جندي لا يخشون غمرة
القتال .

و أرسل هانيبال يعرض على روما افتداء الأسرى
من جندها ، على أن يكون الفارس بسبعة عشر جنياً
و الجندي من المشاة بعشرة جنّيات ، فأدركت روما بأن
هانيبال لا يقدم على هذا العرض إلا و هو موقن بأن الغنم
له و الغرم لها . فأبت الاستجابة لمطلبه ، و هيأت نفسها
لمقاومته و وولّت مارسيلوس Marcellus قيادة جيشها .
و نفخت في الصور تطلب العون من أهلها .

على أن النساء و الأطفال قد أصابهم الهلع و أدركهم
الجزع حين ترامت إلى سمعهم أنباء « كاني » فقد شاع

فيهم الاضطراب وانطلقوا في الشوارع يولولون ويكون
ويذيعون إشاعات أكثرها من وحي الوهم وإملاء الجزع
حتى خاف مجلس الشيوخ أن يفشو ما بهم من سوء
ويمتد إلى الرجال الذين تعتمد عليهم روما في استرداد
مجدها ، وتمكين سلطانها . وقرر المجلس الانفضاض
ليتجول أعضاؤه في الشوارع وينبشوا في الدور وينتشروا
في كل أرجاء المدينة ليهذئوا من أصابه الروع ، ويخففوا
من هول الذعر الذي بدأ يساور روما بأسرها، ولما شعر
المجلس بأن النساء يبعثن في الوطن خطرا أشد من خطر
« كاني » أصدر الأوامر باستقرار النساء والأطفال في
بيوتهم حتى لا يزداد القلق اشتعالا والجزع انتشارا .. !
ووقف على أبواب المدينة حراس يمنعون هرب الذين
أدركهم الروع ولازمهم الوجل . وبهذا اجتمع الرومان
على اختلاف نزعاتهم وتباين مذاهبهم في السياسة عند
خطة واحدة ألفت بينهم : هي حراسة الوطن والاستبسال
في الدفاع عن كيانه ..

وفي هذا الظرف العصيب دات « هيرو » حاكم
« سيراكوز » الذي كان ينتصر لروما وإن لم يحمل

العداء لقرطاجنه ، وكان رجلا طاعنا في السن هيأت له خبرته بالحياة وتجاربه في غمرتها حكمة وسداد رأى وُبعد نظر ، وخلف حفيده هيرونيμος Hieronymus وكان يجمع إلى صغر السن وقلة التجارب غباوة لا تلتئم مع دقة موقعه . فانتصر للجانب الذي خدعته قوته ، وكانت أنباء « كاني » ما فتئت تتراعى ويتسامع بها الناس مشفوعة باشاعات مبنها الوهم ومصدرها الخيال ، فانضم إلى هانيبال وسار في موكبه يملؤه الأمل في سيادة صقلية بأسرها !.. !

وتقدم « فيليب » ملك مقدونية الذي انتصر لروما فيما سلف من أيامها ، وأعلن استعداداه للائتلاف مع هانيبال ، وإن لم يشدأزره في أمسّ الأوقات حاجة للعون وكان هانيبال قد أمضى الشتاء بعد « كاني » في « كايوا » وعاش في دعة وهدوء فزاييل جيشه النشاط وأدركه الركود ، وأفسده العيش بعيدا عن ساحة القتال ، فلما اتقدت نيران الحرب كاد أن يعدل النصر الذي أصابه الأخفاق الذي لحقه !.. ! وكان هذا التعادل بداية عهد جديد حافل بالعبر .

الى الهاوية!...

استيلاء هانيبال على تارتوم - حصار كايوا - هانيبال يقرع أبواب
روما - عقاب كايوا : امتهان قداسة الطبيعة البرية - افلات صقلية
من يد هانيبال - الكفاح في أسبانيا : سيفاكس وقاتل قرطاجنه
- مصرع « سيبيو » وأخيه في إيطاليا - نير و سيبيو البطل
- سيبيو يحاول اشعال النار في افريقيا — تمرد الجيش
الروماني وعودته الى السكينة

لبث هانيبال بعد « كاني » نحو خمسة عشر عاما يطوف
أرض إيطاليا ويضرب في مناكبها ، تصلاه وأعداءه نار
القتال فيصيب التوفيق حيناً وتكويه الهزائم أحياناً .
فرت « سردينيا » من يده على كُره منه ، وأدركت
أحد قادته في شمال إيطاليا هزيمة فادحة أدت إلى هلاك
المشاة في جيشه ، والتماس من بقى منهم سبيل الهرب ..
ولازم هانيبال الأخفاق فلم يقوَ على حصار « تارتوم »
والاستيلاء عليها حتى أوقعها في يده المصادقة وحدها .

ذلك أنها أرسلت إلى روما رهينة من أنسائها إعلانا
لولائها . فالتمس بعضهم سبيله إلى الفرار ، وثارَت روما
ووقَّعت عليهم عقابها ، فأمرت بأعدامهم رميا بالسهم .
واحتاج مواطنوهم لهذا النباء واستيقظت الفتنة وتولاها نفر
من الأشراف يُظن أن بينهم وبين من أعد مواصلة رحم
وقربي . ثم اتصلوا « بهانيبال » فخف إليهم على رأس قوة قد
انتقاها من جيشه ، وعسكر على بعد عشرة أميال من المدينة .
واتصلت بين حاكم المدينة وبعض الثوار أسباب
المودة فنام عن رقابتهم . وعاد بعضهم من الصيد خارج
المدينة في غسق الدجى ومعه خنزير جذاب الطلعة فانشغل
به حارس البوابة ، وافتتن بمرآه ، حتى غافله فئة من جنود
هانيبال وانقضت عليه واغتالته ، فانساب جيش هانيبال
إلى المدينة وانتشر في أرضها . وسارع الرومان إلى
الاستيلاء على قلعتها . وأراد الغزاة أن يترضوا النافر من
أهل المدينة ويستميلوه إليهم ، فأعلنوا أنهم لن يمسوا
بالسوء واحدا من أهلها . فعلقَت على الدور لوحات تشير
إلى جنسية ملاكها ، اتقاءً لئلا تنفاديا لتخريبها . أما مساكن
الرومان فقد نالها الشر وأصابها الدمار . .

حصار كايوا :

فانطلق الرومان إلى كايوا ، وعسكروا على كشب من سهولها الخصبة ، ومنعوا أهلها من فلاحها وزرعها حتى أعوزها القوت وسعى إليها القحط . وأخفق هانيبال في نجدها فسار إلى روما ليطعنها الطعنة البكر التي تكفل لحليفته الخلاص من ضيقها . فبلغها وأقام معسكره على ثمانية أميال منها . . ! وكانت عزلاء لا تملك رد أذاه ، ولا تقوى على اتقاء شره . فتعقبه أحد قادتها في « كايوا » بخمسة عشر ألف مقاتل حتى أدركه وسبقه إلى المدينة ليتولى الذود عنها . . فلما اتصل هذا النبأ بسمع الرومان تولاهم الذعر وانساب في كيانهم الجزع . فأما النساء فقد انطلقن إلى المعابد في هياج وولولة ، وألقين بأنفسهن وشعر رءوسهن محلول أمام صور الآلهة وتمثيلها ضارعات باقيات . .

وفي اليوم الثاني مضى « هانيبال » إلى روما ، واقترب منها حتى ثارت عاصفة هوجاء ، وسحت السحب مطرها

من غير شح فعاد إلى معسكره كأنما استجابت الآلهة لضرعة النساء ، واتصرت لروما إشفاقا عليهن . . . !

وعجب هانيبال لعجزه عن فتح هذه المدينة التي كان بالأمس يقرع أبوابها ، راغبا عنها غير مبال إلى فتحها ، أيام أن كانت القوة تسعى بين يديه ، ولو شاء ذلك يومئذ لألزمها طاعته من غير عناء . . . واليوم لا تنقصه الرغبة وإنما تعوزه القوة فينتظر الحظ حتى يواتيه . . . !

وأخفقت شتى المساعي التي قام بها لا نقاذ « كايوا » فعاد إلى جنوبي إيطاليا ، مهيض الجناح مكسور الخاطر . واضطرت « كايوا » إلى التسليم للرومان ، فصبوا عليها عذابهم عن سعة ، وانتقموا منها شر انتقام . ونال سكانها — خاصة وعامة — حظهم في الجلد والسجن والتعذيب . وامتهنت قداسة الطبيعة البشرية فصدرت الأوامر بإعدام أولى الأمر فيها ، وقطعت رقابهم على قارعات الطرق ، ثم بيع بقية أهلها عبيداً . . . !!

وكانت هذه الهزيمة طعنة دامية لهانيبال ، جرحت صدره وأنقضت ظهره ، وأثقلت جناح شهرته ، وقوضت آمال حلفائه ، وضاعفت من مطامع أعدائه .

إفلات صقلية من يده

وتضامنت الأقدار على إيذاء هذا الأسد وهورابض
يتلقى صدماتها واحدة بعد أخرى، ويحتمل طعناتها رابض
الجالش قوى الجنان .

ففي « سيرا كوز » انقسم الشعب بعد اغتيال مليكه
— حفيد هيرو — قسمين اختلفت بينهما وجهات النظر .
فاتنصر الشعب لقرطاجنه ، ومال الأشراف للائتلاف
مع روما . واشتد النزاع بين الفريقين حتى فاز الشعب
فمضى الرومان إلى المدينة وضربوا عليها الحصار ، وجدوا
في الاستيلاء عليها . ولكن الكفاح قد طال أمده
واشتدت ناره بفضل المعونة التي قدمها للدفاع المهندس
المعروف « أرشميدس » بيد أن الوباء قد انتشر في جيش
هانيبال ، وفشى في أفرادهِ ، ولزمهم حتى قضى عليهم
قضاء رهيباً . . . ! ولم يتيسر للأسطول بعد هذا أن يستنفذ
الوسع لخلاص « سيرا كوز » خلفها ومضى إلى
« تارتوم » . . . !

وعزَّ على هانيبال أن يتقبل الهزيمة ويحتمل الطعنة هادئاً، فأرسل جيشاً يتولاه رجل يتصل دمه بالقرطاجنيين وإن لم يكن من خُلفهم . فتحرّكت الفتنة في الجيش ، واستيقظت الثورة وساءت الحال وكانت الغلبة للرومان . فدخلوا مدينة « أجريجنثوم » وأطلقوا فيها يدهم بالقتل والتعذيب والتشريد ، وأعدموا الكثير من خاصة أهلها ، وباعوا جموعاً منهم رقيقاً . . . وتلك نهاية الضعفاء . وهذا حظهم عند الأقوياء . . .

فأما سائر المدن التي انتصرت لقرطاجنه في صقلية وبلغت الستة وستين عدداً ، فقد استولى الرومان على ست منها بقوة السلاح ، وبسطوا نفوذهم على عشرين منها بطريق الخداع ، وسارعت بقيتها إلى التسليم بعد الاتفاق . .

وأفلتت صقلية بأسرها من براثن الأسد . .

وفي أسبانيا

كان هانيبال حين انطلق إلى إيطاليا قد خلف في أسبانيا جيشاً يتولى الضرب في آفاقها والسير في مناكبها . ولكن

سيبيو (الصغير) Scipio قد شتته وأفناه ، واستولى على
الأسلاب التي لم يتيسر لهانيبال أن يحملها معه حين مضى
إلى الألب ليعبرها ، ثم اتحد سيبيو الصغير بأخيه وانطلقا
بالجيش إلى سغنتم حيث حفظ هانيبال في قلعتها رهائن
أسبانيا إلى حكومته ، فاستولوا عليها بمكيدة دبروها مع
ضابط كان يتولى حراستها ، وأرسلوا الرهائن إلى أسبانيا ،
فداع بين أهلها أمرهم ، وطاب لسكانها الحديث عن ما أثرهم
ولازم النصر الرومان حتى أمست أسبانيا — كلها على
وجه التقريب — في قبضة يدهم .

وأمعنت الأقدار في إيذاء « هانيبال » وتضييق منافذ
الأمل في وجهه . فسأقت « سيفاكس » Syphax ملك
« نوميديا » Numidia في شمال إفريقيا لأعلان الحرب
على قرطاجنه ، وأرسلت إليه روما رسلا تضاعف من
أمله في النصر ورجائه في النجدة ، وتوسع له من رحاب
المستقبل إن واصل عداؤه لقرطاجنه . وسارع هسدروبال إلى
وطنه ليدفع عنه الخطر الداهم . فائتلف مع جار « سيفاكس »
وشر منافسيه ، وكان له ابن في السابعة عشرة من عمره
واسع الخبرة بالحرب ، والدراية بما تتطلبه من خبرة

ومهارة وذكاء — ذلك هو ماسينيسيا Massinisia فتولى
قيادة الجيش كله وقهر العدو وأقنى جنده وأنهى القتال معه
بمعركة واحدة . . !

ثم سار هذا الشبل في صحبة هسدوبال وماجو (أخى
هانيبال الأصغر) وهسدوبال (بن جسكو) إلى إيطاليا .
ونزلوا بساحتها ونشروا الرعب في قلب العدو الرابض
على أرضها . ثم اشتبكوا معه وأفنوا جيشه ، وأهلكوا
« سيديو الكبير » ورشوا حلفاءه فحلفوا أخاه الصغير تهدده
طعنات أعدائه ، وتدمى قلبه ضرباتهم حتى هلك بعد تسعة
وعشرين يوما من مصرع أخيه . وسارعت روما
إلى إرسال « نيرو » Claudius Nero ليخلفه في القيادة . ثم
بعثت في أثره ابن سيديو (P. S.) الذى ألغنا إليه من قبل
حين أشرنا إلى شجاعته في إنقاذ أبيه من براثن الهلاك ، وكان
انتخابه مشار الضجة في روما ، لأنه كان صغيرا في الرابعة
والعشرين من عمره ، ولكن الشعب قد ألح في اختياره ،
وعلا هتافه له وإصراره عليه .

وكان بطلنا الجديد يمتاز بشخصية فتانة تملأ كل من
عرفه إعجابا به ومرضاة عنه . فلما أعلن للناس أنه وطن

العزم على الظفر بأسبانيا، والاستيلاء على قرطاجنه، استقبال
الشعب اعترامه بالأمل العريض والتفاؤل الخصب. ولو
صرح بهذا غيره لكان نصيبه من سخرية الجمهور واستخفافه
عظيما... وأجمع الشعب على انتخابه. ثم ألقى طعنته
الأولى في قرطاجنه الجديدة — حاضرة الممتلكات
الأسبانية — فشج رأسها وأدمى قلبها، ولم يلبث أن مدَّ
نفوذه على قلعتها، وشتت عدوه الجاثم على أرضها. وتأهب
الحكم القرطاجنى في أسبانيا لوداع أهلها ومفارقة أرضها..
وبهذا برر البطل إلحاح الشعب فى الاجتماع على انتخابات
وإن لم يبلغ السن القانونية بعد..

وفرت أسبانيا بدروها. فلم يبق لها نيبال بها إلا «قادش»
Gades، وعاداه الكثير من أهلها وزعمائها، لأن «سيديو»
كان قد تسلط على عواطفهم، واستلَّ منهم إعجابهم به
ومرضاتهم عنه...

بقى الشطر الثانى من وعد البطل. فطار إلى إفريقيا
وحطَّ رحاله فى بلاط سيفاكس، واستماله اليه وبغض له
التحالف مع قرطاجنه، وقضى معه أياما تبادلا فيها أعذب

الأحاديث وأشهى الأمانى، وأصدق مظاهر الولاء .
بيد أن سيفاً كس كان قد بنى بابنة هسدروبال « سيفونيزبا »
Soqhonisba وولع بها واستطاب حبها ، فأقام على ولائه
لقرطاجنه وإن لم يكن فى وسعه بعد لقاء « سيبو » أن يعادى
الرومان .

وكان تغيب « سيبو » عن أسبانيا فرصة تدرُّ الخير
لمن أحسن اغتنامها من أعدائه ، فأخذ « ماجو » يستميل
إليه القبائل ويتراضاها ويتألف زعماءها حتى انتصر له
بعضها ورضى عن مسعاه . وفى هذه الفترة العصبية أدرك
« سيبو » مرض أقعده عن الجهاد . وكانت جنده تغلى
غضباً لتأخر أجورها ، فلما بلغها أن البطل قد خرَّ مريضاً
اشتعلت ثائرة حتى عوفى من مرضه واتصل بها وبسط
فيها سحره ، فسكنت له واستكانت لأمره ، وسارت تحت
عليه . فشدد « ماجو » رحاله حسير النفس واهن الرجاء ،
واستولى الرومان على قادش . فلحقت أسبانيا بصقلية . .
والأسد كامن فى إيطاليا محطم النفس مهدم الجسم
جريح الرجاء . . !

متورس METAURES

أو

سيادة أوربا على آسيا

ضباع « تارتوم » - تقدير « هانيبال » لبطولة عدوم - « هسدروبال »
يتخطى الألب إلى إيطاليا - عيون الرومان يعثرون على رسالته
إلى هانيبال - « نيرو » بين حرمة القانون وقداصة العقل -
اضطرام نيران الحرب - استشهاد « هسدروبال » -
رأسه يتدحرج أمام أخيه هانيبال - نبأ الاخفاق
يعلنه المندوب في المجلسين - فصل الخطاب بين
السامين والآريين

لبث هانيبال في إيطاليا يقاوم زوابع الأقدار ،
ويغالب عواصف الهزائم ، وإن كانت آماله قد شاخت
وأدرك الثقل جناحها ..

وساءت عواقب القتال حتى طارت من يده «تارنتوم»
لخيانة من ناطه بحراستها . وطالت الحرب والتهمت
آلاف الرجال ، وابتعلت طائل الأموال ، وفجعت آلاف
الأسر في أبنائها وأولى أمرها ، حتى ثار في وجه روما
إثنتا عشرة مدينة من مدن اللاتين (وكان عددها ثلاثين
مدينة) وأبت أن تواصل المدد . ووثب التردد إلى صفوف
الأتريوسك Etrurians (أهل أتوريا في شمال روما) .
وفشت فيهم عدواه ، وأصاب «مارسلوس» جرح
بليغ تردى بعده قتيلا . وكان هانيبال يكبر بسالته ويجل
بطولته ، ويقدر الدور الذي قام به في أخرج الظروف
وأسوأ الأوقات ، فتكفل بدفن جثته باحتفال مهيب .
وتغلب تقدير البطولة للبطولة على عوامل الحقد والضعينة
والخصومة ..

وكان هسدروبال قد بارح أسبانيا ، وتخطى
الألب في يسر هياؤه له شعور سكانها بحسن نيته نحوهم ،
ثم نزل بايطاليا في خفة لم يتوقعها الرومان ولم يحلم بها
أخوه هانيبال ، وكان جيشه كسائر الجنود التي ناضلت في
صف قرطاجنه يجمع بين مختلف العناصر والأجناس

وتأهبت روما التي هلك أفذاذ قادتها أو شاخوا وزايلتهم
فتوة الشباب للقاء هذا الخطر الزاحف عليهم وهم عنه
غافلون . واختارت « كلوديوس نيرو » وليفيوس
Livius قنصلين وولت هما قيادتهما وركزت فيهما آمالها وناطت
بالأول هانيبال ، وبالثاني هسدوربال . فأرسل هذا رسالة
إلى أخيه هانيبال يطلب فيها التوقف عن القتال حتى
يخف إليه ويتصل به ويساهم في الجهاد معه ، فظفر بها
عيون الرومان وحملوها إلى « نيرو » وكانت باللغة
القرطاجنية . فعرضها على الأسرى في السجون ليحلوا
رموزها ويكشفوا له عما بها . . ولما عرف أمرها أقلقته
هذا الخطر الداهم على غير انتظار ، وفكر في النجاة منه
والأيقاع بمدبريه . ولكن قانون روما لا يأذن للقادة في
تنفيذ الخطط التي تتراءى لهم ، إلا بعد عرضها على
المجلس وإقرارها منه . وانتظار الأذن من روما تضييع^ة
للفرصة السانحة ، وتمهيد لاستقبال الشر المستطير .
وطاعة القانون من غير تفكير في الغاية التي وضع من
أجلها ، ومدى السامه معها ، امتهان لقداسة العقل ، واتهاك

للطبيعة البشرية . ولئن كان مثل الجندي الأعلى إسرافاً
في إكبار القانون ، وإفراطاً في طاعته ولو كره منطقته ،
فإن بداهه العقل لتقضى في بعض المواقف بتخطي نصوصه ،
ومخالفة أوامره . فللقانون حرمة ، وللعقل البشرى
قداسته ..

تجاهل « نيرو » قانونه ، وانتقى من بين جيشه سبعة
آلاف مقاتل يرومون الحرب عن خبرة ومهارة . ومضى
بهم تحت جناح الظلام على جهل منهم بالغاية من مسيرهم
حتى بلغ معسكر زميله « ليفيوس » . فلاحظ جواسيس
هسدروبال أن عدد العدو قد تضخم ونما على غير انتظار ،
وأن حركة جديدة أخذت تسرى بين جموعه ، وأن البوق
الذي كان يدوى بين حين وحين قد أصبح بوقين . فانتبه
« هسدروبال » إلى وجود القنصلين ، وهم بالفرار مع جيشه
فضل السبيل إذ خانه الأدلاء واختفوا على غرة ، وخلفوه
وجيشه على شاطئ النهر يطوفون طوال الليل دون أن
يجدوا منفذا يتسللون منه حتى أسفر الصبح ودنت ساعتهم
وفاجأهم بالقتال عدوهم ، فسارعوا إلى الاستعداد للقاءه .
ثم اضطربت نار الحرب عند « متورس » وطال أجلها ،

واشتد عذابها، وخدمتهم الفيلة أول الأمر، ثم آلمتها الجروح التي انبثت في جسمها، فكأنما أصابتها بمس من الجنون فانطلقت تهرول على غير نظام، وتبعث الاضطراب وتنشر الأذى بين صفوف العدوين على السواء...!

ولما أحس هسدر وبال بأن الأمر قد طار من يده وأن الهزيمة قد اكتنفته، امتطى صهوة جواده وهجم كالليث الثائر في طيرة الغضب على صفوف الجيش الروماني وغاب في زحمة القتال حتى سقط في المعركة شهيداً... وفصلوا رأسه عن جسمه وحملها معه «نيرو» وعاد مسرعاً إلى جيشه، ثم أمر بأن يلقى هذا الرأس الكريم في معسكر هانيبال.. وتدحرج الرأس الكريم أمام المعسكر فحملة أحد الجنود بين يديه، فما رآه هانيبال حتى صاح في لوعة اليأس ومرارة الأسى:

« سادت روما الدنيا بأسرها » (الصورة ص ١٦٩)

وتقهقر في اليوم الثاني إلى جنوبي إيطاليا.
فلما بلغت هذه الأنباء روما أثارت فيها حماساً ممزوجاً



امتطى هسدروبال صهوة جواده،
 وهجم كالليث في طيرة الغضب على
 صفوف الاعداء فراح شهيدا . .
 وحمل « نيرو » رأسه إلى معسكر
 هانيبال ، فما رآه حتى صاح في لوعة
 اليأس : سادت روما الدنيا بأسرها.

بالشك في أمر هذا النصر حتى بلغها ثلاثة من ضباطها،
وتولى أحدهم الكشف عن الحقيقة في مجلسي الشيوخ
والنواب، فأنصت إليه الأعضاء وقد استولى عليهم سحر
الطرب، وتملك مشاعرهم وعقد ألسنتهم حتى إذا فرغ
الخطيب من كلمته، انفجر الأعضاء مهللين في طرب هو
أقرب إلى الجنون منه إلى الغبطة والرضا.

قالوا إن سيادة الدنيا قد سعت إلى روما بعدها،
وإن أوروبا قد ورثت عنها هذه السيادة، ولازم
الآسيويين الأخفاق فيما تلا ذلك من عصور. وكانت
معركة «متورس» فصل الخطاب بين الساميين
والآريين...!!

على أن الذي يعنينا الآن قوله إنا لاندري ما ذا
كان يخبئه القدر لو اتصل هسدروبال بأخيه، وواصل
القتال معه في هذا الوقت الذي خارت فيه روما،
وأصاب الانحلال ساقها، وشق عصا طاعتها الكثير
من كانوا يقاتلون في صفوفها.

وهكذا تأهبت للمغيب الشمس التي استقرت حيناً

في كبد السماء، وأخذ التاريخ يعجب لصروف القدر،
ويحار في هذه الشيوخوخة التي زailت روما، ودبت إلى
قرطاجنه، ويذ كر خمسة القدر بعد « كاني » :
« بل ستحياروما . هكذا أراد الرومان . وإرادة
الشعوب من إرادة الله !



« أنظر ص ١١٩ »

موقعة تريبيا Trebia

في قاع الهاربة

الحظ العارض بين الفرد والجماعة - هانيبال يسجل في محنته
سابق انتصاراته - رحيل ماجو الى ايطاليا - حملة الرومان
على افريقيا - وساطة « ماسينيسا » الخادعة. النار في معسكر
قرطاجنه - سفونيزبا تثير نخوة زوجها - رسل المجلس
يستدعون هانيبال لحماية قرطاجنه - عودة هانيبال الى وطنه
وحسرتة على فراق أعدائه . . !

يوم زاما المشئوم - نصوص المعاهدة الذليلة - اعتذار هانيبال
عن عدوانه على أحد أعضاء المجلس - احراق نصف ألف
بارجة حربية لقرطاجنه - استياء المجلس من هانيبال لأنه
يضحك والوطن في مأتم - الغرامة والذلة -

قد ينتفع الفرد طوال حياته بحظ طاريء يواتيه، وقد
يعيش على حساب مصادقة عرضت له فأحسن استغلالها،
وعرف سبيل الانتفاع بها. ولكن انتفاع الشعوب

والجماعات بما تأتى به المصادقة « وحدها » محدود الأجل ،
واستفادتها من الحظ العارض معروف الأمد . وما تصيبه
من خير ليست أهلا له ، ولا كفوًا لاستثماره ، يضيع على
عجل ، ولا ينتظر له دوم ..

ترى التاجر إذا وفق فى صفقة وثبت به إلى غير
مستواه ، يعيش فى الأ رجح على حاله الجديد طوال حياته ..
والموظف الذى تسعده الطوارىء يوما قد يدوم ما سعد به
ما امتدت به الحياة ، وإن لم يكن كفوًا له ولا جديرًا به ..
أما الأمم فشيء آخر .. لا يطول أجل ما تصيبه من خير
طارىء إلا إذا كانت قادرة على حراسته كفوًا لحمايته ..
ذلك لأن للجماعات قوانين تحمى أفرادها ، وتحرس
أملأهم وتصون حرمتهم . أما الكون فتعوزه مثل
هذه القوانين التى تقوى على حماية أفرادهم أمم وشعوب .
ولن تستطيع الدول أن تنتفع بالحظ الطارىء والمصادقة
العارضه ارتفاعا ممتد الأجل وإن لم تكن كفوًا له خليقة
به — شأنها شأن الأفراد — إلا حين تصبح القوانين
الدولية ذات « قداسة » عند الجماعات . ولهذا فإن الشعب
الذى يأمل فى الحياة على حساب الحظوظ والمصادفات ،

هو أتعس الشعوب وأسوأها مصيراً . .

وقد أقام هانيبال بعد يوم « متورس » المشؤم في جنوبي إيطاليا ينتظر الحظوظ ويتربص المصادفات ، وقد ضاقت رقعة أملاكه حتى صارت إقليم « بروتي » Brutti الجبلي في أقصى الجنوب . فلبث ينتظر روما لعلها تشتبك في حرب مع عدوتها : سورية أو مقدونية ، فيسفر القتال عن هزيمة تصيبها وتهيء له سبيل كفاحها من جديد ، أما أمله في غير هذه الفرصة المرتقبة فكان كسيحاً لا يقوى على النهوض . . . وذلك أظهر آيات الاحتضار في كفاح الجماعات ..

وفي هذه الفترة التي كان هانيبال فيها يستمد من اليأس آماله ، أقام على كشب من كروتونا Crotona — مركز قيادته — مذبحاً لزوجة جوبتر — حارسة المرأة من مهدها إلى لحدها — ووضع فوقه لوحة كتب عليها باللغتين اليونانية والقرطاجية ملخص حملاته في إيطاليا ، وعدد المعارك التي خاض غمارها وأصاب النصر في ميدانها ، والمدن التي قرع أبوابها ونشر عليها سلطانه ، والأعداء الذين صارعهم وسار على جثثهم ، وخضب الأرض بدمائهم

كان هانيبال في غفلة عن هذا كله يوم كان مجده
يعلو ويتألق، ونفوذه يمتد وينبسط .. وما حاجة القوى
لتذكير الناس بمظاهر قوته وآيات سلطانه .. !

وكان « ماجو » قد جنح إلى اليأس بعد إخفاق
جهوده في أسبانيا، فخطر له أن يشد رحاله إلى أخيه في
إيطاليا ليمده بالعون ويزوده بالأمل . فسار إليه بكل
قواته وكان طوال الطريق يضم إلى صفوفه جموعا من
أهل الغال . على أن التوفيق قد أخطاه في نجدة أخيه على
النحو المرجو ..

أما سيبيو فقد ضاق بعدوه فانطلق إلى إفريقيا ليشعل
النار في جوفها، وبدأ بحصار « يوتيكا » Utica ولكنه أخفق
في مسعاه، فارتد عنها إلى مكان متسع على شاطئ البحر،
ولبث به طوال فصل الشتاء، ثم همّ بقتال العدو فاذا أمامه
جيشان يتولى قيادة الأول هسدروبال Hasdrubal
— ابن جسكو — Gusco ويقوم بالثاني سيفاكس Syphax
وكان ما سينيسا Massinisa قد فقد مملكته وفر
بزوجه إلى سيبيو واصطحبه إلى إفريقيا، وراح يرشده في

أمانة وإخلاص، فتوسط بين روما وقرطاجنه، واقترح
إنهاء الحرب على أن ينسحب هانيبال من إيطاليا، وسيزيو
من إفريقيا. فأبى الأخير أن يستجيب لهذا المقترح وإن
أعلن استعداداه للاستماع لمقترحات أخرى يتقدم بها
الملك الوسيط. فسارت بين المعسكرين رسل كثير تنشد
السلام وتبغى التوفيق — فيما بدا للقرطاجنيين إذ كانت
رسل الرومان عيوناً وجواسيس تستطلع الأنباء وتهيء
الجو للإيقاع بقرطاجنه وحليفها معاً..

ثم انقسم الجيش قسمين تولى سيزيو الأول، واقتاد
ماسينيا الثاني. وتقدما ليلاً حتى إذا اقتربا من معسكر
سيفا كس مضى إليه « ماسينيسا » وأشعل النار فيه
(الصورة ص ١٧٧) حتى إذا اندلع لهبها وانتقدت جذوتها،
اضطرب من به وانطلقوا في فيض من الجزع والهللع
يلتمسون الخلاص. فن أصاب منهم التوفيق تلقته سيوف
عدوه وأدت واجبها نحوه..!

فأما القرطاجنيون فقد بارحوا معسكرهم، وسارع
بعضهم إلى نجدة زملائهم، ووقف الآخرون محمقين



سارت بين المعسكرين رسل تنشد - في
الظاهر - السلام وتبغى التوفيق ، وأخذت
تستطلع الأتباء وتبغى الجو للإيقاع بقرطاجنه،
حتى إذا سنحت الفرصة أشعلوا النار في
معسكر سيفاكس . . ! ثم أعقبوها باحراق
معسكر القرطاجنيين . . !

مبهوتين ظانين — كما ظن أهل المعسكر المحترق — أن
النار قد اشتعلت عفواً ولم يعتمد إليها فاعل سوء ولا
مدبر شر...!

وبينما الجيش القرطاجنى على هذه الحال ولا عدة معه
ولا سلاح فى يده إذ بالرومان وقد حطوا عليه وراحوا
يقطعون فى رقابه ويشردون فى جموعه، ويغيَّبون فيه
سيوفهم حتى نعق بوم اليأس فوق رأسه، وحطت عليه
غربان الدمار. ولم تنته هذه الفجيعة حتى كانت النار قد
التهمت المعسكرين وأعانت العدو على قهر الجيشين والتكيل
يهما شر تكيل. ففر هسدر وبال بفرقة من خياله، وتبعه
فى ذلك سيفاكس. وفكر فى تسليم نفسه إلى روما لعلها
تستحي من عقابه وتكرم مثواه. ولكن زوجته «سفونيزبا»
استشارت همته وأحيت عزيمته وجددت أمله فأقام جيشا
واتصل بهسدر وبال وكان قد جيَّش جيشا آخر من أربعة
آلاف مقاتل من المرتزقة وانطلقا إلى الميدان، فأبى طالع
النحس إلا أن يلازمهما ويتبع خطواتهما...

فاشتد أزر حزب السلام فى قرطاجنه، وهتف فى
المجلس داعيا لعقد الصلح مهما بهظ ثمنه...! فأذعن

المجلس لهذه الدعوة واستدعى هانيبال و « ماجو » Mago
فأما الثاني فقد كان يُنْ من هزائمه المتلاحقة أمام الرومان .
نُفِثَ إلى وطنه بما بقي من جيشه ، ولكن جروحه ثقلت
عليه في الطريق حتى امتصت أنفاسه واستلت حياته . وأما
هانيبال فقد تلقى الأمر في أسي مُمِض وحزن موجه . وألم
مرير ، وصرّ أسنانه وقمع دمه على كره منه ثم قال
لرسل المجلس الذين جاءوا في دعوته :

الآن يرسل المجلس في دعوتي بعد أن أصابت طعنة
العدو قلبه ، وأحدث الارتجاج في مخه ، وكم أبي أن يمدني
بمال أو رجال . لقد انهزم هانيبال — لا بقوة الرومان
الذين شنت جموعهم ، وحطم كيانهم مئات المرات ، بل
بالحق الذي يحمله له مجلس الشيوخ في وطنه ، ولن
يتبجح سيبيو لعار عودتي بقدر ما سيتبجح « هانو » الذي لم
يجد سييلا يسلكه ليهدم أسرتي إلا بهدم الوطن كله . . . !
وكان « هانو » زعيم الداعين للسلام وأشدّهم هجوماً
على هانيبال . وقد أُلْمِعْنَا إليه بهذا الصدد في رده على
« ماجو » في مجلس الشيوخ بعد موقعة « كاني » .

ولكن هانيبال لم يمنعه غضبه المتقد في صدره من
العودة إلى قرطاجنه تلبية لصوت الواجب ، وامتطى
أديم الماء في فيض من الأسى والحزن . فلم يكن المنفى
الذي يفارق صحبه ووطنه وأهله وعشيرته إلى غير رجعة
بأشد حزنًا وأقسى لوعة وأحرَّ ألمًا من هانيبال وهو يفارق
أرض أعدائه (الصورة ص ١٨١) . فقد عاود النظر إلى
الشواطىء التي فارقتها مهدم النفس منحل الأعصاب محطم
الجوارح من فرط الضيق وفيض الأسى ، وطاف
يوم « كاني » بذهنه ، فلعن نفسه لتوانيه يومذاك وتكاسله
عن قيادة جيشه إلى روما ، ودم « كاني » يلطخ أجسامهم ،
وذكري نصره تصب الحماس في نفوسهم ، وتشيع
الأمل في رؤوسهم ، وتنفت الأيمان في صدورهم .
خفَّ هانيبال إلى وطنه ليردَّ عنه الشر النازل والويل
الهاطل . وترامت إلى روما أنباء رحيله فاهتز كيانه في
فيض من الحمد والرضا ، ومادت بأهلها الأرض من فرط
الطرب .

ولبت هانيبال في إفريقيا يخاتل عدوه ويصارع جنده ،
ويلقى في قلبه الطعنات ، ويتلقى فيه الصدمات حتى أقبل

فلم يكن المثنى بعيداً عن وطنه
وأهله وصحبه وعشيرته ، بأشدّ ألماً
وأحرّ لوعة من هانيبال وهو يفارق
أرض أعدائه.!!



يوم «زاما» Zama المشؤوم ، وأقبل في صحبته الشقاء
الذي لازم هانيبال حتى يوم مماته ..

انفجر بركان المعركة وأخرج حممه وأطلق عذابه .
وكان في جيش هانيبال ثمانون فيلاً أمطرها العدو بطعناته
الدامية فثارت هياجاً واشتعلت ناراً ونال أصدقاؤها من
أذاها شراً مما نال أعداؤها .. !

وطالت المعركة واشتد عذابها وتأججت نارها حتى
دارت الدائرة على هانيبال ، وتمزق جيشه وتشتت جموعه
واندحرت آماله وانكشبت مطامعه (الصورة ص ١٨٣) . ففرَّ
بفرقة من جنده إلى دريبانوم Drepanum وهرب قليل من
بقي من جموعه الغفيرة ، وهلك عشرون ألفاً في ساحة
الوغى ، وأسر أكثر من هؤلاء واستقروا في غياهب
السجون ..

فأما الرومان فقد دفعوا ثمن هذا النصر خمسة عشر ألف
رأس ثم خرجوا من غمرة القتال وقد ازدحمت في رءوسهم
الآمال العريضة ، وامتلاّت نفوسهم اطمئناناً من خبايا
المستقبل .

في معركة زاما :

وكان في جيش هانيبال ثمانون
فيلا أثخنها العدو بطعناته الدامية
فثارت هياجا واشتعلت نارا وانطلقت
تنشر أذاها على العدوين معا . . .



وبهذا اليوم المشؤوم انتهت الحرب البونية الثانية .
وساد الرومان الدنيا بأسرها ، وخلا الجو من مزاحم
منافس يسد السيل على مطاعمهم .

ثم جمع هانيبال فلول جيشه وقد بلغت الستة آلاف
عدا ، ومضى بها إلى قرطاجنه في فيض من الحسرة والأسى .
وأرسلت الحكومة تطلب الصلح من روما فعاد الرسل
إلى قرطاجنه يحملون هذه النصوص :

(١) أن تستبقى قرطاجنه ممتلكاتها في إفريقيا ، وأن
تتمتع باستقلالها ، وألا تضطر إلى سد ما يتطلبه الحرس
الروماني .

(٢) أن تسلم كافة المسجونين بها والفارين إليها
(٣) أن تسلم ما تمتلكه من سفن حربية — باستثناء
عشرة تستبقيا لها — وكذلك كافة فيلتها . . !
(٤) ألا تثير الحرب خارج إفريقيا أو داخلها إلا
بأذن من روما .

وبهذا فقدت قرطاجنه استقلالها . وباتت خاضعة
لعدوها — رغم البند الأول في هذه المعاهدة .
(٥) أن يسترد الملك ماسينييسا كل ما يملكه هو وأسلافه .

(٦) أن تمد قرطاجنه الجيش الرومانى بالمؤن والأجور حتى يتم الاتفاق على أن تضع الحرب أوزارها
(٧) أن تدفع غرامة تبلغ العشرة آلاف وزنة من الذهب وخراجا سنوياً يبلغ المائتى وزنة من الذهب .
(٨) أن يتخير قائد الرومان مائة رهينة من أبناء القرطاجنيين تسلم إلى روما ضمانا لتنفيذ المعاهدة ، ووصفاء الجوبين البلدين . .

ولما أعلنت فى المجلس هذه النصوص بعثت الاستياء فى أعضائه ، وهمَّ أحدهم بالاحتجاج ولكن هانيبال رفعه من تلايبه وحطه فى مكانه كارها . . ! فضج الأعضاء لهذا العدوان الذميم . فقال لهم هانيبال :

« معذرة إن كان جهلى بتقاليدكم قد أدى بى إلى إمتئانها والاعتداء على حرمتها . فقد بارحت الوطن فى سن التاسعة ولم أعد إليه إلا بعد أن أشرفت على الخامسة والأربعين . وما دفعنى للاعتداء على العضو إلا الرغبة فى خير الوطن والخوف من أن ينال منه العدو أكثر مما نال . وإنه ليدھشنى أن يكون بيننا مواطن واحد يعرف موقفنا على وجهه الصحيح ، ثم يضيق إذا ترامت إلى سمعه أبناء

هذه المعاهدة الرحيمة . . إن الحزم ليقضى بأن تجمعوا
على الرضا بنصوصها من غير تفكير في أمرها ، أو تردد
في قبولها .

ويقولون إن هانيبال كان على حق في موقفه ، لأن
الغالب لا يعرف إلا الظلم ، ولا يدين بغير الأجحاف .
وإن أحس العجز في خصمه اشتط في اضطهاده ، وأمعن
في إيذائه . ولو كان في وسع قرطاجنه أن تقاوم أو
تصمد للدفاع عن نفسها ما استكان لهذا الصغار هانيبال .
ولا ارتضى هذه الذلة ودعى وطنه إلى احتمالها والسكوت
عنها .

فسلمت قرطاجنه كافة ما تملكه من فيلة وسفن
حرية بلغت الخمسمائة عدداً ، وجميع من آوتهم من الفارين
والهاريين ، وكل أسراها في الحروب وقد تجاوز عددهم
الأربعة آلاف عدداً .

وأمر سيبيو أن تشد السفن إلى الشاطئ توطئة
لأشعال النار فيها . . ! واحتشد الناس في هذا اليوم
المشهود ليرؤوا هذا المشهد البغيض ، وتأججت النار في
نصف ألف سفينة هيئت لتدك روما وتسوى بها سطح

الأرض . . . ونظر الشعب الذى كوته الفاجعة وأثقله
الهم فاذا المتفرجون من الرومان يهتزون من فرط
الغبطة والرضا . فأحرقت اللوعة صدره ، وأنقض الألم
ظهره ، وانبتت الضغينة فى شعاب نفسه .

ولما همّوا بدفع الغرامة أعوزهم المال وانتشر فى
المجلس ضجيج الأعضاء وشاع فيه استياؤهم . ولاحت من
أحد الأعضاء التفاتة إلى هانيبال ، فارتاع إذ رآه يضحك
والوطن فى مأتم . وقام لفوره وأعلن للأعضاء شكاته
فى فيض من الحنق والاستياء قائلا :

إن هانيبال آخر من يجوز له الضحك فى هذا الضنك
الذى يحيق بنا ، لأنه مصدر ما نقاسيه من ضيق ، ومبعث
ما نلاقيه من شر . .

فقال هانيبال :

لو تيسر لك أن تكشف على قلبى وتتطلع إليه بالسهولة
التي تتطلع بها إلى وجهى لتبينت أن ضحكى لا يصدر عن
قلب راض مرح ، ولعرفت أنه صدى حسرة مترعة ولوعة
مكبوتة . . ! إن ضحكى ليحمل من المعانى ما لا تحمله

دموعك . وقد كان خليقاً بك أن تبكى يوم أحرقوا
أسطولنا ، واغتصبوا أسلحتنا ، وسلبوا أدوات قتالنا —
لم تبك يومذاك كما تبكى اليوم كأن الوطن قد أشرف
على الهلاك وتهياً للممات ، لا لشيء إلا لأنك ستضطر
إلى إمداد العدو بجزء من ثروتك الخاصة .. لكم يخفى
أن تدرك في الغد أن هذا الشر الذي تضيق به في حاضرك ،
هو أهون الشرور التي سوف تنزل بك في مستقبلك »
وقد صدق هانيبال في دعواه ، فقد تحمل ابتسامة الشعر
من معاني الألم وآيات الحسرة ما لا تحمله الوجوه العابسة ،
وتنطق به الجباه المقطبة ، وقد تكون القهقهة التي تند
عن القلب العامر بالألم ، أبلغ في التعبير عن حرقه اللوعة
من دمة تجري على الخد صدى لأحاساس الناس أو خوفاً
من ملامتهم .. بل كيف يضحك هانيبال صادقا والصاعقة
إنما تنزل على رأسه ، والصدمة إنما تنحدر إلى قلبه وتتوغل
في شعاب نفسه حتى إذا ملأها بالأسى سرى فيض ما بها
إلى نفوس غيره من أبناء الوطن .. ! فمنذا الذي كافح هذا
العدو الظافر الباغي واحتمل في سبيل مغالبتة من مرارة
القتال فوق ما احتمل هانيبال الضاحك .. ؟ !

على أن الغرامة أهون ما ينزل بالمغلوب من شر،
وأدعى العقوبات إلى الرضا وأحراها بالاطمئنان . لأن
الشعوب تحيا بين الغنى والسغب ، والثراء والضنك .
وليس الفقر معرفة لها ولا منقصة لأهلها . . أما الشعوب
التي تتردى في المهانة والذلة مرة واحدة ، فإن التاريخ يحمل
ذكرى هوانها ، ويحدث عنها مختلف الأجيال التالية .
ذلك لأن التاريخ يسجل المفخرة ولا ينسى المعرة ،
والحسنة عنده لا تمحو السوءات . لأنه سجل
النقيضين معاً . . !

* * *

وبهذا أضحت الامبراطورية الأفريقية مدينة
كسيحة يثقلها المرض ، ويُقعدها العجز ، ويقهرها الضيق ،
ويتسلط عليها العدو . . . ضاعت من يدها إيطاليا ،
وفرت من براتها صقلية ، وتحولت أسبانيا إلى إقليمين
رومانيين — وإن لازمتها الثورات والفتن — وبات
الخضوع لروما عند حلفاء هانيبال الأول شرفاً
ونخاراً . . ! والأسد في عرينه مهدم النفس منحل

القوى ، ولكنه وفى لعهده بار بوعده ذاكر لقسمه
الذى قيّد به نفسه وهو صبي فى التاسعة من عمره
أمام أبيه يوم أقسم على بُغض الرومان ما مدت
الأقدار فى حياته ، فعلام انتهى أمره . . ؟ ذلك ما تراه
فى الكلمة التى نفردها له الآن :

هانيبال قائدًا وشريرًا

تعليل البطولة - نابليون في قفص من حديد - قرار الأطباء بشأن أنوثته -
« هانيبال » وآفاق بطولته للرجبة - إحصاء مناقبه - سوء ان
ومبرراتها - موقفه بعد زاما - اصلاحاته في وطنه - جزع
روما من « هانيبال » الشرير - طريد الظلم يثير على
روما أعداءها - انتحاره - البطولة والانتحار

لا تصلح طريقة البحث العلمى لتحليل البطولة والتماس
أسبابها ، والتعرف إلى سرها والكشف عن وحيها . لأنها
تطالب الباحث بإحصاء دقيق لمناقب البطل وصفاته
فى صورة مدركة للسمع واللمس والذق والشم والبصر .!
والبطولة إنما تستمد حياتها من شىء « وراء » ما تبلغه
الحواس . . بل « وراء » ما ينتهى إليه العقل . . فكثيراً
ما توفرت فى بعض الناس المناقب التى نراها فى الأبطال ،
ولكن البطولة امتنعت عليهم وعزت على متناولهم .

ذلك لأن شخصية البطل تستمد وحيها وتستقي حياتها من شيء وراء ما نعرف بالحواس والمنطق معاً . ، فاذا رددت مناقب نابليون إلى خلاله ، عرفت أنها — مجتمعة — لا تبرر الصولة الفذة التي كانت له ، والمقدرة العجيبة التي لازمته حياته ، ومكنته من أن يقاوم تحالفات دولية أجمعت أمرها على دحره ، ووطنت عزمها على قهره (١) . .
فما تعليل بطولته . . ؟

(١) ان كان هذا لم يبلغ مكان الاقتناع من نفسك ، ففسر هذا بالشكل الرياضي الذي يرضيك :

عاد نابليون من منفاه في « إلبا » واقتحم فرنسا التي ودعته بالأمس بمظاهر السخط والحق ، فائتلف له جيش هياً له دخول باريس — فأقسم القائد « نان » أشجع الشجعان كما يسميه التاريخ — للويس الثامن عشر أن يحيته بنابليون في قفص من حديد . . ومضى بفرقة من جيشه للقبض على نابليون برأ بوعده ووفاء بعهد . فلما التقى به وخضع لسحر نظراته وعدوبة صوته ألقى بنفسه بين أحضان نابليون ، والدمع يترجح في عينيه . . . ! بماذا تفسر هذا . . ؟ ان تعليله يعرفه علماء النفس الذين لا يرون مبرراً علياً لموقف الملك حين تشدد في الحكم بالأعدام على « ناي » . . !
ولا بأس من أن نسوق مثلاً ثانياً لنابليون يؤيد ما ندعيه .

شاد نابليون امبراطورية من أضخم الامبراطوريات التي مرت بالتاريخ في شتى عصوره . وكانت الأرض بأمنها وحكامها كرقعة الشطرنج في يده ، ولكن جسمه كان أقرب الى جسم الأثني منه الى جسم الرجل ، على نحو ما أثبت الأطباء الذين تولوا تشريح جثته بعد مماته . . !



هانیب _____ ال

في الحق أن التعليل الصحيح لا ينبغى التماسه في غير
هذه « القوة الخفية » التي نحس أثرها ونعرف وقعها ،
ولا نستطيع فهمها ولا ندرك أصلها ، ولا نقوى على
تحليلها .

وعلى هذا النحو نقول إن هانيبال موفور الحظ من
البطولة . وكان نصيبه من هذه القوة الخفية بيئنا مله رسأ .
فان شئت الدليل على هذا فاذا كر من حياة هذا الرجل
أنه فارق الوطن في التاسعة من عمره ، وغاب في زحمة
القتال ستة وثلاثين عاماً ، كلها حط رحاله ببقعة روع
أهلها ، وطير النوم من أجفانهم ، وبعث الهلع في جيرانهم ،
وأن هذه الجيوش الجرارة التي كان يزلزل بها الأرض ،
ويرجّ بهولها كيان الدنيا لم يجمعها من وطنه ، فقد ضنت
عليه أمتة بالعون وبخلت عليه بالمدد زمناً طويلاً .
وإنما كانت شتية متناثراً متنافر العادات والتقاليد والقوانين
واللغات والملابس والأسلحة والعقائد والآلهة . فألف
هانيبال بقدرته العجيبة بين هذه الخلائق الغفيرة ، وضمها
كلها إلى سمط واحد ، فنسيت لوائه ما اختلف
من أمرها وتنافر من وحدتها ، ومضى الجميع إلى لجة

القتال مستميتين في النضال متفانين في تحقيق المطمح
الذي يسعى إليه هانيبال .. أجل . عاش هذا الشئيت
المتناثر من الخلائق في وفرة من المودة والزمالة حتى
خلت حياتهم من شجار واحد يقع بينهم - حتى في أدعى
الآوقات إلى الشجار وأحضرها على الاضطراب . فقد
مات « هسدروبال » Hasdrubal ولم يبقَ لهانيبال غير
ركن ضئيل في إيطاليا ، وركدت آماله واظلم الجو من
حواله ، ونقض المخاتلون يدهم من نصرته ، ولكن جيشه
المتنافر في شتى الصور مازال باقياً على ولائه له وإعجابه به .
وما كان هذا طمعاً في مال أو جاه ، فقد ضنت عليه
قرطاجنه بالمال كما ضنت بالمقاتلين ، ومرت عليه أيام
حالة السواد مجدة الآمال ، فكان حرياً بجيشه المتنافر
عادة ولغة وديناً وقانوناً وملبساً وسلاحاً وسحنة وموطناً
أن يثور في وجه قائده المنهزم ، ويحوطه بشتى صنوف
الآهوال ، ويريح الدنيا من جلجلة اسمه .. ولكن هانيبال
كان قائداً تسعى البطولة بين يديه ... وفيم - تظهر معالم
البطولة الفذة إذالم تنطق بها مثل هذه الحادثات .. ؟
هذه هي آيات القوة الخفية التي لا نعلم من أمرها إلا اسمها

وآثارها . على أنك واجد في هانيبال ما يؤيد عظمته
من مناقب تستطيع أن تسردها سرداً رياضياً ،
وتحصيها إحصاءً علياً . فقد كان نموذج الجندي الصادق
الذي لا زيف فيه ولا غاب عليه ، تملأه الشجاعة
في غير تهور ، ويحتويه الفتور عند ملاقات الأخطار
ومواجهة الأهوال - تبدو في المآزق الحرجة والأزمات
الضيقة سرعة بداهته ، وخصوبة ذكائه ، ونفاذ بصيرته .
وكان إذا حطّ عليه التعب اضطلعت بحمله من كبه في غير
استياء ولا شكوى . وكان يألف احتمال البرد القارس
والحر اللافح حتى ليبدو وكأنه لا يحس أثرهما ولا يعاب
بهما . . فأما رغبته في الطعام والشراب فكانت لا تتجاوز
حاجته الطبيعية إليهما ، وضمن العيش بما تيسر له منهما .
وقد كان يهزأ بسلطان النوم ولا يخضع له إلا إذا أتاحت
له ظروف عمله لحظة يختلس فيها راحته ، حتى إذا دعاه
العمل لبى دعاءه ، ومضى إليه موفوراً لهمة والنشاط . وكان
إذا تهيأت له ظروف النوم ألقى بنفسه أنى كان وحيثما اتفق .
وكثيراً ما كان يمر به الجند وهو ملقى على الأرض ملتفاً
بردائه الحربي بين رجال الحرس - وهو الرجل الذي

تهيات له الأمامة وسعت إليه الزعامة ، وروّع روما
طيلة العهد الذي عاشه ، حتى أقضّ عليها مضجعها وطير النوم
من أجفانها وهو شريد طريد لا يعرف له مأوى يستقر
به ، أو ملاذاً يطمئن إليه كما ستعرف بعد ...!! وكان
مسرّفاً في إهمال ملبسه — شأن الذين شغلّتهم مهام الحياة
عن فنون الأناقة ومظاهرها — ولكنه كان مفرطاً في
عنايته بأسلحته واهتمامه بالخيّل التي يمتطي صهوتها في
في ساحة الوغى ، ذلك لأنه كان خيالا ماهراً مبدعا في
استعمال السلاح .

فإن عيب على أخلاقه : فظاظته وجشعه
وتخطيه لحدود الأمانة والنزاهة ، فتلك مثالب تلازم قادة
الحرب الذين عاشوا معيشتهم ، وتنفسوا الجو الذي كان
يتنفسه ... وقد كان رجل واجب أكثر منه رجل مجد .
ولولا هذا ما لبث بعيداً عن وطنه ستة وثلاثين عاماً ...! ولما
احتمل حزب المعارضة في مجلس الشيوخ وأفسح لهجومه
صدره ، وهو في قمة مجده وأوج قوته !

على أن هذا الإحصاء الرياضي لا يكفي وحده لا تقاء
الشر الذي كان ينطوى عليه الجيش الذي ألمعنا إلى

وجره تنافره ، ومدى التثامه تحت راية هانيبال ، وصبره
على القتال من غير أجر ولا شجار !..

وقد أسلفت لك تاريخ هانيبال في كفاحه حتى يوم زاما
المشؤوم . فاليك طرفاً من حياته بعد هذا اليوم الذميم :
عاد هانيبال بعد « زاما » إلى وطنه مهبط الجناح
كسيح الرجاء في عون أمته ، فانفضَّ من حوله الكثير
من أعوانه ، واشتد في الهجوم عليه أعداؤه ، ونال منه
طغام الناس وكان إلى الأمس القريب يروّع أعظم دول
الأرض وأشدّها بأساً .. لا .. بل ما زال هانيبال قتيّ
العظمة موفور الحظ منها ، لا يلين للخطوب التي تنزل
به ، ولا يخنع لقوى الأرض وإن اجتمعت لمقاومته .
وإنه ليعيش في وطنه في جو من الهدوء والسكينة ، وروما
سيدة الدنيا براً وبحراً تخاف على نفسها الدمار ، وتحسب
لهذا الرجل القابع في وطنه ألف حساب وحساب ،
فتطارده وتسعى للظفر به لتبيده فتستريح !.. ويفر
« هانيبال » من بلد إلى بلد شريداً طريداً وروما قلقه
المضجع مضطربة الخاطر مبيلة الفكر — ويصيدها
هذا القلق والرجل قابع في وطنه منصرف إلى إصلاحه ،

منشغل بتقويم ما اعوج من أمره . وفي المجلس حزب
قوى يناضله ويتولى الهجوم عليه ، ويغتزم الفرص
للاشتباك معه والنيل منه ، والخط من قدره والزراية
بماضيه ، !! ومن طبيعة العظمة أن تلازم أصحابها في شتى
مراحل حياتهم : في النور وفي الظلام .. ولا تتأثر بفراق
الأصدقاء أو اشتداد الأعداء ، لأن وفاءها فوق خطوط
الأقدار ..

بدأ هانزيال باصلاح أمته . فهاجم محكمة القضاة في
قرطاجنه ، لأنها اغتصبت من الشعب سلطانا لم يكن لها —
ولا ينبغي أن يكون لها . وآض الناس رهن إشارتها في
كافة ممتلكاتهم ، بل في أخلاقهم وشتى مظاهر حياتهم !
فسمى في إصلاح أمرها ، وأقام على سعيه حتى أصبح
منصب القاضي يملاً بالانتخاب ويستمر عاماً واحداً
لا يتجاوزه . ثم تناول حياة الشعب الاقتصادية فنظم
صادراته ووارداته ، وأقام العين الرقبة على الضرائب ،
والرأس المتزن في تصريف المال المتجمع حتى هان دفع
الغرامة ، وانتعشت الأمة وأينع الذابل من آمالها ،
وانبعث الميت من أمانها . فقام في المجلس حزب قوى

من خصومه يناضله ويقاوم خططه . وتنزّل أعضاؤه إلى
إثارة الحكومة الرومانية عليه، واتهامه عندها بأنه يعدّ العدة
لحرب يؤجج نارها متضامنا مع ملك سورية . ! وكان
الرومان لا يستبعدون هذا العمل الآثم من رجل عاداهم
وأنزل بهم شره هذا الزمن الطويل ، فألحوا في انتداب
وفد يطالب قرطاجنه بتسليمه إليهم . وعشاً حاول « سيبو »
أن يردّهم عن هذا المطلب العزيز عليهم ..

فلما تسامع هانيبال بهذا النبأ استقر عزمه على الهرب ،
ومكر بأعدائه حتى يغفلوا عن رقابته ! فسار بين الناس
ملتزما الاطمئنان كعادته ، ثم امتطى في المساء جواداً
وانطلق به إلى الشاطئ فاستقبلته سفينة أعدها لرحيله ،
وأبحر إلى جزيرة « كركينا » Kerkina وكنتم عن
الناس نبأ فراره ، وأعلن للمتصلين به أن الحكومة قد
انتدبته سفيراً في « صور » Tyre وتبين اكتظاظ الميناء
بالتجار فخطر له أن يعجل بالهرب حتى يطمئن على أمره ،
فدعا القباطنة إلى حفلة شائقة ، وطلب إليهم أن يمدوه
بأشرعة سفنهم حتى يتسنى له أن يقيم سرادقاً ضخماً لتحقيق
هذا الغرض .

وأقيمت الحفلة واختلف إليها المدعوون من كبار
التجار وأصحاب السفن ، واحتوتهم ضيحتها وطواهم تيارها
حتى نسوا هانيبال الذي غافلهم واختفى عن أعينهم والحفلة
ما زالت قائمة . . ! ولما كانت سفنهم تعوزها القلاع والأشعة
فقد عزّ عليهم أن يلحقوا به . . !

وحطّ الشريد رحاله في « صور » Tyre ، وأحسن أهلها
استقباله ، وأفرطوا في الاحتفاء به . ثم بارحها إلى ثغر
أنتيوك Antioch وأبحر منها إلى أفيزوس Ephesus حيث
استقر ملك سورية ، فأساء هذا استقباله ، وركب رأسه
وتوانى في الانتصاح بنصحه والاشتباك مع روما في حرب ،
حتى فانت الفرصة وفرغت روما من مقاتلة أعدائها ،
وتاهبت للقاء سورية وأنزلت بها شر الهزائم ، وأكرهتها
على التماس الصلح . . ! ولما أيقن الملك بأن روما تسدح
في القبض على أعدائها في سورية أتاح لضيغه الهرب ،
فطار هانيبال شريدا طريدا يتعقبه الظلم ويطارده الطغيان
أنى حلّ وأينما ارتحل حتى أقبلت أيامه الأخيرة وهو في
ضيافة « برزياس » Brusias ملك بثنيا Bythynia وعاونه
في قتال أحد حلفاء روما ، فسارعت حكومتها إلى طلبه .

وأحسَّ الملك العجز عن مقاومة مطلبها ، فأرسل فرقة
للقبض على ضيفه ... ! وكان هانيبال قلق الخاطر لا يداخله
الاطمئنان في عدو أو صديق ، فالتمس السبيل إلى الهرب ،
وفاجأه الجند عند كل مسلك صادفه وسدوا السبيل في
وجهه ، فسارع إلى سم كان يحمله ليستعين به على اتقاء الشر
والنجاة من الذل ، ثم تجرعه وخرَّ على الأرض صريعا ..!
وتحرك لسانه بالكلام قائلا :

فليسترح الرومان من هذا القلوب الذي يضيقونه به ،
ما داموا يحسونه العجز عن انتظار الموت لرهب طاعن في
السن مئتي ... !

وعاجلته روحه بالفراق في الخامسة والستين من عمره ..!

قيل إن رواية « آلام فرتر » أحدثت تطورا بارزا
الملاحم واضح المعالم في الأدب الألماني كله ، فكان
خليقا بمؤلفها « جيتي » أن يعتز بها ويجعلها موضع فخاره
ومبعث اعتداده . ولكنه كان يأسف لها ويضيق بها كلها
عرض ذكرها في مجلسه ... ! ذلك لأنه أثم في تصوير
المصير الذي انتهى إليه بطلها . فاحتقر بطولته وشوّه
جلالها حين جعل « الانتحار » مصيره . فكان « جيتي »

حريصا على تنزيه البطولة من خطيئة الانتحار . . . و
هذا الاتجاه تميل جمهرة المفكرين الذين تناولوا بالبحث
هذا الموضوع . وهم على حق فيما أرى . فليس صحيحا
ما يقوله البعض من أن المنتحر جرىء على نفسه . والجرأة
على النفس حتى الأجهاز عليها أشد وأقوى من الجرأة على
الغير ، لأن المنتحر في الأغلب والأعم - يقدم على خطيئته على
غير وعى منه ، ويأثم بارتكابها وهو في غيوبة واضحة ،
وما دامت أعصابه هي التي تقوده إلى فعلته من غير تدخل
من فكره ، فلا معنى للحكم عليه بالجرأة والشجاعة . ثم هو
خليق بالاتصاف بالضعف والخور ، إذ أقرب إلى المنطق أن
نقول إن تبعات الحياة قد أفقدته وعيه ، أو ثقلت عليه حتى
فر من وجهها ولاذ بالهرب ..

على أن هذا لا يبرر اتهام هانيبال بالجن . فان هذا
الرجل قد اشتد في حساب أعدائه ، وصب عليهم أذاه
صيبا وشابا وكهلا . . قائداً وشريداً . . ومثّل القسوة في
معاملة الأسرى منهم أنطق تمثيل وأصدق . ولوملك إبادة
روما وسبي نساءها وقتل رجالها وهدم بيوتها ونهب
أموالها وسلب خيراتها لما توانى في ذلك أو تردد .

فأعداؤه إن ظفروا به تمكنوا من إيذائه، وأوغلوا في
الانتقام منه وأفرطوا في تعذيبه ، وهو شيخ قد نيف على
الستين من عمره ، فليس في طاقته أن يحتمل قسوتهم
ويصمد لهوانهم بل قل لماذا يمكنهم من إيذائه ،
ويهيء لهم سبيل اضطهاده وفي وسعه أن ينجو بحياته . ! ؟
والحياة أعز على الطاعنين في السن ممن هم في ربيع العمر
ومقتبل الشباب ، ولكن الحياة — عند من يحترم نفسه —
أهون من استعباد العدو واحتمال طغيانه . . ! ثم كيف
يوصف بالجبين رجل عادى أعظم أمة على ظهر الأرض
كلها، وأقضى عليها مضجعها نحو الأربعين عاماً . . . !

ففي إقدام هذا الرجل على الانتحار في مثل هذه السن
وفي مثل هذه الظروف ما يبرر جريمته ، ويخرجها من
نطاق الجبن . .

مات هانيبال وقلبه ظافح بكراهية الرومان والحقد
عليهم . فكان أميناً لعهد وفياً لوعده باراً بقسمه . . .

بداية النهاية

أو

الاسترسال في قبول الهوان

شيخ هانيبال بعد موته — ثراء قرطاجنه — « كاتو » يهاجمها في مجلس
الشيوخ في روما — عدوان ماسينيسا على قرطاجنه — انفجار الحرب —
نفي الخونة — توسط « سيبو » — المعاهدة الذليلة — وفود قرطاجنه
تتعاقد على مجلس الشيوخ في روما تطلب الغفران وتستجدي الرحمة —
تسليم ٣٠٠ قى من أشرفها رهينة في يد العدو — تسليم أدوات القتال
من سهام وقسي ومزاريق — قنصل الرومان يطالب القرطاجنيين
بالجلاء عن قرطاجنه — فرط الخماس وجنوبه — اعلان
الحرب — اعتماد الشعوب على المعجزات في ساحة النضال

مات « هانيبال » وطار نبأ مصرعه إلى روما ، فأشاع
الغبطة في كيانه ، وخفف من ضيق القلق الذي يساور

أهلها ، وإن لم يمسلاً بالاطمئنان نفوسهم . فان شبّح
« هانيبال » لم يزل بعد قائماً ينذر بالشر ، ويهدد بالويل
والشور ، وخافت روما أن يخلفه في القيادة « هانيبال
جديد » فكان مثلها - من بعض الوجوه - مثل الدول
المتحالفة في وجه « نابليون » يوم نفضت فرنسا منه يدها ،
وقعدت عن نصرته ، وكان الحلفاء قد قصوا جناحه ،
وأكد لهم أحد قاداته أن الامبراطور واقف على قدمين
من عجّين ، ولكنهم لبشوا يخشون فرنسا ، ويرهبون خليفة
نابليون - وإن لم يكن معروفاً لديهم بعد . . ! وقد أدّى بهم
هذا الخوف إلى أن يرفضوا بعد دخولهم باريس للمرة
الثانية إصرار بروسيا على انتزاع الألزاس واللورين . . !
وكانت روما قد أحرقت أسطول قرطاجنه وذرتة
رماداً ، ولكنها تركت لها سفنها التجارية تجوب البحار ،
وتمخر عباها وتلاطم أمواجهها ، وتجلب الرزق
وتعود باليمن ، وتدر الذهب وتملاء به الخزائن . ففي وسعها
أن تستأجر من هذا المال الموفور جيوشاً جرارة تعيد بها
سالف صولتها ، وتسترد سابق مكاتها ، وتبنى أسطولا أعظم
من أسطولها المحترق ، فيتسلط على البحار ويتولى زعامتها

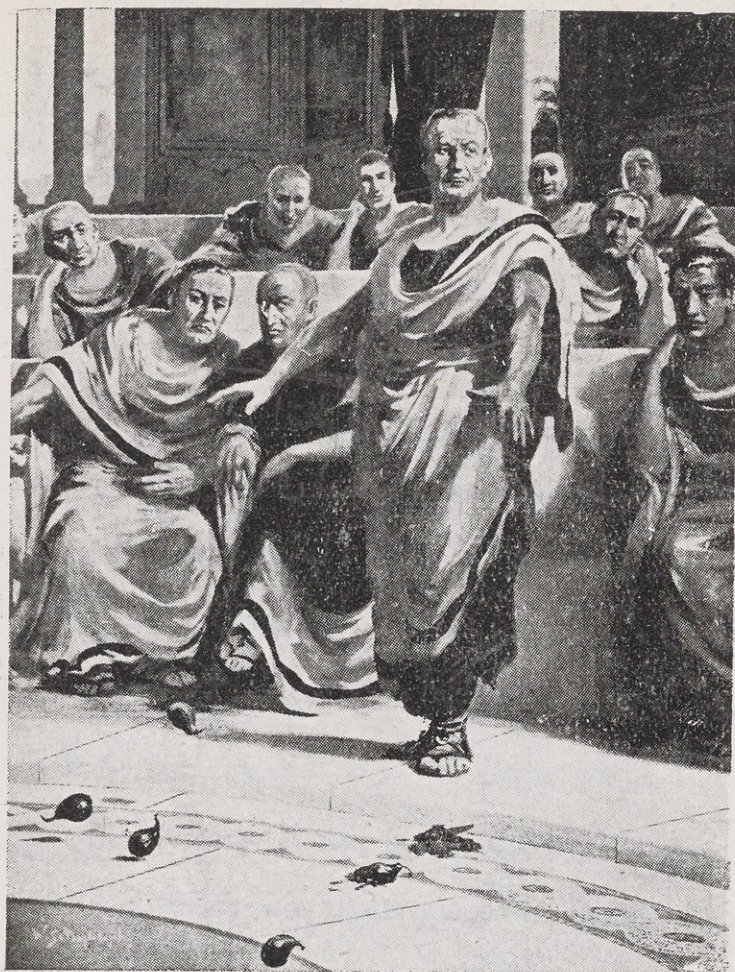
كما كان — وأنف العدو في الرغام !.. ولم لا..؟ لقد عاشت قرطاجنه طيلة حياتها معتمدة على الجنود المرتزقة، مستندة في قتالها إلى سواعدهم الفتية وجهودهم الجبارة، وهما هي قد استوفت حظها من الغنى بعد عشرين عاماً من إبرام المعاهدة فتتقدم إلى روما تريد دفع الغرامة مرة واحدة، وإن كانت الشروط تمد لها في أجل الدفع خمسين عاماً !.. فأما روما فتأني هذا المال الذي يتبرع لها عدوها به لأنها تريد أن تطيل في إذلالها له ونكايتها به وتشفيها منه !..

وكأنما أرادت أن ترد لها موقف « هانيبال » بعد « كاني » يوم وقف على كشب من روما يقرع أبوابها ويرسل الفرع على أهلها دون أن يتقدم إلى اقتحامها أو يفكر في غزوها، ليطيل من عذابها، ويمد في أجل شقاءها.

وكانت مقدونيه تهمّ باعلان الحرب على روما، فاتصلت رسلها بقرطاجنه، ولاقت من الحزب المؤيد للحرب فيها انتصاراً لدعوتها، وارتياحاً للائتلاف معها.. وترامت هذه الأنباء إلى سمع روما فزادت من قلقها وضاعفت من

حقدها. . وتولى «كاتو الكبير Cato, the Elder» مهاجمتها
في المجلس — وكان يضيق بها ويحقد عليها منذ أن قاسى
مرارة كفاحها في الحرب البونية الثانية — فانتدبه المجلس
للاستفسار عن السبب في حرب أثرت بينها وبين ماسينيسا.
فلما بلغ قرطاجنه وتجوّل في أرضها، راعته موارد الرزق
فيها، وأدهشته مظاهر القوة التي توفرت لها، وعجب
لازدحام سكانها واكتظاظ أقاليمها، وأزعجه أسطولها
المزوّد بخير المعدات، وأقلقته مخازن الأسلحة الملائى
بالذخائر، فلما عاد إلى روما مثل في مجلس شيوخها، وانطلق
ينفث في الأعضاء سمومه، ويستفز كامن حقدهم فيقول لهم:
انه نصيب لهذا الشعب من القوة والبأس في حاضره،
لا روع من نصيبه منسما في ماضيه، وهو يعالج الحرب اليوم في
افريقية نوطنة لا تارنها في وجوهكم، والقاء صممه افون أفسادكم.
ثم أخرج وهو مندفع في كلامه عنقوداً من التين
الناضج كان في فرجة في ثوبه، وألقاه أمامهم قائلاً لهم
وقد أدهشهم نضوجه:

انه مملكة تنتج مثل هذا التين الناضج لينسرها ويين هذا
المطعم رمنة أيام نموت. (الصورة ص ٢٠٩)



ففي مجلس الشيوخ الروماني :

« كاتو الكبير » ألد أعداء قرطاجنه
يلقي أمام الأعضاء من فرجة في ثوبه تيناً
جمعه من قرطاجنه ويقول لهم « ان مملكة
تنتج مثل هذا التين الناضج ، لبينا وبين هذا
المكان رحلة أيام ثلاثة . . !! »

وأخذ يشتد في هجومه على هذه الأمة الشقية ، ويستغل
الفرص للدعوة إلى تحطيمها . والنغمة التي لا يمل تردادها
في خطبه : يجب أن تتلاشى قرطاجنه « Delenda est
Carthago »

وكان لقرطاجنه عدو رابض يترصد بها ، ويتربص
حركاتها ويتنهر الفرص للاعتداء على أرضها ، ذلك هو
« ماسينيسا » الذي انتظم في صفها وحارب مع قائدها
« هسدروبال برقه » في أسبانيا ، ثم انتقض عليها وحالف
روما وجاهد تحت لوائها ، وكان له الفضل الأكبر في
إحراق المعسكرين اللذين أسلفنا الحديث عنهما ، وكافأته
روما فردت له ممتلكات أبيه وأضافت إليها جزءا كبيرا
من مملكة سيفاكس .

وكان ماسينيسا قد شغل نفسه منذ أكثر من خمسين
عاماً بالعمل على توسيع مملكته وبسطة نفوذه على حساب
قرطاجنه ، وكان يحس بأن روما لا تتأخر عن نصرته
إن أعوزته معوتها . وكانت قرطاجنه — بالاضافة إلى
هذا — قد حرمت عليها المعاهدة أن تشعل الحرب إلا
بإذن من روما . ثم هي ضعيفة الرجاء في نجدة روما إذا

استعانت بها وطلبت حمايتها من اعتداءات ماسينيسا
المتلاحقة، وأرسلت روما رسلها — بعد أن كررت
قرطاجنه شكاتها — فكانوا يفحصون أمرها،
ويتبينون وجه الحق في موقفها، وكثيراً ما أثبتوا في
تقريراتهم مدى الأخطاء التي ارتكبتها ماسينيسا حيالها. ثم
يبارحونها وموضوع النزاع ما زال معلقاً..؟ ولج الملك
في اعتداءاته، وأسرف في عدوانه حتى انفجرت الحرب
في السنة الحادية والخمسين بعد المائة، وقام الحزب
الديموقراطي (الذي يتولى الانتصار للحرب) بتطهير
البلاد من الخونة المارقين من أنبائها، فنفى أربعين عضواً
كانوا يتزعمون حزباً ينتصر للعدو، وأوجب على الشعب
أن يقسم غير حانت ولا متردد ألا يأذن لهؤلاء الخونة
بالعودة إلى أرض الوطن.. فطار هؤلاء الأربعون إلى
الملك «ماسينيسا» وراحوا يزيدون من حقه، ويضاعفون
من عدائه، وما كانت به حاجة لشيء من ذلك.

فقام الملك بحصار المدينة وأرسل الشعب قائده
هسدروبال للقاءه وصد عدوانه، وهجر الملك ضابطان من
ضباطه وخفياً — وفي صحبتهما ستة آلاف فارس — إلى

جيش العدو وانتظموا في صفوفه ، وتقهقر الملك حتى
طوّح بعوده في بطاح لا يبلغه فيها المدد إلا بعسر
ومشقة .

ثم تدخل سيبو وتوسط بين العدوين . وقبل
القرطاجيون أن يتنازلوا عن المملكة التي تحيط بأمبوريا
Emporia (مانسية الآله Gabes & Trebia) وأن يدفعوا
مائتي وزنة من الذهب فوراً ويتعهدوا بسداد ثمانمائة أخرى
أقساطاً، فلما أضاف الملك إلى هذا رغبته في تسليم الفارين
انقطعت المفاوضات وانفجر العدو في وجهه .

وأسرف «هسدروبال» في حسن الظن حتى توهم بأن
روما ستدخل لحسم النزاع بين البلدين ، وما كانت روما
لتتدخل في الأمر وتوقف الحرب إلا إذا أحست عجز
حليفها عن مقاومة قرطاجنه ، والمضى في تحطيمها وإلقاء
الطعنة القاتلة في قلبها . فأقامت روما على حيادها حتى
أصاب القحط جيش هسدروبال ، ولحقت به الحمى التي
لا تفارق القحط أنى كان . فانهدت قوى الجيش وهلك
الكثير من أفرادهِ ، واضمحلت آماله وحط على فلوله يأس
مرير ساق هسدروبال إلى قبول معاهدة تنضح نصوصها

ذلة وهو انا ، ويطفر منها الاحتقار والامتهان . فعاد إلى
قرطاجنه أنصار الملك الذين نفاهم الحزب الديموقراطى
من قبل ، وسلم الهاربون على كره من قرطاجنه ، وأرغم
المغلوب على دفع غرامة بلغت الخمسة آلاف وزنة من
الذهب — وأشنع من هذا وأنكى أن المعاهدة قد أوجبت
على هسدروبال أن يمر وجنده من ورائه على معسكر العدو
عزلاً من كل سلاح عارين إلا من ثوب واحد . يستر
أجسامهم . . . ! وقبل القائد هذه المهانة البالغة ولوث بهذه
الذلة شرفه العسكرى ، واطخه بأدران العار الذى لن
ينساه التاريخ ، إبقاء على حياته وحرصاً على وجوده . . . !
وسيعرف القارئ النهاية الأليمة أو المأساة المهيئة التى
ختم بها هذا القائد الذليل حياة أمة .

فأما الهاربون الذين لا عون لهم فقد قام أحد أبناء
الملك على رأس قوة من الخيالة وتولاهم بالذبح والأهلاك
حتى أفناهم إلا نفرًا قليلاً تيسرت له العودة إلى قرطاجنه
فأما قرطاجنه فقد تولاهم اليأس من سوء ما لقيت
طيلة جهادها الشاق ، وأفقدوها ضيقها الرشيد فحكمت
بالأعدام على قائدها « هسدروبال » ومن كانوا يطالبون

بالحرب ويدعون لأثارها...! وأطلقت رسلها إلى روما
لترفع هذا التصرف العجيب الذي قابلت به إهانتها،
إعلاناً منها لبراءتها من الحرب، واعترافاً بخطئها في إشعال
نارها. ولكن أعضاء المجلس في روما قالوا للرسل:

«توانيتم في توقيع العقوبة حتى لحقتكم الهزيمة،
وزايلتكم القدرة على المقاومة. فلماذا لم تحكموا عليهم
بالأعدام قبل أن تُقهرُوا في الحرب»

وحار الرسل جواباً... فصوت المجلس في جانب
الرأي القائل بأن اعتذار قرطاجنه عن إشعال الحرب من
غير إذن من روما كسيح لا ينهض بالعفو عن جريمتها.
وتساءل الرسل في أسى ويأس عما ينبغي أن
يفعلوه تكفيراً عن خطيئتهم، فرد عليهم المجلس رداً
يسبح في جو كله غموض وإبهام قائلاً لهم:

«ينبغي أنه تقوموا بإرضاء الشعب الروماني»

فلما حمل الرسل هذه الرسالة إلى أمتهم، أرسلت وفداً
ثانياً ملتصقاً معرفة ما ينبغي أن يفعلوه على وجه التدقيق.
فطرده المجلس أعضاء الوفد قائلاً لهم:

«إن قرطاجنه لتعرف المطلب الذي ننسره»

ثم وافقت روما على النصيحة المشؤمة التي أسداها
لها « كاتو الكبير » فكان على قرطاجنه أن تتلاشى ..

وانطلق القنصلان : سنسورينوس Sensorinus
ومالينيوس Malinius إلى قرطاجنه بجيش وأسطول
مزودين بالتعليمات السرية التي تقضى بآبادة قرطاجنه
وملاشاتها من الوجود .. !

وكان الشعب الرومانى وطيد الثقة فى تحقيق مطمحه .
قوى الرجاء فيما سيصيه من أسلاب وغنائم ، شديد الحرص
على أن ينال نصيبا من فخر النصر الحاسم المنتظر . فتقاطر
المتطوعون فى الجيش وانهاؤا عليه حتى تجاوز عديده
المائة ألف جندى يستخفهم الطرب ، وتهزهم الرغبة فى تحقيق
هذا الحلم اللذيد على يدهم ..

أما الحكومة فى قرطاجنه فما فتئت فى سباتها يتولاها
يأس مُمِض وضيق بغيض .. ولا أمل لها فى النجاة من هذا
الشر الهاطل فى غير انقطاع إلا بتقديم الخضوع الذى
لا حد له ، وقبول المهانة البالغة من غير قيد ولا شرط .. !
ولهذا أرسلت وفدا ثالثا إلى روما وزودته بمطلق الحرية
فى الموافقة على شروط العدو بالغاما ببلغ الهوان بها .. !!

فلما أقبل الوفد على القنصل ومثل بين يديه ، واتمس
عنده معرفة ما تطلبه روما على التحقيق قال القنصل
للأعضاء :

« إذا سلمتمونا ثلاثمائة رهينة من أنبل الأسر في
قرطاجنه ، وقمتم بكافة الشروط الأخرى التي نطلبها منكم
في ثلاثين يوما لا تتجاوزونها ، تمتعتم باستقلالكم وبقيت
لكم كافة ممتلكاتكم . »

ولكن مجلس الشيوخ في روما أرسل تعليمات سرية
إلى القنصلين ، تتضمن التشبث بالمطلب الأسمى الذي
لا ترد فيه ولا تنازل عنه : « القضاء على قرطاجنه
وملاشاتها من الوجود . . . !! »

ثم شرعوا في اختيار ثلاثمائة فتى من أشرف البيوتات
وأنبل الأسر في قرطاجنه ، فاستولى على النساء فزع ممض
وحاق بهن ضيق أليم ، وأدركهن الهلع فأنطلقن في الشوارع
والأزقة باقيات مولولات يتوسلن إلى أولى الأمر أن
يرفضوا هذا المطلب الآثم . . . وبارحت هذه الجموع من
الشبان بيوتها ، وفارقت أهلها وصحابها ، وازدحم بهم
الشاطئ ثم أقبلع بهم السفين بعد وداع أليم للوطن والأهل

والعشيره والصحاب . وخلفوا وراءهم الحزن الدائم والألم
المقيم واللوعة الباقية والذكرى الموجهة . . ولبست الأمة
السواد ، وقص السيدات شعر رءوسهن حدادا على فلذات
الأكباد ، وخيم الحزن على الناس وارتمى في وجوههم
ومثل على شفاههم وفوق جباههم ، وفي شتى حرركاتهم
وسكناتهم .

فبدأت اليقظة تسرى في طائفة من الشعب المخدوع ،
تحركها من هذا السبات الذي طال أمده واشتد بأسه
وساء مصيره . . بدأت تعرف أن الأمة التي تتبرع بحقوقها ،
وتمتن في قبول المذلة ، وتسرف في الرضا بالهوان ،
والاستسلام للعدو أملا في غفرانه وانتظارا لرحمته ، إنما
تعد لنفسها الجذث ، وتبني الرمس لا بنائها . . . ولكن
الذين أدركتهم اليقظة كانوا من القلة بحيث لا يقوون على
مقاومة هذا السبات الطويل ، ومناهضة هذه الغفلة البالغة . .

ثم عاد القنصل فلعن الحرب وأثنى على السلام
وطلب من رسل قرطاجنه أن يسلموا إليه كافة أسلحتهم
وعُددهم وأدوات قتالهم « لأن روماستولى الدفاع عنهم
يوم يعوزهم هذا الدفاع . . . !! » وتمادت قرطاجنه في

استسلامها واستجابت لمطلبه ، فسلته : مائتي ألف حربة
وألفين من القسي وآلاف الآلاف من السهام والمزاريق .
وبذلك أباد العدو جيشها في حروبه وأحرق أسطولها ،
واستولى على أسلحتها وأدوات قتالها ، واستل منها ثلاثمائة
من أبناء أشرافها . . . وخلفها كسيحة الرجاء ، مية
الارادة ، مجدبة العزم يخيل للرأى أن الجمد إن تحرك
ليرد شراً نزل به ، كان في الأمل فسحة لانتقام هذا
البلد التعس . . . !

ثم عاد القنصل بعد هذا الهوان الذي أنزله بهم فقال
لهم : تحمدون الآن على طاعتكم ، ولكن روما قد كلفتني
بأن أقول لكم : فارقوا أرض الوطن وشدوا رحالكم إلى
مكان تتخبرونه بعيداً عن البحر بعشرة أميال على الأقل ،
لأننا اعتزمنا أن نهدم وطنكم ونلاشييه من الوجود حتى
نأمن شره ، ولا نخشى بعد اليوم بأسه ، فهيا سارعوا إلى
نقل أثاثكم وما تملكون إلى هذا المكان الصحراوي
الجميل . . . !

وكأنما كان يحس بوقع هذا النبأ الأليم في نفوس
أولئك الأشقياء الذين ألفوا البحر وورثوا عن الآباء

حبه ، ومارسوا التجارة ووقفوا عليها حياتهم ، فاستأنف
الكلام في إيلام موجه : « ولخير لكم أن تبتعدوا عن
البحر حتى لا تذكروا العظمة التي تهيأت لكم في ماضى
أيامكم ، وتنسوا المجد الذى أصبتموه فى غابر تاريخكم ، ولا
تؤذيكم ذكرى الماضى وعبرة الحاضر . والزراعة فوق
هذا كله أدعى للأمان من التجارة ، وأكثر منها درأ
للخير ومجلبة للرزق » ثم عقب على هذا الكلام الموجه
قائلا : « ونحن مازلنا عند كلتنا حين وعدناكم بأن
تحيا قرطاجنه فى ظلال الاستقلال ، إذا استجابت لمطالبنا
وخفت إلى مرضاتنا . . . !؟ إن الرجال ، لا الحوائط ولا
المباني هم الذين يكونون الأوطان . . . ! »

وكان الشعب القرطاجنى فى انتظار رسله ليعرف آخر
مطالب للعدو بعد ما سلف من مطالب تجاوزت العقل
وتخطت كل حدود للعدل . . . وازدحم الشعب وتقاطرت
جموعه وهطلت على مجلس الشيوخ لتسمع كلمة الفصل
فى مصيرها ، فلما أقبل الرسل ووطئت أقدامهم أرض
الوطن ، كادت أن تزهق نفوسهم من شدة الزحام ، وشقوا
إلى المجلس طريقهم بعد جهد فاق التصور ، ومشقة تجاوزت

الوصف ، وتقاطر الشعب على أبواب المجلس وتكدست
جموعه وهطلت أفواجه ، وخرست الألسنة وأرهفت
الآذان لتسمع نبأ المطلب الجديد . .

فلما أعلنه مندوب الوفد أصاب المجلس الهلع ، وشاع
فيه الجزع ، وارتفعت في القاعة صيحة كلهاروع وغضب ،
فأما الشعب خارج الأبواب فقد اشتعلت نار الغضب في
أعصابه ، وغلت مراجل الانتقام في رأسه ، فهجم على
قاعة المجلس وقد فقد وعيه واستولى عليه مس من الجنون
وانقض على الأعضاء الذين كانوا ينصحون بتسليم الرهائن
والأسلحة والأسطول والمعدات ، وأعمل فيهم أسنانه
وأظافره وأيديه وأرجله وكل ما امتدت إليه قوته التي
تغلي وتستعر حتى مزق بعضهم إرباً إرباً . ومثل بجشهم
وراح يطوح في أشلائهم . . . وهجم على الرسل الذين
لا ذنب لهم إلا أنهم حملوا هذه الأبناء الأئمة ، وصب
عليهم جام غضبه ، وتولاهم بعذابه في وحشية أحالت
المجلس جحماً يضطرب من فرط الهياج والقسوة البالغة
في الانتقام الذريع . وأباد الشعب من ظفر بهم من
الحزب المعتدل وأفناهم وسار على جشهم ولطنخ جدران

القاعة بدمائهم . ثم انطلق إلى الشوارع يبحث عن
الطلبان الذين شغلتهم التجارة ، أو استلذمت أعمالهم البقاء
بين جدران المدينة ، وانقض عليهم وفتك بهم فتكا ذريعاً
واقترس من وقع منهم في يده اقتراساً وحشياً ذمياً ...
ولبت الشعب المجنون يطوف المدينة للبحث عن فريسة
تنصرف إليها فورة دمه ووحشية غضبه ووقدة حماسه ...
وتهيأ الرشد لفئة منه فانصرفت إلى إعداد ما يستلزمه
الدفاع في الحرب الضروس المقبلة ... وأعلنها مجلس الشيوخ
في نفس اليوم ...

وترامى إلى سمع التاريخ هتاف القدر بيوم « كاني »
يوم عاجلته قلة خبرته وحسن ظنه بصروف الزمن ،
وقصر نظره في فهم الحادثات والتكهن بعواقبها والتنبأ
بتطوراتها ، وذكّر همسة القدر يومئذ « بل ستحيا روما .
هكذا أراد الرومان . وإرادة الشعوب من إرادة الله . »
فاتأد التاريخ وتأنى في حكمه حتى ينطق الزمن بمصير هذا
الشعب العجيب ..

وإذا جردت قرطاجنه اليوم من حرارة حماسها
ووقدة اشتعالها فماذا ترى ؟ .. ! امبراطورية واسعة

الأرجاء مترامية الأطراف موفورة البأس والقوة
بسطت سلطانها على شمالى إفريقيا ، وتخطته إلى أسبانيا
فنشرت العلم فى ربوعها ، ثم تجاوزتها إلى إيطاليا وبسطة
طيلسانها على آفاقها الرحبة . . ولكنها اليوم قد ضاقت
وتقلص ظلها . وانكمش سلطانها حتى استحالت إلى «مدينة» . . !
قد استولى عليها الضعف وتملكها اليأس وضعفعتها
الحروب ، فسلمت عدوها : أسطولها البالغ نصف ألف
بارجة ، وشهدت بعينها النار تلتهمه صابرة يائسة . . ! وأعطته
أسلحتها وأدوات قتالها من حراب وسهام ومزاريق
وقسي . . وثلاثمائة من خيرة شبانها الذين أفلتوا من
جحيم الحرب ، وكانوا موفورى الحظ من القوة والعافية . !
وتقبلت دفع الغرامة مكرهة على الرضا ، لا يرتفع فيها
صوت بالاستياء حتى يخفت على كره من صاحبه . . !
وحكمت على قادتها والمجاهدين المتطرفين من أبنائها
بالأعدام مرضاة للعدو الذى استباح حرمتها ، وامتن
كرامتها ووافق راضياً على إكراه قائدها وجندها على أن
يمروا على معسكر الأعداء عارين إلا من ثوب واحد يستر
عورتهم . . ! وأرسلت وفودها متلاحقة تترى إلى روما

تنشد العقاب لتستجيب له ، وتطلب الحساب الذليل لتثبت
ولاءها باحتماله والرضا به .. !!؟ أو قل ملخصاً هذا كله :
تنازلت عن وجودها المعنوي إبقاء على وجودها الحسي
واليوم ..؟ من ينتصر لها ويتعاون معها في تهيتها
للدفاع وتأهبها للانتقام .؟ إن تاريخ الأنسانية منذ فجر
وجودها حتى الطور الأخير من حياتها ليؤكد لنا بأن
تضامن الشعوب في صراعها لا يطمئن للضعف ولا يقوم
على غير المصلحة . وادعاء الرحمة والأنسانية والعدالة
خداع يستر وراءه هذا المطلب الأسمى والمطمح الأعلى .
وإذا اختفت معالم هذا المقصد في تضامن شعبي بغيره ،
ووضحت آيات أخرى في سر تعاونه ، فأنما نهاية العلل في
تسلسلها : هي الحرص على المصلحة .. !

وقرطاجنه اليوم ضعيفة .. ولا عون للضعيف
إلا الله ..! هي عزلاء .. ولا مدد للأعزل إلا رحمة
السماء ... وحتى السماء — فيما تنطق به نواميس الكون
ونظمه المستقرة — لا تحايي ضعيفا ولا قويا . وإنما تترك
الخلائق في صراعها وقتالها .. والبقاء للأصلح .. والغلبة
للأقوى ... ثم أينت عدالة السماء وحكمتها إن كانت الغلبة

للقوى يوما وللضعيف يوما، والبقاء للصالح حيناً وللهزيل
حيناً...؟! إن اعتماد مثل هذا الشعب التعس على رحمة
السماء لن ينجيه من الويل المقبل.. إلا بمعجزة.. واعتماد
الشعوب على المعجزات فى لجة الصراع الطامية، أبلغ حجة
على استهانتها بمصيرها، وتسليمها فى وجودها، وقبولها
للهلاك عن جدارة واستحقاق..!

وإذن فلتعتمد قرطاجنه على سواعد أبنائها المقتولة،
ونفوسهم الزاخرة بحب الحياة، وقلوبهم العامرة بالحرص
على البقاء — لعل هذا ينجيها من الهلاك.

البحث

انشغال الشعب — نساء ورجالا شيبا وشبابا بالتأهب للصراع المقبل —
بين الكرامة وتقرير المصير — جغرافية قرطاجنه — بدء حصارها —
بسالة « فامياس » — بين المد والجزر — فورة الحماس — الرومان يلتمسون
نجدة « ماسينيسا » ثم يأبونها — « سيبو » يتولى تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة
خيانة فامياس — تغيير القنصلين على غير جدوى — قرطاجنه تطلب العون
على غير طائل — مجلس الشيوخ في قرطاجنه يرحم أحد القادة حتى يهلك —
روما تهتف بسيبو — القانون لا يجيز والشعب يريد — ارتداد القنصلين الى روما
من فرط اليأس — عودتهما بعد اصلاح الجيش — الرومان في حى مجارا —
تقهقر القرطاجنيين — تعذيب أسرى الرومان — ضرب الميناء —
القرطاجيون ينون أسطولا في غفلة الرومان — تفانيهم في الدفاع —

ونفخ في الصور فاذا النيام أيقاظ تملأهم الحياة بعد أن
زایلهم النعاس ، وإذا الأموات يهرعون إلى ميدان القتال
من فرط القوة ووفرة الحيوية ووقدة الحماس ...
قامت الأمة - حكومة وشعباً - بتنظيم الدفاع ، والتأهب
لبذل الجهد والنفس في الهول المقبل ، حرصاً على بقائها
وتقريراً لمصيرها ، وولت قيادة جانب كبير من جيشها

قائدها هسدر وبال - وهو الذي أسلفنا الإشارة إلى الحكم
عليه بالأعدام مرضاة للعدو - وتربص الباقي من جيشها
داخل الأسوار، ونسى الشعب مطالب حياته وراح - نساء
ورجالاً شبيهاً وشباباً - يواصل الليل بالنهار في صنع الأسلحة
وإعداد ما يتطلبه الصراع المقبل من أدوات .. اقتلعوا
بلاط الشوارع، وهدموا كثيراً من البيوت وحملوا
أحجارها إلى شرفات الأسوار، أذابوا ما يملكون من أوان
وتماثيل ذهبية وفضية، وقد كانت عزيزة عليهم حبيرة
إلى نفوسهم .. طغى الشعور بالقومية الملتهبة والرغبة
الملحة في البقاء على العقيدة الدينية المتمكنة في النفوس، فأحالوا
« المعابد » مصانع يعدون فيها أسلحتهم وعددهم وما
يحتاجون .. احتاجوا إلى أوتار للقيس لتقذف المزاريق
وأعوزهم شعر الخيل الذي ألفوا استعماله في ذلك، فسارع
النساء إلى التبرع بشعر رؤوسهن ولم يخلن به وكان
من أعز ما يملكن من مظاهر الزينة .. كانوا يصنعون في
اليوم الواحد ألف مزارق وثلاثمائة سيف ومائة درع ..!
كل فرد في الشعب قد استولى عليه شعور عميق
يوحي إليه بالرغبة في القتال، وتسلط عليه هاتف يهتف

في أذنه : إن نهاية الصراع المقبل حياة ممدودة البقاء
موفورة الهناء ، أو اندحار لا راحة وراءه... لا بل
لا حياة بعده .

واستحالت قضية الكرامة والمطالبة بالحرص على
قداستها ، إلى قضيه دفاع عن حق البقاء واستماته لتقرير
المصير . . وإذا كان في الأمم من لا يحسون بضرورة
الحرص على الكرامة ، والتمتع بالاستقلال وغسل
الآهانة ورد العدوان والعيش في ظلال الحرية ، فليس
طبيعياً أن يوجد في أهل الأرض قاطبة فرد واحد يتهاون
في بقائه ، ويستهن بمصيره ، ويتساوى عنده وجوده
و فناؤه .

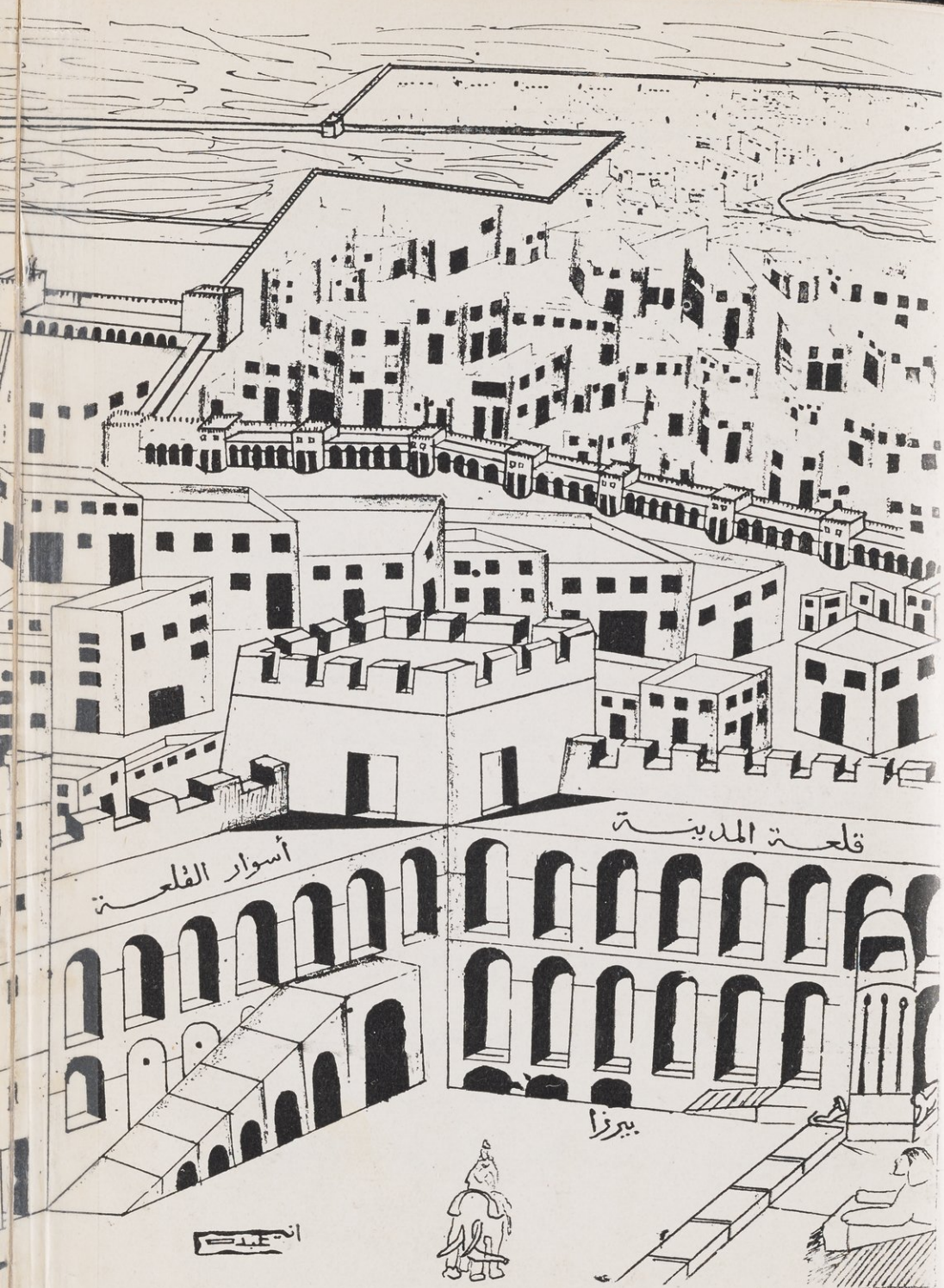
وبهذا استحال الشعب كله كتلة واحدة قوية البنيان
رصينه اللبنة متماسكة الأجزاء، وامتزج أفراده شعوراً
وفكراً وقاموا على بكرة أيهم يتولون الدفاع ، ويستमितون
في مقاومة الأعداء .

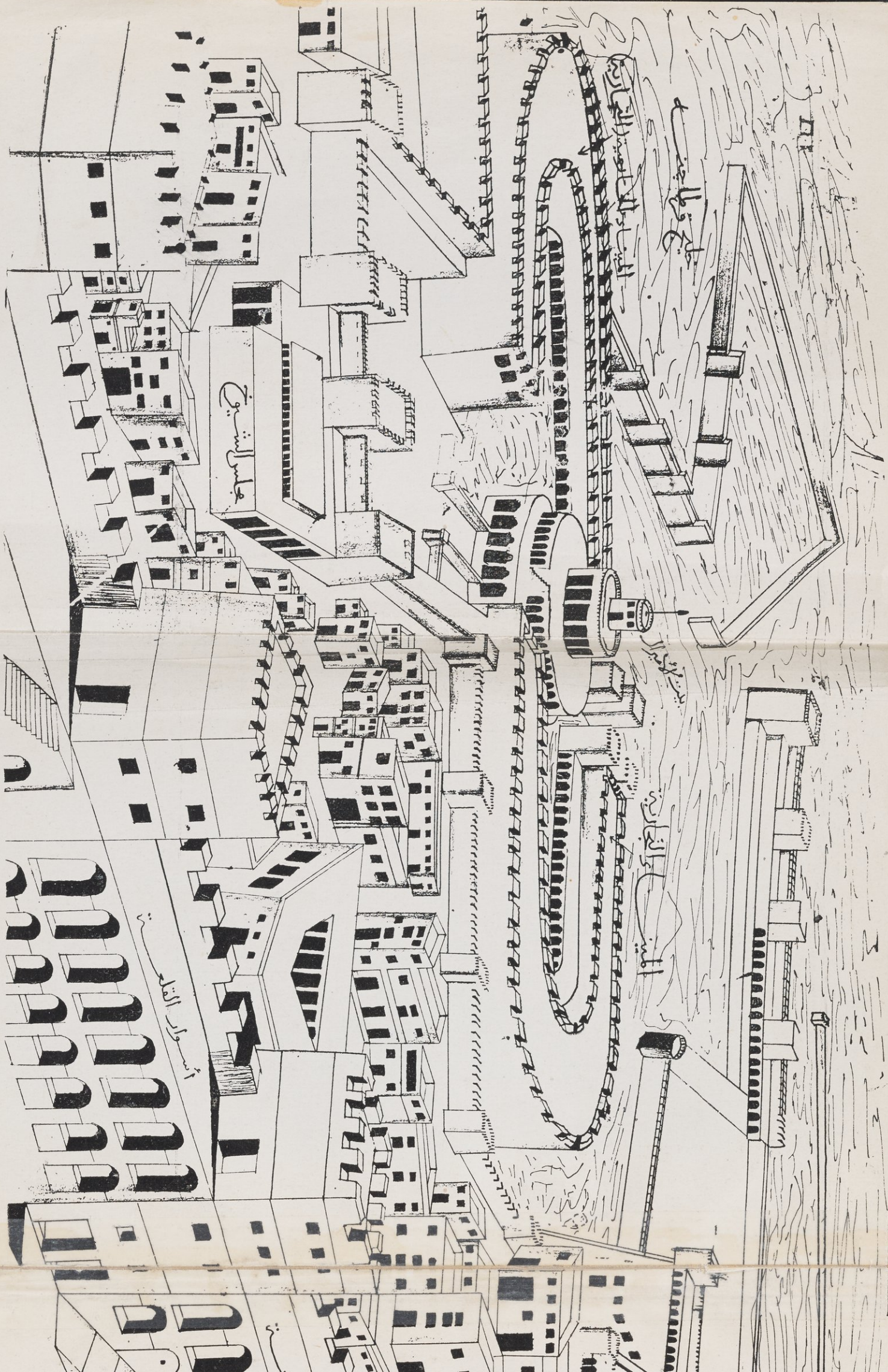
وكان لقرطاجنه سور يبلغ محيطه ثمانية عشر ميلا
وارتفاعه ستة وأربعين قدماً وسمكه أربعة وثلاثين قدماً .
أما بروجها فكانت ترتفع في الجو أربع طبقات . وكان

يكفي لحماية المدينة من ناحية البحر سور واحد ، لأنها
تربض على شبه جزيرة كما أسلفنا القول ، ومن الشمال
والجنوب كانت تقوم على حماية المدينة ثلاث حوائط
تتفاوت ضخامة وعسلا ، وكان أقربها إلى المدينة أقلها
قوة و ضخامة .

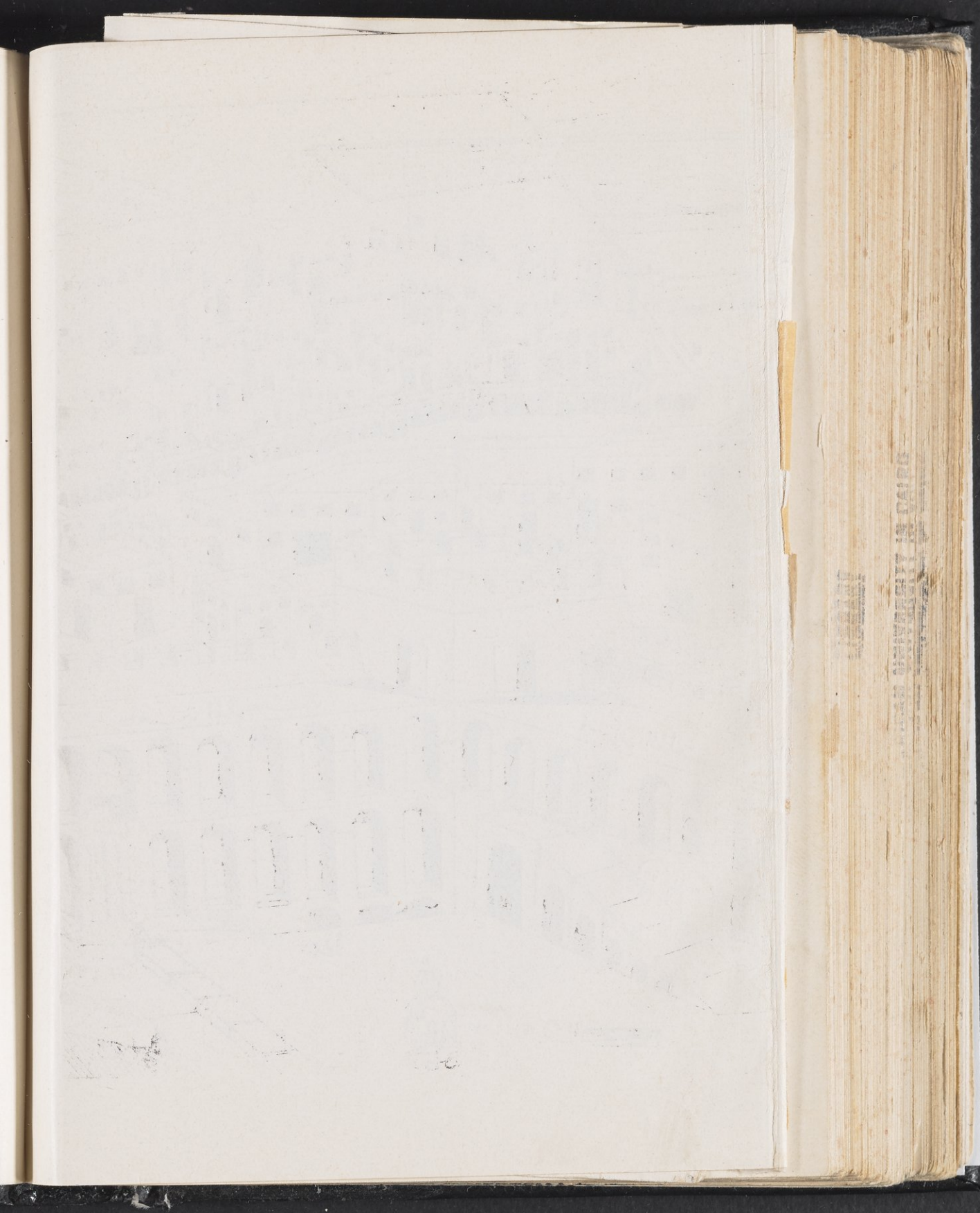
أما موانى المدينة فقد أقيمت بحيث يسهل الاتصال
بينها ويتيسر مرور السفن من واحدة لأخرى .
وأعدت الميناء الخارجية للسفن التجارية ، وكان مدخلها
من ناحية البحر مغلقا بسلاسل من حديد ، أما الميناء
الداخلية فقد أعدت للسفن الحربية ، وكانت تقوم فيها
جزيرة ، حولها وحول الميناء مكان فسيح يصلح لحفظ
عشرين ومائتي سفينة ، ويقوم على الجزيرة بيت أمير البحر
وهو عال يمكنه من الاشراف على ما يدور حول المدينة
عن بُعد . وبين الميناءين الخارجية والداخلية : التجارية
والحربية سور مرتفع يسهل النظر من خارجه إلى ما
وراءه . وللميناء التجارية مدخل من ناحية المدينة . وكانت
القوات تتولى حراسة الميناء الحربية وتقوم على حمايتها .

(الخريطة فى الوجه المقابل)





قرطاجنه في شتي مبانها



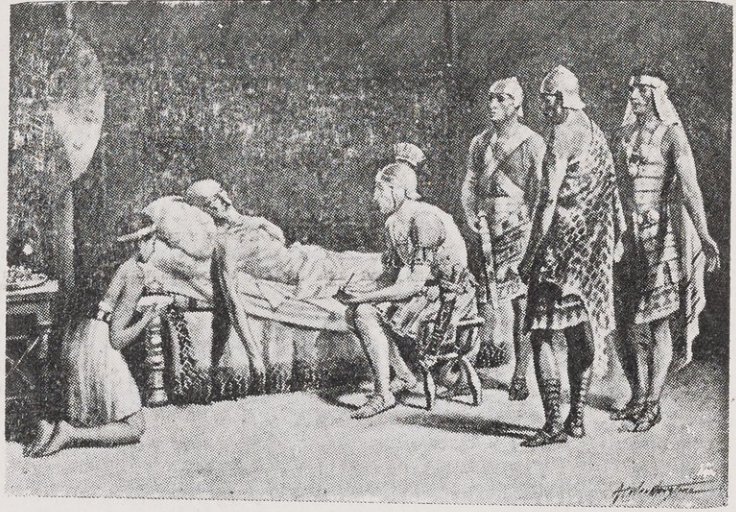
ولما كانت المدينة تربض على شبه جزيرة فقد جنح
 مانليوس إلى حصارها براً ، ومال سنسورينوس إلى
 الهجوم على سياجها بجرا ، فتخير أضعف جوانبه وأسرعها
 إلى الانهيار ، وخاض إليه مستنقعا ضحلا ، وشرع في
 اقتحامه وبذل الجهد الجهد أملا في انهياره ، ولكن أهل
 المدينة صمدوا له واستماتوا في الدفاع حتى كبدوا المحاصرين
 خسائر فادحة ، وأنزلوا الشر بالمهاجمين برا وبحرا ، وأبدا
 همدرو بال وضباطه من المهارة والحدق والنشاط ما انخلع
 له العدو واضطرب . . وكان أظهرهم حماساً وأبرزهم إقداما
 وأشدهم بأسا : فامياس Himilco Phameas فاستجمع
 «سنسورينوس» قواه واستكمل عدته وهيا لهدم السياج
 منجنيقين تولى أحدهما ستة آلاف مقاتل ، وقام بالثاني
 جمع غفير من البحارة ، وتيسر لهم بهذا الهجوم أن يبعثوا
 العطب في جانب من السور ويحملوا عليه فاذا هو طلل
 مهدم . . ! وانبثق الأمل العريض في الأفق أمام الرومان ،
 وأحسوا بأن العدو لن يقوى على صراعهم بعد هذا النصر ...
 وأقبل عليهم الليل ونشر جناحه والطرب يستخفهم والأمل
 يغذى نفوسهم ، ثم أصبح الصباح فاذا الجانب المهدم مقام

كما كان . . . !! وذهل الرومان لحفة العدو ونشاطه وسرعته
ثم حملوا على المبنى الجديد ولاقوا من رصانة الدفاع المزبد
فوق ما كانوا يتصورون . وهاجم الرومان فجوة في السور
لم تتناولها يد الترميم، وحصروا فيها جهودهم، ووقفوا عليها
رجاءهم، ولكن أهل المدينة وضعوا في الفجوة رؤوسهم
وحملوا إليها حياتهم، وتكاتفوا ثم دفعوا منها جهودهم،
فردوا المهاجمين بعد أن دفعوا ثمن الحصار . . . وكان
باهظا . . . وتقلص ظل الأمل في رؤوس الرومان،
وأحس قائدهم «سنسورينوس» بأن ملاحية قد قاسوا من قيظ
الحر وضغط الصيف فوق ما تحتمل طاقتهم، فبارح المستنقع
ونقل إلى البحر الواسع سفنه . وحرص الشعب الباسل
على استغلال الفرص فما قامت الرياح وهيأت نفسها لخدمته
حتى سيخرها وأرسل على جناحها فيض شره وأجيج غضبه،
وأطلق فيها سفنه لتنزل بالرومان عذابه . . . وبدأ الأمل
المتفتح يذبل، والعزم المتيقظ يهدم، والطموح الوثاب
يضمحل . . . وأعوزتهم النجدة فالتسوها عند حليفهم القديم
«ماسينيسا» وكانت علاقته بهم قد داخلها الفتور ودب
إليها الجفاء، لأنهم أهملوا شأنه حين جنحت بهم الرغبة

إلى تدمير قرطاجنه . وتمادوا في إهماله حين مضوا
وحدهم إلى تحقيق هذه الرغبة ، فلما امتنعت
عليهم المدينة ونفدت قوتهم على غير طائل ،
أرسلوا إليه في طلب العون ، فوعد بتلبية رجائهم « بعد ،
أن تقدموا به . . ! » وكانوا أكبر من أن يحتملوا هذه
الآهانة ، ويقبلوا المدد بعد هذا الجواب الجارح . ثم مات
هذا الحليف في التسعين من عمره . فتيّ النفس موفور
النشاط . وانشغل سيديو الذي التقت عنده ثقة هذا الرجل
بتقسيم مملكة الملك وثورته بين أبنائه الثلاثة (الصورة ٢٣٣)
وسرعان ما ائتلف أحدهم « جلوسا » Gulussa وانتظم في
صفوف روما وجدّ في تحقيق مطمحها ، وأظهر نشاطاً
محموداً في قتال « فامياس » ، ولكن سيديو استمال هذا إليه
وأغراه وحبب إليه الخيانة فاستخفته الوعود وحولت
اتجاهه فاذا هو من سواعد الرومان المقتولة ، وأشدها
انتصارا لسياستهم وحماسا لتنفيذ خططهم . . !

ولم يتغير موقف الرومان بهذه الخيانة ، فاستبدلوا
قنصلهم وتولى القيادة: بيزو Piso ومانسينوس Mancinus
ولكن كفة الشعب المستميت المتفاني ما زالت راجحة ،

وصيحة الدعوة لهدمه تعلو على غير جدوى ، ونشاطه
يتناسب في ازدياده تناسبا طرديا مع إخفاق الرومان
واضمحلال جهودهم . . وقد امتنع هذا الشعب المحصور
في دياره على الرومان الذين يتسلطون على أوسع
امبراطورية شهدها التاريخ القديم كله ، وقد لبث يهتف
بالنجدة فلا يظفر بها ويلتمس العون فلا يعرف السبيل
إليه . لأنه ضعيف ، والضعيف لا تتعاون معه الشعوب
رحمة به أو إشفاقا عليه ، وإنما تتجنب الاقتراب منه وتتنق
الاتصال به ، وقد تنفى عطفها عليه إن كان بينها وبينه
صلات رحم أو وشائج مودة ، وإذا خطر لها التضامن معه
والانتصار لقضيته كان ذلك حرصا على مصلحتها أو خوفا
على كيانه لا . . بل إن أعداء روما الذين كانوا يرون
لقرطاجنه النصر ، أو يخافون على مصيرهم بعد سقوطها لم
يجرأ واحد منهم على الائتلاف معها يوم هبّ الرومان
لحصارها ، وأطلقوا نذير الموت في أهلها - ذلك لأنهم
كانوا مطمئنين إلى ضعفها وخورها ، موقنين بسوء مصيرها ،
ورغم أنها صمدت للدفاع وجازت الامتحان وأثبتت
قدرتها على الكفاح فان القوم ما زالوا في حيرت من أمرها



« ماسينيسا » ملك التوميديين
 مسجى على فراشه وهو على أهبة
 الموت ؛ وقد جلس على كسب منه
 صديقه « سيبو » الذى عهد اليه
 الملك بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة..

يخشون التضامن معها والانتصار لقضيتها . فأرسلت رسلاً
إلى ابني ماسينيسا اللذين التزما العزلة بعد مات أبيهما ،
وكانا يُظهرا للرومان المودة في حياتهما ، والاستعداد
لنصرتهم . وأقبلت رسلاً على المغاربة المستقلين تنذرهم بالشـر
الذي يُستَظر أن يحقق بهم على أيدي الرومان إن سقطت
قرطاجته وخلا الجر لطغيانهم . واتصلت كذلك بالمقدونيين
الذين كانوا في حرب مع روما . فكان نصيب هذه المساعي
كلها إعراضاً لا جدلاً .

وساءت العلاقات بين هسدر وبال وقائد يحمل اسمه
ويتولى الدفاع داخل الأسوار ، فاتهمه بالخيانة وأيد التهمة
اتصاله بالخائن « جلوساً » فذهل الرجل لهذا الاتهام حتى
وهن نشاطه واضمحل حماسه وضعف إقباله على القتال
وخف حرصه على الدفاع ، فاستدعاه مجلس الشيوخ
ورجمه الأعضاء في قاعته بالمقاعد حتى لفظ نفسه
الآخر . . . !

أما في روما فقد كان الأهليون يتوقعون لقرطاجته
انهياراً سريعاً وتحطيماً عاجلاً ، فلما صمدت للدفاع وأقامت
على احتماله وأذاقت محاصريها الويل المرّ ، وكبدتهم

الخسائر الفادحة ، أدرك روما الضيق والجزع ، فاتجهت
أنظار الناس فيها إلى الرجل الذى توج بالنصر الحاسم
ماضيه ، ووضع حد الحروب هانيبال الجبار .. إلى « سيديو »
الذى انعقدت عليه الآمال فى تدمير قرطاجنه ومواراة
أهلها التراب .

فضى سيديو ليرشح نفسه لمنصب يتولى فيه الإشراف
على التجارة والمالية والشوارع والمباني والألعاب فى
مكتب البلدية Office of Aedile وهو يتوقع لمقدمه نتأجه ،
فالتف حوله الشعب وأحاطه بثقته وهتف له ونادى به قنصلا
على روما ، يتولى أمرها ويقود جيشها ويأخذ مكان أحد
القنصلين وكان عقد خدمته لا يزال ممتد الأجل ، فأعلن
القنصل احتجاجه على امتهان كرامته وحيدة الأمة عن احترام
القانون والحرص على حرمة .. وكان مما يقوى موقفه
فى احتجاجه صغر سيديو الذى لم يتخط السابعة والثلاثين
من عمره ، والقانون لا يجير انتخابه . ولكن الشعب قد ألح
فى مطلبه ولج فى دعوته واشتط فى ثورته ، وكان الانتخاب
حقاً من حقوقه يمنحه من يشاء ويمنعه عمن يريد .
وتضامن الحكام معه فهددوا القنصل المحتج بايقافه إذا

أصر على منصبه ولم يخل الطريق لرجل الساعة . فأذعن
القنصل وتخلّى عن مركزه كارهاً ..

واستهل « سيبيو » حياته الجديدة بأنقاذ مانسينوس
من خطر تردى فيه . ثم قاد فيلقاً ومضى به إلى ناحية
يعلوها الوهن في سور قرطاجنه . وحمل عليها حتى تيسر
له أن يتسلل منها إلى داخل المدينة . ولكن الشعب قد
أقبل يترى للقاءه ، وتكدست جموعه في وجهه وصمدت
لمقاومته ، وتفانت في الدفاع حتى امتنع عليه التقدم ،
وخشى على نفسه التقهقر ، فأرسل في طلب زميله « بيزو »
ليمده بالعون ويشد أزره ، ولكنه لبث في مكانه لا يريم
حتى بلغ سيبيو وهو في « يوتيكا » رسالة من « مانسينوس »
يطلب نجده ، فخف إليه وأمنه من خوف وقواه بعد
ضعف .. ولكن اليأس قد عاد فاكثف القنصلين وخيم
الضيق عليهما ، فارتدا إلى روما حسيري القلب مهيضى
الجناح مطأطي الرأس ، وأدرك سيبيو علة الهزيمة التي
حطت عليه ولبثت في صحبته على كره منه ، فتبين وجوه
الفساد الذى لحق بالامة في عصر التراخي والأهمال الذى
تولاه أسلافه ، فأقام نفسه للعمل على إصلاحه وبعث

النظام في صفوف جيشه ، وتطهيره من الكسالى والنفعيين
الذين لا يدخلون المعركة إلا أَمْلاً في الغنيمة ، ورغبة
في السلب وانتظاراً للنهب .

واطمأن بعد هذا الإصلاح إلى جيشه ، ودخلته
الثقة بنفسه ، ومضى إلى المدينة يعالج حصارها ويقتحم
أسوارها ، واعتزم أن يهاجمها من ناحية حي « مجارا » الذي
تقيم فيه الطبقة الثرية المترفة ، لعله يقوى على تدمير العز
الوارف بعد أن امتنعت عليه أحياء العامة وطغام المواطنين ،
ولكن السور كان من الرصانة بحيث صد حملته ، وخيب
أمله وردّ رجاءه . . وكان يشرف على التحصين برج
لبعض المساكن أقيم على غير حكمة فاحتله العدو وتسلسل
البعض منه إلى السور وانطلق إلى حي « مجارا »
(الصورة ص ٢٣٩) وطار إلى إحدى البوابات وعالجها
فانفتحت وهروا إليها سيبيو على رأس قوة من
أربعة آلاف مقاتل حتى استقر بالمدينة . وثبتت
على أرضها قدمه ، وخفق قلبه بغبطة يمازجها القلق ،
فقد كان الحي لا يصلح للحركات الحربية لما انتشر في
أرضه من شجر وضرب في آفاقه من مجارى الماء . ولكن

الجيش الذى كان يحمى دمار المدينة خارج أسوارها قد
انخلع قلبه لهذا الأمر ، وداخله الوهم بأن الوطن قد طار
من يده ، وأن العدو قد ملك أمره وأصاب رجاءه ، فهجر
معسكره وتقهقر إلى «بيرزا» Byrsa أو أعلى المدينة Upper
City فاستاء هسدروبال وملاً الغيظ شعاب نفسه ، وطار
إلى الأسرى الذين استقروا فى السجون وأعد لهم مذبحاً من
أفطع ما روى التاريخ من مذابح ، وحملهم إلى قمة السور
واستحل دمهم فتولاهم بعذابه وصب عليهم انتقامه المزد
وغيظه المستعر حتى إذا أحس التعب فى تعذيبهم ألقى بهم
أحياء من أعلا السور ، فهووا إلى الأرض واستقروا
على سطحها بعد أن شجت الرؤوس وتحطمت الأجسام
وسالت الدماء وزهقت الأرواح وانقطع الأنين ...
أما أهل المدينة فقد زایلهم بعد هذا أملهم فى عطف العدو
عليهم أو إشفاقه بهم ، ولبث حبهم للحياة يطوف برءوسهم
ويستثير الدفين من حماسهم ، ويمدهم بألوان العجب
فى نضالهم .

فأما «سيديو» فقد انطلق إلى المعسكر الذى هجره
أهله حين فجأهم الروع وأشعل النار فيه ، وتهياً له بذلك



وليث الرومان يعالجون السور
حتى انكطم أحد جوانبه فتسللوا
منه الى داخل المدينة . . .

أن يستولى على عنق شبه الجزيرة التي تربض المدينة على أرضها، فيمنع عنها المدد ويحرمها الغذاء الذي يفد عليها من ناحية البر، فأما ما تصيبه عن طريق البحر فالرجاء فيه ضعيف، وأمره أهون من أن يقلق البال ويبلبل الخاطر ثم هياً « سيدي » نفسه لضرب الميناء، فبنى سوراً ضخماً عبر الفم، فتوهم الشعب أول الأمر إخفاقه حين بدت له ضخامة السور وعظم ميناءه، ولكن الجيش كان منشغلاً به منصرفاً إلى إتمامه، مواصلاً ليله بنهاره في العمل على إنجازهِ فانتصبت قامة السور في غير توان أو تباطؤ— مما روع الأمة وأقلق بالها، يئد أنه لم يززع رجاءها في المستقبل، ولم يضعف أملها في النصر، بل شد أزرها واستثار حماسها، وأجج نارها وأطلق لرسم الخطط فكرها وللعمل يدها وللبدل جهدها وللمقاومة حماسها حتى إذا كان الرومان جادين في حصارها مطمئنين إلى انكماشهما بعد أن أدموا بالطعنات قلبها، وأحرقوا أسطولها وذروه رماداً على مرأى من أهلها، إذ بأسطول جديد يأتلف من خمسين بارجة يطلع عليهم وقد ركب الماء في قناة تمتد من الميناء إلى البحر لم تكن موجودة من قبل... متى

حفرت القناة...؟ متى أقيم هذا الأسطول...؟! حقيقة
إن صوت المطارق كان يدوى في آذان الرومان من غير
انقطاع ، ولكنهم أهملوا التفكير فيه ولم يقلقوا عندما
صافح أسماهم ، لأن وجود أسطول في يد الشعب لا ينفعه
ولا يوسع له في رحاب الأمل مادام البحر في حوزة
الرومان...!

ثم قام القرطاجنيون في سفنهم بحركات عسكرية
وهم في بهجة بالغة وغبطة مفرطة ، وعادوا أدراجهم مقتنعين
بأقلاق العدو وتشتيت الاطمئنان من رأسه ، ولو هاجموه
وسارعوا إلى الاشتباك معه لربما كان من المحتمل أن
يفقأوا عينه ويشجوا رأسه ويصيخوا بالعطب بعض مناحي
جسمه - ولو إلى حين - فان أسطوله كان يكاد أن يكون
مهملاً لا ترعاه عين ولا يلحظه حارس . ولكنهم أساءوا
استقبال هذه الفرصة التي عرضت لهم وفوتوها فمرت بهم
وكأنها آلت على نفسها ألا تعود إليهم...!

ثم تأهب الرومان لهذا الخطر الداهم ، ونازلوا العدو
بعد يومين وصارعوا بأسطولهم أسطوله ، ولكن الحرب
كانت بينهما سجالا .. فعادوا إليها في اليوم الثاني ، واتجه

الرومان إلى الأسوار من ناحية البحر وأعدوا لها مناجيتهم،
أملوا في أن تندك أمامها وتخر طللاً دارساً، وأمطروها
بوابل من ضرباتهم فهدمت جناحاً كبيراً منها... بيد أن
القرطاجنيين قد اندفعوا إلى المستنقع عراياً يحملون
المشاعل المطفأة، وخاض البعض حيث تيسر له الخوض
وسبح الغير حيث علا الماء فوق قامتهم حتى إذا بلغوا
الأرض أوقدوا مشاعلهم وهاجموا مباني الحصار،
وأشعلوا النار فيها واستماتوا في الدفاع عزلاً من كل سلاح إلا
مما يعمر قلوبهم من إيمان بالحياة، واحتملوا البأساء راضين،
وكلهارأوا الموت يطيح برءوسهم، ويعدو بين صفوفهم كبر
حجمهم للدنيا فتفانوا في القتال وقويت آمالهم، وتيقظ حماسهم
حتى استظلوا براية النصر وردوا العدو خاسئاً وهو حسير..
فأما سيديو فقد أمر بذبح الفارين من جحيم الموت
وهو في شدة الروع وهول الجزع...! وأخذ العجب
لهذه الأمة التي كانت إلى الأمس القريب تخضع للذل
وتستجيب للهوان عن رضا وطواعية. وحق له أن يعجب
في إصراف، فإن هذا الشعب نفسه هو الذي سلم بالأمس
القريب سلاحه، وأرسل رسله إلى العدو تطلب الرحمة

وتلتمس الغفران ، وتعلن استعداد الشعب لقبول ما يفرضه
العدو من مطالب بالغاً ما بلغ الهوان بها . . . !! وها هو ذا
اليوم يقاتل أعزل من كل سلاح ولكنه موفور القوة مملوء
بالتضحية لا يتوانى في الدفاع ولا يتسدد في قتال الأعداء . .
فيصمد لهم على قلة عدده وحاجته إلى السلاح ، ووفرة
قوتهم وعظمة سلطانهم . . فما سر هذا إذن . . ؟ ؟ ؟

أمة تقي

وتتوارى من التاريخ

منع الزاد عن قرطاجنه — الشعب يعتلى البيوت ويواصل القتال —
الاستيلاء على المدينة بيتاً بيتاً — إحراق المدينة — يلتمس بعضهم
الغفران — ه... ه... يتحصنون في المعبد — يقومون باحراقه
وهم فيه خلاصاً من الذل — « هسدروبال » جاث على ركبته
يستغفر القائد الظافر — زوجته تصب عليه لعناتها وتقتل
طفليها وتنتحر نجاة من ذل الرومان... مصير قرطاجنه...

فلما أقبل الشتاء اتجه بجنده إلى الأقليم الذي تستمد
منه قرطاجنه الزاد وما تحتاج ، وبسط عليه طيلسانه ، ونشر
في جنبااته سلطانه ، وقطع عن البلد الزاد ، وسلط عليه
الجوع ، وأطلقه يتمشى في شوارعه وينبث في بيوته ،
ويمتد إلى بطون أهله في أمسّ الأوقات حاجة لاطمئنان
البطن ..

ثم مال « سيبيو » بعد هذا إلى أعلى المدينة ليغزوها.
ومضى إلى ميناء السفن الحربية ، وبدأ بالثانية وكانت
مقاومة الأئمة قد أدركها العطب وأصاب الانحلال
جهودها ، فاخترقها ومضى منها إلى السوق المجاورة حتى
إذا بلغ معبد « أيولو » بما توفر له من كنوز ثمينة أطلق
فيه الجنود أيديهم بالنهب والسلب حتى قيل إنهم انتزعوا
من التمثال والمعبد نحو ألف وزنة من الذهب ، ثم تقدم
عن طريق السوق الذي أسلفنا الإشارة إليها فاذا
ثلاثة شوارع تواجهه وينتهى به كل منها إلى أعلى المدينة.

وكانت البيوت في هذه الطرق الثلاث ترتفع في الجو
ست طبقات ، فاحتلها الشعب ثم أطلق منها ضرباته ووالى
الدفاع في غير انقطاع ، ولكن المقاومة حين تفرقت في
البيوت وتوزعت من غير قائد يتولاها ، ويشرف على
تنظيمها ويحكم خططها ويرسم سبلها ، قد هان خطبها وتيسر
للعُدو لقاءها واحتمال بأسها ، وتراءى له أن يستولى على
المدينة بيتاً بيتاً . . ! وأصبح القتال بين جموع تبلغ الآلاف
عداً ، وبعض الأسر التي لاذت ببيوتها وهاجت في غرفها

على غير انتظام . فتقدمت الجند شاكية السلاح موفورة
الحماس يعمر قلبها بخار النصر ، واستولت على الشوارع
الثلاثة بيتاً بيتاً . . !

ولكن القتال لبث قائماً يتأجج ناراً في شتى الطرق
الأخرى في المدينة ، والناس يخرجون على الأرض
صرعى ، وتهوى جثثهم مشخنة بالجروح ملطخة بالدماء
حتى رفرف علم الرومان على جنبات أعلى المدينة . ولكن
الراية لم تحقق حتى كانت النار تهول في المدينة وتعدو
في شوارعها ، وتجري في بيوتها بأمر القائد الظافر . . !
اندلع الحريق في البيوت وكان قد لاذ بها النساء والأطفال
والعجزة والمرضى ممن لا يقوون على حمل السلاح ومواجهة
العدو ، واستقر هؤلاء جميعاً في دورهم حتى يقضى الله
أمرهم كان مفعولاً . ! وها هي الآن تحترق ويستحيل من
بها وما فيها رماداً . ! وسابق الهلع النار في عدوها
ووثبها ، فألقى البعض بنفسه من النوافذ فلما هوى إلى
الأرض تلقتة سيوف العدو وغابت في جسمه المحطم . !
ولبث البعض في مكانه حتى أقبل عليه الدخان فخنقه ، وسارع

إليه اللهب فخرقه ، وأحاله قطعة من فحم هش غدت جوع
النار وأطالت بقاءها ومدت حياتها . ! وتهدمت البيوت
على البعض فدفت جثثهم واستلت أنفاسهم ، وتركت البعض
يعانى ثقل الأطلال التى هوت عليه ، وحطمت بعض
أعضائه ، وخلفته لا يملك الآنين ولا يقوى على
التأوه ... !

سبعة عشر يوماً لبلى إليها تولت النيران فيها الأجهزة
على الأطفال والمرضى والشيخوخ والعجزة وربات الخدور
من ضلت سيوف الرومان سبيلها إليهم . . ! وقام اللهب
بتدمير المدينة وهدم دورها ، وتهيئتها للبوم ينق على
أطلالها ، وللخراب يستقر على أرضها . . !

أما « سيبو » فقد كان يواصل العمل من غير
انقطاع ، فيختلس اللحظات القصار ليسترى فيها ، وكان
النوم لا يقبل عليه حتى يفارقه رغم حاجته الماسة إليه . .
والفرص التى ضنت عليه بالنوم قد بخلت عليه بلحظة
يأخذ فيها حاجته للزاد . . !

وفى اليوم الثامن عشر أقبلت عليه الوفود ترى

من معبد Aesculapius إله فن الطب تستغفره
وتلتمس عنده العفو عمن بقي من أهل المدينة،
وتتوسل إليه أن يرحمهم فيؤمنهم من خوف ويشبعهم
من جوع. كانوا يدافعون هذا الدفاع المجيد حرصاً على
الحياة العزيزة، والآن أيقنوا أن الاستمرار في الدفاع لن
ينقذهم من الهلاك الزاحف عليهم من غير توان ولا اتئاد،
فلا بأس من إيقاف الدفاع والمصارعة إلى التسليم واستجداء
الرحمة من القوى الظافر، فإن أدت هذه الطريقة إلى البقاء
فهذا أعز ما يشتهون وإن أخفقت عند من بيده الأمر
فلن يصيبهم أكثر مما كان ينتظرهم لو أقاموا على الدفاع
وصمدوا في كفاح العدو حتى المات . . ولكن
القائد الظافر قد قبل ضراعتهم. ونشر عليهم جناح رحمته
وكانوا خمسة آلاف امرأة ورجل، بيد أنه قد ضن
بعفوه على الهاريين والفارين، واعتزم أن تصلاهم ناره
ويأخذهم عذابه. فلاذوا بالمعبد وتواروا فيه وكان بينهم
تسعائة روماني و « هسدر وبال » وزوجته وطفلاهما،
فما استقر بهم المكان حتى ضعف رجائهم واضمحل
أملهم ودنت ساعته، وباتوا ينتظرون نفخة الصور

وبداية الحساب العسير — وإن كان المعبد منيعاً يقوى على
حمايتهم من ضربات العدو فلن يقوى على حمايتهم من أهوال
الجوع .. ! فملاً القلق الرءوس ، وساور اليأس النفوس
وامتد الحرص على الحياة إلى هسدروبال — قائد قرطاجنه
الأكبر — فحاول الهرب من رفاقه ، وألقى بنفسه فاذا
هو جاثٍ على ركبتيه يلتمس العفو عند قدمي « سيديو » !

وقبل القائد الظافر ضراعتة ، وسار به يعرضه على
أنظار الفارّين الذين تكدست جموعهم وتزاحمت أفواجهم
فوق سطح المعبد .. فصبوا على الخائن لعناتهم وحصبوه
بسخطهم . ووثب إلى نفوسهم عزم مبعثه اليأس ومصدره
انقطاع الرجاء ، فأوقدوا في المعبد ناراً ، وآثروها على
الضراعة للقائد الظافر . وقبول الذلة والهوان حرصاً على
الحياة ... وبدا المعبد وكأنه سرادق من نار ، فتقدمت
زوجة « هسدروبال » وقدارتدت أخفر ما لديها من ثياب ،
وتحملت بأجمل ما تملك من أدوات الزينة ووضعت طفلها
إلى جانبها والتفتت إلى « سيديو » وقالت له في مرارة اليأس
وسورة الغضب وحنون الجزع :

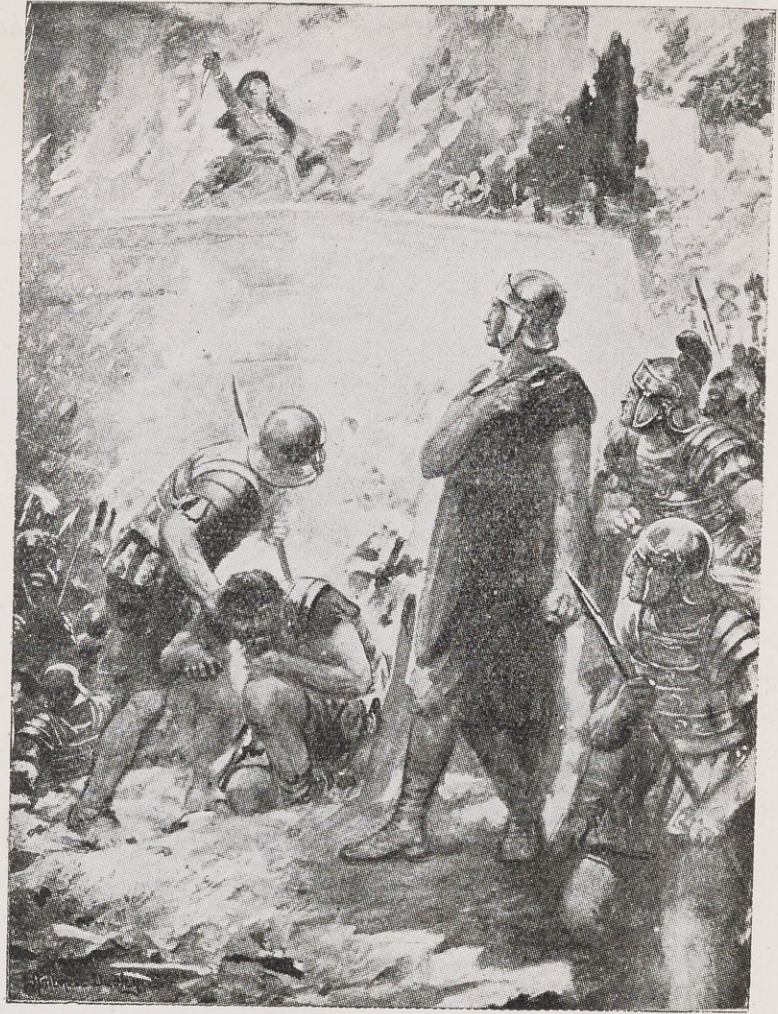
أما أنت يا بطل روما ونخر رجالها فلا أطلب إلى
السماء أن تنزل نقمتها بك ، لأنك لم تفعل إلا ما اقتضته
نواميس الحرب وسنن النزاع إذا اشتد واستعر ، أما
هذا الهسدروبال ، هذا الخائن لوطنه وآلته وزوجه وولده ،
فاني أضرع إلى السماء ، أو إليك باعتبارك رسولا لها
أن تنزل به شر عذاب وأصرم عقاب . !!

ثم التفتت إلى زوجها وهي تصر أسنانها وقالت له
والغيظ يطل من عينيها :

أبرها الرنى ، اظأه الجبانة ، أأستقبل أنا مع طفلي الموت
بين ثنايا اللهب ، وتتمخض النار الحامية مقبرة لنا ، وأنت —
قائد فرطاجنة العظيم — تتوعد انتصار العدو بخيانتك ، وتكفل
ظفره بهوانك ومنزلتك ، ا

ثم غابت الخنجر في جسم كل من طفليها وقذفت
بجثتيهما إلى اللهب المندلع . . . وفعلت بنفسها ما فعلته
بهما . . . وراحوا طعاماً للنار . ، (الصورة ص ٢٥١)

وبهذا سقطت الامبراطورية الأفريقية بعد سبعة قرون
حافلة بالمجد عامرة بالروعة والجلال — فما صاغت عين



« هسدروبال » جاث على ركبتيه يلمس الغفران
 من « سيبو » وزوجته على سطح المعبد مع
 طائفة من الشعب الذي آثر الانتحار على ذل الرومان
 وهي تصب على زوجها اللعنات ، ثم تقطن بالخنجر طفلها
 وتلقى بهما الى النار . وتفعل ما فعلته بولديها . . . ! !

القائد المنتصر منظر اللهب ، وشهد الأطلال التي خلفها ،
والنفوس التي أزهقها ، والأجسام التي أتي عليها ، والمتاع
الذي طاح به ، والماضي الذي حاول وأده ، والعز الذي
عالج دفنه حتى دبّت الحسرة إلى نفسه ، وغالب الدمع
عينه ، فجرى على خده وقد ذكر القدر الذي يبرم في الممالك
أمره ، ويجرى على الدول حكمه ، فيعز امبراطورية ويذل
أخرى ، وهاله الأمر واشتد به الجزع حين طافت روما
برأسه وتوقع لشمسها المغيب ، وإن طال شروقها ، وامتد
إلى الأفق البعيد نورها . فراح يناجي نفسه بما أجراه
« هوميرو » Homer على لسان هكتور Hector حين تنبأ
لطرودة بالزوال .

ثم عاد « سيبيو » بعد هذه المأساة العنيفة إلى وطنه ،
وهب الشعب كله لاستقباله والاحتفاء به ، وأقام له
موكباً رائعاً تقدمته الموسيقى وسارت في ركبه عجلات
تحمل الأسلاب والغنائم ، وطائفة من أهل قرطاجنه
الذين منعهم الحرص على الحياة من إثارة النار على ذل
الرومان ، يسرون في الموكب وقد نكسوا رؤوسهم حياء
وندماً ، ويلي هؤلاء البطل الضافر يصطحب عبداً يهمس



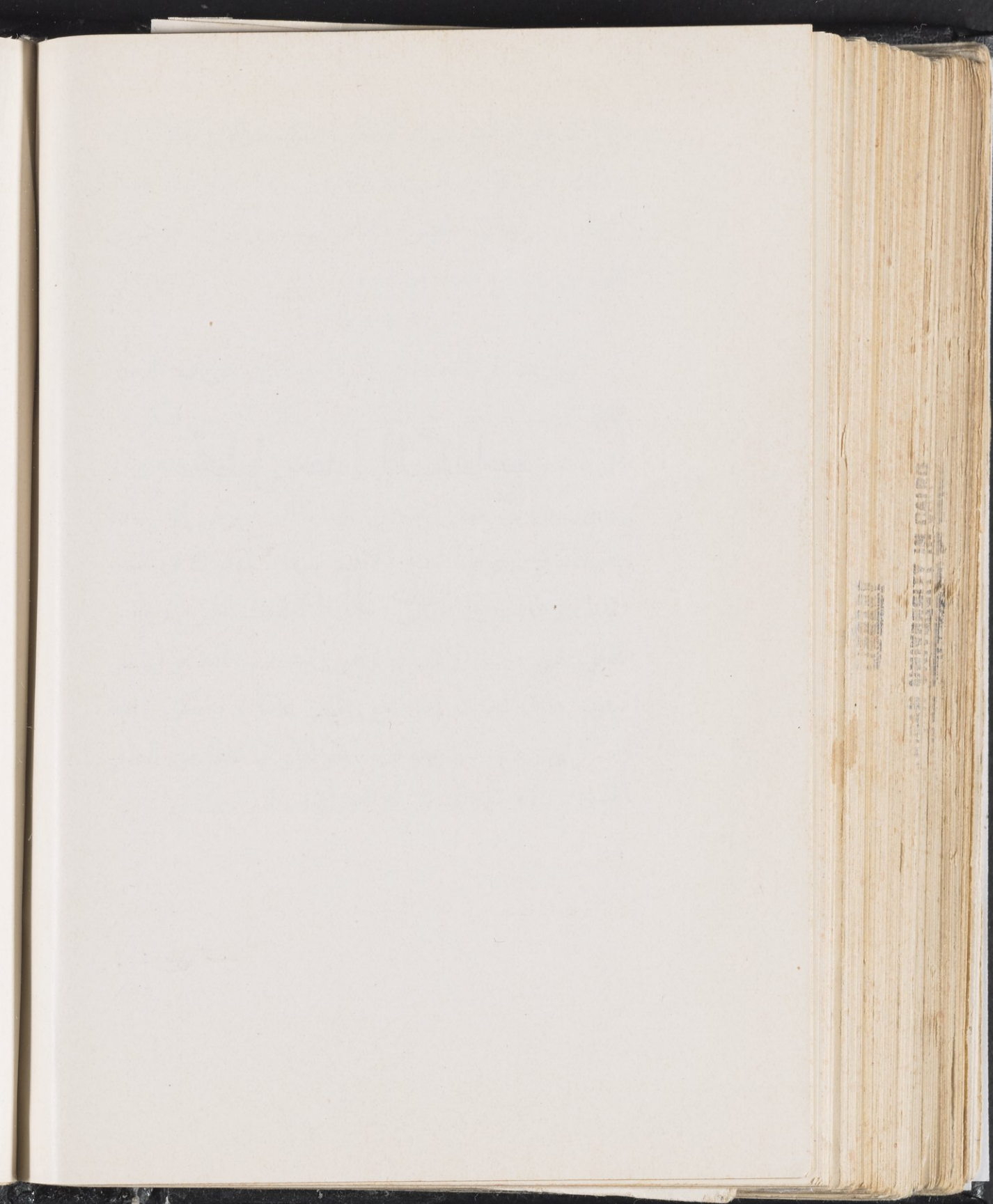
« سيبو » بعد
أن واری قرطاجنه
وأهلها التراب ..

في أذنه طوال الطريق : « تذكر أنك لست إلا رجلاً ! .. »
وذلك حتى لا يداخله الغرور ! .. ووراء أعضاء
المجلس ورجال الجيش الظافر يسكرون مزهوين
نفخورين . . . (الصورة ص ٢٥٣)

توارت قرطاجنه من الدنيا ، ونعقت غربان الدمار
فوق أرضها ، تعلن خرابها وتنذر بالشر كل من فكر في
أمرها . وتقدم « جرا كوس الصغير » The Younger
Gracchus بعد مضي عشرين عاماً باقتراح يرمى إلى إعادة
بنائها لتكون موطناً لستة آلاف نسمة . فتحرك في القبر
اسمها ، وطافت بالأرض ذكراها . تبعث الجزع وتنشر
القلق حتى مات الاقتراح وهو وليد . . فجدد يوليوس
قيصر هذا المطلب بعد نحو ثمانين عاماً ، ولكن رهبة
الذكري ردت حليماً يطوف بالخواطر في غفلة من العقل
المدير . . وسبحان من له الدوام ! ..

تحليل هذا الكفاح

رده إلى الله



تحليل هذا الكفاح

رده إلى الله

سيرة النهوض حافلة بأمم شاخت بعد شباب قتيّ تهيأ لها ، زاخرة بدول عاودها الصبا بعد شيخوخة مضيئة واحتضار قريب ! . فكيف أدرك الشباب شعوباً كان يُعوزها ماء الحياة .. ؟ وكيف لحقت الشيخوخة دولا كانت تهتز من فرط القوة ووفرة الصبا . ؟ كيف استحال قرطاجنه الرهيبة إلى ذكري يحكيها التاريخ ، وقد كانت ملء الأسماع والخواطر والأبصار .. ؟ !

لقد كان حظها في الجهل رحب الأفق ، ونصيبها في البداوة ملهوس الجانب . فهل كان هذا مبعث اندحارها ومصدر عجزها عن صون كيانها .. ؟

إن تاريخ الإنسانية يقول إن اضمحلال الأمم
لا يتناسب تناسباً طردياً مع الجهل والبداءة ، عكسياً
مع العلم والحضارة .. وهالك روما أوسع إمبراطورية
عرفتها الدنيا بأسرها في العصور القديمة ، يقول عنها علماء
الاجتماع : قد تهيأ لها إبان شيخوختها من بسطة في العلم
ووفرة في المدنية وعلو في مستوى المعيشة ، ما لم يتهيأ لها
في فتوة شبابها ومقتبل حياتها . فقد كان فيها يوم اضمحل
عزها ومالت للمغيب شمسها : مئات الكتاب المجيدين
والخطباء المفوهين والمتفنين المهرة وغيرهم ممن لم يتوفروا
لها يوم كانت تنشر طيلسانها في مشارق الأرض ومغاربها ،
وتكتب الحياة أو توجب الفناء على ما شاءت من أمم
الأرض وشعوبها .. ! ولم تستطع بهذا الغنى العقلي الذي
تهيأ لها أن تدفع عن نفسها غارة البرابرة من قبائل
الكلت والجرمان والهون والوندال وغيرهم ممن أصابوا
من الجهل أوفر حظ ومن البداءة أعظم نصيب . ! ولم تكن
مأساة سقوطها فذة في التاريخ ، فقد تكررت المأساة —
مأساة العلم — في العصور الوسطى . إذ تمكن العرب
من أن يفتحوا جناحاً فسيحاً من الدنيا ويقوّضوا

الدولتين : البوزنطية والفارسية ، ويشيدوا دولة من
أضخم الدول التي مرت بالتاريخ ، وهم قبائل من بدو
رُحَّل تمكنت البداوة من نفوسهم وتغلغل الجهل في
عقولهم . ! وعن الفرس والرومان ومن عاش في ظلهم
أخذ العرب الغزاة العلم والحضارة والمدنية . . ! ثم إن
العرب كانوا يوم أفل نجمهم وتوارى عزهم موفوري
الحظ من العلم والحضارة ، فلم يمنع هذا سقوطهم كما لم
يمنعهم الجهل في بدء حياتهم من وثبتهم الجريمة يوم
دحروا الفرس واكتسحوا الرومان . !

بل إن من سوءات المدنية الخصلة أن تلازمها
- في الأغلب والأعم - رغبة في الترف وميل إلى التنعيم ،
وهذا أظهر آيات الشيخوخة عند الشعوب . !
وإذن فلماذا تدب الشيخوخة إلى الدول الفتية ، أو
يعود الشباب إلى الأُمم الهرمة . ؟ أهو فرط الغنى عند
الظافر والعوز عند المغلوب . . ؟

إن البرابرة الذين أغاروا على الدولة الرومانية في
العصر القديم لم يكونوا أوفر منها حظاً في الغنى ، بل كانوا
جوعاً فقراء ، وكانت على حظ كبير من الترف والنعيم . .

كذلك كان العرب — الذين دحروا الفرس والرومان
في العصر الوسيط — جوعاً لا يملكون قوت يومهم ،
وكان المغلوبون على حظ كبير من الثراء ، وحسبك أن تذكر
كسرى وقصوره ، وقارون وماله .. !!

وها هو جنوبي إفريقيا غاص بالذهب ، ولكن الغربيين
يستعمرونه .. وأهل الاقتصاد يقولون إن منطقة «الترنسفال»
تنتج في كل عام $52 \frac{1}{2}$ في المائة من ذهب الدنيا بأسرها ،
وفي وسعك أن تتصور روعة هذا الإنتاج الم هول إذ عرفت
أن الولايات المتحدة — أعظم دول الأرض المتمدينة
إنتاجاً للذهب — لا تنتج أكثر من ١٣ في المائة كل
عام ..! ويقولون إن منطقة كبرلي أنتجت من الماس
نحو خمسة وخمسين ومائتي مليون من الجنيهات في أقل من
نصف قرن ..!! يئد أن هذا الرخاء لم يمنع الغرب
الجائع من استعمارها ، وفرض الذل على أهلها .. بل لماذا
نذهب بعيداً وأمامنا قرطاجنه ، كانت بلداً مثيراً يجرى
الذهب في أيدي أهله ، وكانت روما تنقصه ثراء ولكنها
تمكنت من أن تواريه التراب .. !

وإذن فما مبعث الاضمحلال وما سر النهوض إن لم
تكن وفرة الغنى أو بسطة العلم وازدهار الحضارة . . ؟
هو الخلق — فيما أعلم ويعلم جمهرة علماء الاجتماع —
يقول « جوستاف لوبون » « سقط الرومان لأنهم أضاعوا
المثابرة والعزيمة والجلد الذى لا يعرف الوهن ، وفقدوا
القدرة على التفانى فى نصره المطلب واحترام القوانين إلى
حد التقديس ، وتلك هى الصفات التى كانت سبباً فى
عظمة آبائهم الأولين »

ويقول مثل هذا فى الدول الفارسية والبوزنطية والعربية
وشتى الأمم التى أشرق نجمها وانتشر فى مناحى الأرض
سلطانها ، ثم اضمحل مجدها وانكمش ظلها وأدركها الفناء . .
ويقول : إذا تتبعنا الدول الساقطة والظافرة واحدة بعد
أخرى سلمنا بأن هذا هو ما يحكيه تاريخ الشعوب منذ
 فجر بداوتها حتى نهاية حضارتها ، وما يرويه عن انحدارها
من شاق قوتها حتى حضيض ضعفها .

وستعرف الآن أن « لوبون » وشيعته قد أنصفوا
حين ردوا نهضات الشعوب وانحلال الأمم إلى « الخلق »
وإن اكتفوا بذكر مظاهره دون أن يحاولوا تحديد قاعه

مما أدى إلى الالتباس في تطبيق القاعدة على قرطاجنه
ولا بأس الآن من أن نبدأ بتطبيق هذه القاعدة،
أكان ضعف الخلق في قرطاجنه مصدر اندحارها
وسر تلاشيها . . ؟ ؟

سنلخص لك آراء الكتاب الذين يملأهم الإعجاب
بها والرضا عنها والثناء على نضالها، ويرونها المثل الأعلى
لكفاح الشعوب التي تؤثر الموت تحت راية الجهاد على
العيش في ظلال الهوان، حتى إذا فرغنا من تلخيص آرائهم،
أخذنا في نقضها والكشف عن مواطن الضعف فيها .
فإليك ما يقوله هؤلاء المعجبون : يقولون إن هذا شعب
لا يملك من أدوات القتال كثيرا ولا قليلا . . اغتصبت
منه سهامه ومزاريقه وقسيه وخناجره وسيوفه وحرابه
ودروعه، وأحرق أسطوله على كره منه، وفرت ممتلكاته
الواسعة من يده . . . ضاعت إيطاليا — وفرت أسبانيا —
وأفلتت منه صقلية — وتلاشت ممتلكاته في شمال إفريقيا —
ولم يبق له إلا أرض وطنه الضيقة يحاصرها عدو ظافر
قوى باغ، يملئ إرادته يمنة ويسرة، ويهتف فاذا القدر في
ركابه، يلي ندائه ويستجيب لمطلبه . فكافح هذا الشعب

الضعيف الأعزل كفاح الأبطال حتى فنى عن آخره .
فأين انحلال الخلق في موقفه . . ؟؟ ماذا كان يضيره —
لو كان يرجو الحياة أياً كان لونها — لو قبل مطلب عدوه
فشدّ رحاله إلى الصحراء ، وأقام فيها وعاش في آفاقها .. !
أو ليس شعباً تجارياً أخص مميزات اجتناب للاستقرار
وميل للارتحال ، ورغبة في التنقل المستمر الذى يتطلبه
السوق أينما كان . . ؟ فماذا عليه لو قبل مشورة عدوه
وبارح وطنه ، ولو كان في هذا جور على شعوره وعدوان
على حقوقه . . ؟ !

ثم ما حيلة الضعيف الكسيح الرجاء المنحل الأمل ،
أمام القوى الجبار الذى لا يلين ولا يرحم . . ؟
ومع هذا فقد انفجر الشعب كله فاذا هو بركان يستعر ،
لم يغذه خطيب ، ولم يقده زعيم ، ولم تكن مقاومته صدى
لحماس قائد أو خيال حاكم أو خداع مخاتل . . وإنما كانت
ثورته صدى لأحاساسه ، ومقاومته تتفجر من ذاته ،
وفورة دمه تنبع من قلبه . فكافح وقاتل حتى استشهد وهو
شعب تجارى لم يشغل بالحرب نفسه . . فماذا تكون آيات
الخلق الرصين إن لم تكن هذه آياته . . ؟ !

ثم إن الكفاح بين هذا الشعب الأعزل ، والعدو
الذى لا يجد فى الدنيا بأسرها منافساً له إذ ذاك ، قد استمر
ثلاث سنوات طوال صمد فيها لأهوال القتال ، واستمات
فى الدفاع عن كرامته ، وتفانى فى تحقيق مطلبه ، وصبر
على مرارة الكفاح هذا الزمن الطويل ، ولبث يوجد
بالنفوس عن سعة ، لا يهوله مصرع أبنائه المعدودين
بالعشرات والمئات ، ولا يخيفه الموت الزاحف ، ولا
يروعه الهلاك المقبل حتى استولى العدو على البيوب بيتاً
بيتاً ، وقطع رقاب أبنائه وأطلق النار فى أحيائه وبيوته ،
لتأتى على من بقى منه عاجزاً ومريضاً وكهلاً وطفلاً
وامراًة .! والشعب ما زال موفور الأمل يجاهد عن
عزم ويتفانى عن وفاء ويستमित عن إخلاص ويرجو
عن سعة .! فان لم يكن هذا هو الخلق الرصين من «مشاركة
وعزيمة وجلد لا يعرف الوهن وقدرة على التفانى فى
نصرة المطلب» فماذا يكون الخلق إذن .. ؟!

لم يقل الشعب : لقد اعتدى العدو على كرامتنا وهو
قوى مدجج بالسلاح ، ونحن ضعاف عُرل فماذا نصنع ؟
وإنما كانت صيحته التى تغلغلت فى نفسه ورجّت كيانه :

يطلب إلينا العدو أن نفارق وطننا ، فيا لهو! المطلب
ويا لشؤم الجشع .. ارخصى يانفوس وتقدمى يا ضحايا ،
واستشهدى يا قرطاجنه .. ولا تسلى يا شعب عن مصيرك
ولا تستفسر عن مقرك فى هذا الجحيم الذى أوقدته ييدك ،
وقدفت فيه بنفسك مرصاة لكرامتك وغسلا لأهانتك .
وسر إلى حتفك طائعا مختاراً ، فللموت الزوام أهون على
النفوس الأبية من العيش تحت نير العبودية .

وإن الروس لتطيح ، وإن الجثث لتهوى ، وإن
الناس ليستشهدون وليس فيهم من يسائل نفسه عن نهاية
الشعب المحتومة أمام هذا الجيش القوى اللجب بعُدده
وأسلحته وذخائره .. ولماذا السؤال . والانتقام للكرامة
من غير اعتبار لنصر أو هزيمة هو المطلب الأسمى الذى
تتجه إليه النفوس أولاً وآخرأ .. !؟

لا نصر ولا هزيمة ، ولا أمل ولا يأس ولا حياة
ولا موت ولا مقدمة ولا نتيجة .. إنما يملأ الخواطر
كلها شئ واحد لا ثانى له : هو التفانى فى الدفاع انتقاماً
للكرامة ، وليكن بعد ذلك ما يكون .. فاذا لم يكن هذا
هو الخلق الرصين فماذا يكون إذن .. !؟

ثم إن حركة الجهاد قد حملت على جناحها الشعب
بأسره ، فلم يتخلف عن الكفاح إلا صغار الأطفال
وضعاف المرضى والواهنون من الشيوخ ، وكانت الأمة
كلها فرداً واحداً يتفانى ويطلب الموت إذا عز العيش في
ظلال الكرامة ، وامتنعت الحياة في كنف الحرية . . فلا
أغلبية ولا أقلية ، ولا حزبية ولا زعامة . . وحتى النساء
كان حماسهن لنصرة الوطن أشد من حماس الرجال ، ولم
تكن هذه الفورة التي شملت الأمة كلها بنت الساعة أو
عفو الخاطر ، ولو كانت كذلك ما امتدت هذه السنوات
الطوال في حماس يزداد وقدة واشتعالا . . حتى السيدات
والآنسات اللاتي سارعن إلى شعر رءوسهن فقدمنه
أوتاراً للقسي في مستهل الحركة ، قد لزمهن الوفاء والحماس
حتى استشهدت الأمة وتلاشى الوطن ، وإن كان الجزع
قد أدركن عند ما اغتصب العدو أبناءهن وأزواجهن .
وإخوتهن ليكونوا رهينة في يده الأثيمة ، فإن ذلك موقف
يجلّ عن الصبر ، حتى ليعتبر احتمال اتهاماً للشعور وطعناً
في العاطفة . . فاذا لم يكن هذا الائتلاف الشامل لشتى
نواحي الأمة في هذا الطرف الدقيق هذا الزمن الطويل

عنوان الرصانة في أخلاقها فماذا تكون رصانة
الأخلاق إذن ..؟!

يقول هؤلاء المعجبون بحركة الجهاد:
إن هذه الحجج كلها ناطقة بأن هذا الشعب موفور
الخط من رصانة الخلق في شدة مشابرة ، وصلابة عزمه
ودقة إحساسه وقوة جلده ، وحدة تفانيه في نصره
المطلب

وإذن فلماذا دالت دولته وانحلت امبراطوريته إن
صحَّ هذا الدفاع عن كفاحه ..؟! هل أخفق العلماء الذين
أسلفنا الإشارة إليهم في وضع قاعدة لانحلال الشعوب ..؟!
أو أن سقوط قرطاجنه وتلاشيها من الوجود ظاهرة
يبررها الشذوذ ..؟!

لا شذوذ ولا استثناء — فيما نعلم — وإن القاعدة
التي أقامها العلماء لتطبق على قرطاجنه وغيرها على
السواء . فلنمض إلى حجج الذين أعجبهم جهادها لنهدمها
واحدة بعد الأخرى ، حتى إذا أتينا عليها أبنّا عن سر
الاندحار الذي لقيته قرطاجنه ، ليعرف القارئ أن
« لوبون » وشيعته قد اكتفوا بسرد مظاهر الخلق دون

أن يردوها إلى أصولها ، ويعزوها إلى منابعها ، ويفصلوا
بينها وبين ما يشبهها من مظاهر أخرى :

عرفت أن قرطاجنه قد أذنت لعدوها أن يختار من
أهلها ، ثلاثمائة فتي من خيرة أشرافها ، وأن سفنه قد
حملتهم إلى روما أمام الأهل والصحاب والعشيرة وذوى
القربى ليكونوا رهينة فى يد العدو...! فكان الأثر
الذى خلفته هذه الطعنة الدامية لا يتجاوز الحزن ولا
يتعدى التأسى ، ولا يفضى حتى... إلى مظاهرة...!

وعرفت أن « هسدروبال » الذى كان يتولى قيادة
قرطاجنه إلى مواطن النصر وساحات الفخار ، قد قبل
صاغراً فى معاهدته الأخيرة مع « ماسينيسا Masinissa »
أن يمر وجيشه من ورائه أمام معسكر الأعداء عارين
إلا من ثوب واحد يستر عورتهم...! وأن جريمته
لم تكن خطأ فردياً أدى إليه انحلال خلقه ، فأن أمته
قد وقفت من هذه الطعنة الأليمة موقفاً لا هوان بعده
ولا ذلة وراءه ، فقد حكمت — إثر هذا الموقف الذليل —
على قائدها ممثلة فى مجلس شيوخها بالأعدام...! لا لأنه
لطح شرفها وسود تاريخها ، بل إمعاناً فى ترضية روما

وإسرافاً في الزئلفي لأهلها . . ! لعلمهم يغفرون لقرطاجنه
إقدامها على قتال « ماسينيسا » من غير إذن منها . . !!

وعرفت أن الوفد الذليل الذي حمل هذا النبأ إلى
روما قد استقبل هناك استقبالا حافلا بالسخرية المرة ،
وأن الوفود التي أعقبته في استجداء الرحمة وطلب
الغفران وإعلان التوبة ورفع الندم والتبرع بالاستعداد
لقبول الشروط المجحفة بالغاً ما بلغ الهوان بها ، عرفت
أن هذه الوفود المتعاقبة قد أرسلها مجلس الشيوخ القابض
على زمام الأمور في قرطاجنه ، وأنها لقيت في روما
ما تستحقه من سخرية فادحة ، ونالت عند مجلس شيوخها
ما هي جديرة به من صغار واحتقار . . . وقد عرفت أن
هذا الهوان الذي لا هوان بعده لم يكن له صدى ملموس
عند هذا الشعب الذليل . . . !!

وعرفت أن هانيبال كان أعظم قائد عرفته الدنيا
في عصره ، وأنه دؤخ أشد أمم الأرض بأساً وأكبرها
خطراً ، وأنه كوّن لأمته امبراطورية رحبة الآفاق رهيبة
الصيت ، فلما دالت أيامه سعت روما إلى طلبه ، وجدت
في سعيها تلتمس الظفر به لتشفي غليلها منه ، فلم تتحرك

أُمته لنجاته ، ولم تفكر في ردّ روما عن مطلبها الآثم ، بل
كانت على استعداد لتسليمه إليها ، ومعاونتها في الانتقام
منه ...!! وعلمت أن البطل قد أحس بمدى تقديرها له
وحرصها عليه ، فانطلق في فضاء الأرض شريداً طريداً ،
يلتمس النجاة ويتطلع إلى نجدة الأغراب ...!! وأنبأوه
تترامى إلى سمغ قرطاجنه فلا تحرك فيها صوتاً لنصرته ،
ولا لساناً يتولى إثارة الجمهور لحمايته ، حتى أقدم البطل
على الانتحار نجاة مما ينتظره من ذل وهوان على
يد أعدائه ...!!

وعرفت أن قرطاجنه كانت أميرة البحر في عصرها ،
تنشر سيادتها على نطاق رحب فسيح ، وأن روما حين
طالبتها بتسليم أسطولها البالغ نصف ألف بارجة قد
استجابت لها من غير تردد ، وتنازلت عنه من غير جهد ،
وأن روما قد أوثقت بالشاطئ وأحرقته على مرأى من
صحابه ، فلم تُثر في البلد ثائرة الشعب لهذا التحدى الجارح ،
ولم يرتفع بالتبرم القوى صوت المعارضة بين جدران
المجلس ، مع أن حزب المعارضة كان لا يزال صاحب
رأى ، وهو وإن سكت عن إحراق الأسطول وتسليم

القِسىّ والسِّهام والمزاريق ، فقد أعلن استيائه الشديد في
قوة عند ما همّ المجلس بالنظر في تقرير الغرامة .. !!
ففكر بالله في هذه الفضائح كلها ، واستنوح العدالة
واحكم فيما تحمله من دلالات الخلق وآياته ، أين كان
الشعور بالكرامة طوال هذا العهد البغيض .. ؟ إن الجيل
الذى احتمل هذا الصغار صابرا ، وتبرع باحتقار كرامته
مختارا ، هو نفس الجيل الذى تولى الكفاح الأخير ، وصمد
له وأبان عن قدرة وجلد وتفان لا حد له ، فهل من دلالات
الخلق الرصين أن يبدو فى يوم منحللا واهنا وفى يوم قويا
صلدا .. ؟ ! أنخضع الخلق القوى المتماسك للظروف
ويتكيف بالمناسبات أم يتخطاها ويعلو عليها ويعيش فوق
هاماتها .. ؟ أيؤثر صاحب الخلق القوى العيش تحت سماء
الضيم يتنفس الذلة ويغتذى بألوان الهوان على الموت فى
ظلال الشرف حتى تحقق الأخطار بحياته ، فتشير حرصه
على البقاء ، وتسوقه إلى النضال لتقرير مصيره .. ؟ ! كيف
يقال بعد هذا كله إن مردّ هذا الكفاح إلى الخلق الرصين .. ؟ !
إن ما أبدته قرطاجنه من استهتار بالكرامة ،
وامتهان لقداستها ، واستجابة لمطالب عدوها ، لا يبرّره

شعورها بالهزائم المتلاحقة ، بل إن مردّه إلى الضعف
المعنوى والخزّ الروحي . . فلا ينبغي أن يقال إن الشعور
بالأخفاق المير يُنسى الأهم كرامتها ويفقدها الأحاساس
بالاعتزاز والكبرياء ، ويلقى بها إلى الرضا بالذلة والاستجابة
للهموان ، وأن موقف قرطاجنه حيال هانيبال لا يفترق
عن موقف فرنسا مثلاً إزاء نابليون يوم نفاه الحلفاء . .
وفرنسا دولة حية تكبر استقلالها وتعزّز بكرامتها . .

لا ينبغي أن يقال هذا ، فإن فرنسا تخلت عن نصرة
نابليون — بعد أن سقطت باريس في يد الحلفاء — فترة
من الزمان عادت بعدها إلى إجلاله والأعجاب بجهوده
والدفاع عنه ضد جشع أعدائه ، فقد شدت أزره حين عاد
إليها من منفاه في « إلبا » وحاربت في صفه حتى انهزم
في « واترلو » ثم منعت « هديسون لو » من أن يكتب
على قبره : هنا يرقد « الجنرال نابليون » وأصرت على أن
يكتب « الامبراطور نابليون »

ولبت النزاع قائماً حول هذا اللفظ خمسة وعشرين
عاماً ظل فيها المكتوب على القبر « هنا يرقد » حتى نقلت
فرنسا جثة بطلها إلى أرضها بعد ربع قرن من وفاته باحتفال

مهيب رائع ينم عن تقديرها لبطلها ، واعترافها بخدماته ،
ونفخها بتاريخه . فاذا كانت غيبوبة الهزائم تُنسى الأُمم
كرامتها ، فان ذلك أمر لا يطول أمدّه ولا يمتد
أجله كثيراً .

ولو كان رجل كنبليون مكان هسدر وبال حين طلب
إليه أن يمر وجيشه من ورائه على معسكر الأعداء عارين
إلا من ثوب واحد ، لرأيت كيف يرتفع الشرف العسكري
على الحياة ، وكيف تعلو الكرامة على لذاذات الدنيا
بأسرها .

بل إن قادة نابليون قد نفضوا أيدهم من نصرته وأعلنوه
بذلك ، فهمّ بالمضي وحده إلى قتال الأعداء
ليخلص شرفه العسكري من العار لولا أن منعه
أحد مُريديه وطالبه بالتنازل عن العرش في سبيل
فرنسا . أما هذا الجبان « هسدر وبال » فان قاداته وجنوده
الذين لم يستشهدوا بميدان القتال قد لا ذوا بمعبود واستأنفوا
القتال بعد استيلاء روما على قرطاجنه ، ثم آثروا الموت
بين ثنايا النار على إذلال الرومان فأحرقوا المعبد ، أما
بطلهم هسدر وبال فقد انطلق إلى القائد الظافر وجثا

تحت قدميه يلتمس الغفران على نحو ما عرفت من قبل !
فأين هذه الضعة من قداسة الكرامة العزيزة . ؟
سقنا لك هذا المثال لما ينطوى عليه من تباين واضح
بين الأمتين . وإن كان « الظاهر » في موقف كل منهما
متشابهاً في كثير من الوجوه .

ورب قائل يقول : عرفنا الآن ما تنطوى عليه
قرطاجنه من ضعف معنوى وخور روحى ، ولكن ما
سر هذه الرصانة التى مدت فى كفاحها الأخير ، وما
مصدر استماتها فى الدفاع على هذا النحو العجيب . ؟ وما
سبيل الرد على الحجج التى رويتها عن هؤلاء المعجبين بنضالها ؟
فى الحق أن بواعث الجهاد الأخير لا يمكن ردها
إلى الحرص على الكرامة أو الاعتزاز بالنفس أو غسل
الآهانة أو غير هذا مما يؤلف نسيج الخلق الرصين .
وإنما مردُّ هذا الحماس العجيب الذى تبدى فى نضالها
الأخير بما لازمه من صبر وجلد وعزيمة لا تعرف
الوهن . . إلى الحرص على البقاء وتقرير المصير . ! وشتان
بين الموقفين ، شتان بين من يثور احتراماً لكرامته .

ومن يشور حرصاً على حياته . الذود عن الكرامة مثل أعلى
أوجده العقل ، والحرص على الحياة أمر تسوقنا إليه غريزة
المحافظة على البقاء ، والعقل من شأن الإنسان وحده ، أما
الغريزة فهي نصيب مشترك بين الإنسان والحيوان ، وما
تؤدي إليه من حركة وطلاقة . ونضال وما يشبه ذلك
لا فضل للإنسان فيه ، لأنه مسوق إليه من غير تفكير
ولا وعي . فقرطاجنه قد خفت إلى الدفاع الأخير مسوقة
« بحيوانيتها » البحتة « وغرائزها » الصرفة ، ولم تكن
بواعث نضالها « إنسانية » يوحى بها اعتزاز النفس واحترام
الكرامة وتقديس الشرف ، إذ أين كان هذا كله يوم
اسرفت في التنازل عن وجودها المعنوي ، إبقاء على
وجودها الحسى . . ! إن سنة البقاء لا تأذن بالحياة لمثل
هذا الشعب التعس ، يستطيع الفرد أن يجد في الدنيا مكاناً
يحيا فيه وإن فرط طول حياته في وجوده المعنوي مسرفاً
في هذا التفريط ، لأن النضال بين الأفراد أهدأ من
النضال بين الشعوب ، ولأن لكل دولة قوانين ترعى
الضعيف وتنصف المريض وتكفل الحقوق وتقيم العدل
وتهيئ للناس سبل العيش كرماء كانوا أو أنذالا ، أما

الشعوب فهي لا تخضع — ولعلها لن تخضع — إلى قوانين
دولية تؤدي ما تؤديه القوانين الموضوعية للأفراد في كل
الشعوب ، وها هي ذه عصبة الأمم تنطق بالأفلاس كلها
شب النزاع بين بلدين ، وما عهد النضال بين الصين
واليابان بصدد منشوريا ، ثم بين الحبشة وإيطاليا
عنا ببعيد ..

وقرطاجنه قد سلمت في وجودها المعنوي عن إفراط
وإسراف ، فكان طبيعياً أن تنتهي إلى هذا المصير
الذي آلت إليه ، وإذا كان دفاعها الأخير رصيناً ورأياً
فان مردّ ذلك كما قلنا من قبل إلى « غريزة المحافظة على
البقاء » التي يتساوى فيها الإنسان والحيوان فأنت لا تستطيع
الهجوم على حيوان — بالغاً ما بلغ الجبن به — وتشعره
بالخطر يحدق بحياته دون أن ترى منه حماساً في الدفاع
يبلغ أقصى درجاته ، واستماتة في الحرص على حياته تصل
إلى مواطن الإعجاب من نفسك ، ولكنك رغم ذلك
لا تصفه برصانة الخلق بعد ما ترى من حماس بالغ
وتفان عجيب .

ولكن المعجبين بهذا الجهاد يقولون : إن غريزة

المحافظة على البقاء لو كانت وحدها مبعث هذا النضال
العجيب لسأقت أهل قرطاجنه إلى الرضا بمطلب روما
الأخير ، فشدوا رحالهم إلى الصحراء وعاشوا في فضائه
على أى وجه كان . ولكن هذا الكلام مردود بأن
قرطاجنه كانت تشبه الرجل البخيل الذى لا يفهم الحياة
بغير المال ، فهو لا يجد غضاضة على نفسه فى احتمال
أقصى درجات الذل ما دامت خزائنه ملاءى بالذهب ،
ولكنه يتميز غيظاً ويتحرق أسى ويموت كمداً يوم
تنقص كنوزه درهما واحداً ، وهو على استعداد للدفاع
عن ماله دفاعاً مجيداً قد يفقد فيه حياته ، ويضحى فيه
بوجوده ، فلا يقال إن هذا البخيل أدت به رصانة
الأخلاق إلى التفانى فى الدفاع عن ماله ، بل يقال إن
غريزة حب التملك قد قويت عنده حتى تغلبت على غريزة
المحافظة على البقاء . . . ! كذلك كانت قرطاجنه — تولت
إمارة البحر وسيادة الدنيا بالتجارة ، ووقفت على جمع
الذهب حياتها وجهودها ، وقد سكنت قداسة المال قلبها حتى
أصبحت لا تفهم الحياة من دونه ، ألم تر إليها كيف
تنازلت عن أسطولها وسكتت عن إحراقه ، وسلت

في أدوات قتالها من قسي وسهام ومزاريق ، ثم اشتعل
الغضب في رأسها ، وساور الضيق نفوس أهلها حين جاء
ذكر الغرامة وطريقة دفعها .. ! مثل هذا البلد إذا طالبت
أهله بالرحيل إلى الصحراء ومفارقة البحر الذي ورثوا
حبه فقد طلبت إليهم أن يعيشوا أمواتاً ، بل قضيت
فيهم بالانتحار . ثم لا تنسى أنهم قد أقدموا على الثورة
وهم على يقين بأن روما قد وطنت عزمها على أن تفنيهم
عاشوا على الشواطئ أو في فضاء الصحراء ، لأن المطالب
المتلاحقة المتكررة بما تحمل من سخرية وسخافة كانت
لا تنذر بغير هذا المصير . فلو أنهم استجابوا لهذا
المطلب لطاردهم روما في الصحراء وشتت جموعهم ،
وراحت تتعقبهم في حلهم وترحالهم حتى تفنيهم وتخلي
الدنيا من جلجلة اسمهم . وللغرائز إلهام سريع لا يستغرق
وقتاً ولا يتطلب تفكيراً ، فغريزة المحافظة على البقاء
عند كل قرطاجني قد أوحى إليه بهذا المصير وساقته
في التو إلى العمل على اجتنابه ، وفي هذا يتساوى
الإنسان والحيوان

والحياة لا تعطى بالها لشعب يستجديها ويطلب

عونها ، ولا تتبد في مسيرها فتثقل رجلها لتنتصت إلى
شكاته ، وتحيل عجزه إلى قدرة وضعفه إلى قوة ، لأن
النصر في النهاية للأقوى والبقاء للأصلح . وما رأينا
الضعيف ينتصر يوماً إلا لتلحق به الهزائم أياماً ، ولا
يفر من وجه الأخفاق شهراً إلا ليدركه ويحط عليه
شهوراً وأعواماً ، ولن ينتصر حتى تدب في بواطن نفسه
عناصر القوة ، ويسرى في جسده ماء الحياة ، ويعرف
كيف يسمو بمطامحه الروحية على مطالب الحياة الدنيا ،
وليس للضعف عند الشعوب آية أنطق من آية التسليم
بالوجود المعنوي إبقاء على الوجود الحسى ..

وإن كفاة الحجج التي روينها عن المعجبين بقرطاجنه
لتدوب وتنحل إذا أقمت نظر تلك إلى نضالها على أنه دفاع عن
حق البقاء ، وذود يراد به تقرير المصير . فالقول بأن حركة
الجهاد في قرطاجنه قد شملت الشعب بأسره ، وأنها دامت حتى
نecق بوم الخراب في أرض الوطن ، وأن الشعب قد ثار
لفوره دون أن يفكر في نصر أو هزيمة ، في حياة أو موت ،
وأنه لم ينتظر الخطيب الذي يشيره ، والكاتب الذي يحفزه ،
والقائد الذي يتولى أمره كل هذا مردود عليه بأن

الغريزة كفيلة بذلك كله ، ولو أنك حصرت فئة من
الكلاب ونبهتهم إلى ما يحيق بحياتهم من هلاك زاحف
لثاروا على الفور في وجهك واستماتوا في المقاومة . وتفانوا
في النضال عن أنفسهم ، واستهانوا بالحياة . . في سبيل
الحياة . . من غير خطيب يغذى حماسهم ، أو كاتب يوقد
نارهم ، أو قائد يتولى أمرهم ، وهم يفعلون هذا كافة من غير
أن يتهاون بعضهم ويكل أمر الدفاع إلى غيره ، فهو دفاع
اليأس المستमित . . وكذلك كانت قرطاجنه . .

لعلك أدركت من هذا التحليل ، النقص الذى ينطوى
عليه تفسير « لوبون » وأنصاره لمعنى الخلق ، فقد تناولوا
مظاهره فأحصوها واكتفوا بسر دأكثرها دون أن
يردوها إلى عللها ويعزوها إلى منابعها ويفصلوها عما
يشبهها من مظاهر ترجع إلى أصول و منابع وعلل أخرى . .
فقد عرفت أن « المشابة والعزيمة والجلد الذى لا يعرف
الوهن ، والقدرة على التفانى فى نصره المطلب » عناصر
قد توفرت جميعها فى المرحلة الأخيرة من كفاح الشعب
القرطاجنى ، فلم تكن دليلا على رصانة الأخلاق عنده ،
لأن مرادها جميعا إلى وحي « الغريزة » التى يتساوى فيها

الأنسان والحيوان ، وليست تعزى إلى البواعث النفسية
والمطامح الروحية والمثل العليا التى يؤلف العقل نسيجها ،
وتهىء « العاطفة » خيوطها . . . مما يبرر إطلاق الخلق
على مظاهرها . .

وإذن فقد سقطت قرطاجنه لأسباب نستطيع ردّها
إلى انحلال الخلق ، وبذلك يتمشى سقوطها مع القاعدة التى
أقامها أهل الاجتماع فى سقوط الدول وانحلالها :

تقول سنن الجهاد عند الشعوب منذ فجر التاريخ إلى
يومنا الحاضر إن البقاء للأصلح ، وليس الأصلح من تبلغ
به الوداعة إلى حد التنازل عن كرامته ، والتهاون فى عزة
نفسه ، والاستكانة للذل والخضوع للضميم وقبول الظلم
والاستجابة لمطالب العدو مهما بلغ إجحافها ، بل أصلح
الشعوب للبقاء من رفع وجوده المعنوى فوق وجوده
المادى ، وجودنا المادى لا يتطلب إلا الشراب والطعام
والهواء والراحة — وفى طلب ذلك يتساوى الأنسان
والحيوان ، ووجودنا المعنوى لا يستقيم بغير الحرص
على الكرامة وصيانة الشرف من كل أذى يصيبه أو يحوم
حوله ، ثم هو يعلو ويسمو حين يلازمه التبشير بمثل

أعلى ، والاستماتة في شأنه ، وذلك من شأن الإنسان وحده .
وقد تنازلت قرطاجنه عن وجودها المعنوى ، فحرمتها
سبيل الجهاد حقها في البقاء ، وقضت في أهلها أمرها
بالفناء (١)

وقد كان من بواعث هذا التهاون في الوجود المعنوى
أن أهل قرطاجنه عباد مال ، والذهب إذا تمكن

(١) والتاريخ حافل بما يؤيد هذا الناموس . ولا بأس من أن نسوق
مثالاً آخر يختلف لوناً وشكلاً وان اتفق في جوهر الموضوع الذى نحن
بصدده : التنازل عن الوجود المعنوى وأثره في الوجود الحسى :

دخل « نابليون » بولنده في وقت قد انعقدت عليه آمال أهلها في
استقلال وطنهم ؛ فالتفوا حوله وأحاطوه بهالات الأجلال والترحيب ، وبينما
كانت عربته تسير في شوارع المدينة والورود والأزهار تتناثر عليه ، لمح البطل
سيدة فتاة الجمال مشرقة الوجه يملأها الحماس له والأعجاب به ، تشق الصفوف
مرحبة بمقدمه هاتفة بحياته ... وما عادت السيدة الى بيتها حتى كانت عيونه
ورسله وراها . ! تغريها بشق الطرق وتعرض عليها أثمن الهدايا لتقبيل
الاتصال بنابليون . ! وامتنعت السيدة وازدادت الحاحاً في الامتناع بالاحاح
الرسلى في مطلبهم . فاستعان البطل عليها بزعماء المدينة ، ولم يتورع هؤلاء
الزعماء عن قبول مطلبه والسعى لدى زوجها وأولى أمرها في قبول هذا العرض .
وأخيراً قبلت « ماري فاليفسكا » تحت تأثير هذا السعى الملح أن تدفع
عفافها ثمناً لاستقلال بولنده . !

تنازل أهل بولنده عن وجودهم المعنوى في سبيل استقلالهم ، فكانوا خليقين
بموقف نابليون حيال مطلبهم . . وحق عليهم ناموس البقاء السالف
الذكر . والامثلة الشبيهة بهذا كثيرة لا يكاد يحصياها العد

من النفوس واستقر في شغاف القلوب ، هانت في سبيله
أسمى المطامح وأنبل المثُل . والشعوب إنما تحيا بمطامحها ،
وتعلو على جناح مطلب أسمى تؤمن به وتعيش له ،
وتتفانى في العمل على تحقيقه . أما الشعوب التي لا تفهم
إلا لغة الذهب ، ولا تحترم إلا مظاهر المادة ، فمآلها إلى
انحلال ونهايتها إلى اضمحلال . .

وقد أدت بها قداسة المال إلى ضيق المطامح ، فأصبح
كل مجد لا يدرّ الذهب معدوم التقدير عندهم . وقد عرفت
موقف المعارضة من هانيبال في مجلس الشيوخ بعد موقعة
« كاني » وتبينت مدى تقديرهم لهذا السلطان الذي كان ينشره
بطلهم في مشارق الأرض ومغاربها ، ومبلغ إحراج « ماجو »
أمام « هانو » زعيم حزب السلام . .

هكذا يرتفع صوت المعارضة في المجلس ويعلو حتى
يخرس لسان المندوب الذي أوفده هانيبال وهو في أوج
مجده وشاهق عزه ، ولا يجد المعارض من أنصار البطل
من يعمل على إخفاته بالقوة إن عزّ إخفاته بالهدوء — كما
ألف القادة في كل زمان ومكان . . ذلك لأن انتصارات
الحرب رغم ما أسفرت عنه من مجد ساطع ، لم تمنع بطلها

من طلب العون ، ولم تدرّ على الوطن شيئاً من الذهب...!
الذهب...!

ولهذا الموقف وأشباهه دلالتها في نفسية الشعب ،
وتقدير مدى طموحه ، ومعرفة فهمه للحياة . وكيف يعيش
شعب لا مطمح له في الدنيا إلا المال ، ولا مطلب عنده
أسمى وأنبل من الذهب...؟! إن نوااميس البقاء لم تخطئ
حين قضت في قرطاجنه بحرمانها من حق البقاء ..

على أنه ليس طبيعياً ما أصاب هذا البلد من مجد ،
وما انتهى إليه من عظمة . فقد نال هذا كله بسلاح لا يملكه ،
استأجر الجنود المرتزقة ، ووصل إليها أمر الاستعمار ، واعتمد
عليها حتى ... حتى في الدفاع عن كيانه ...!! وليس من
رصانة الخلق أن تسلط الأشرار يهاجمون الناس ، ويمتهنون
حقوقهم ويعتدون على أملاكهم ، فاذا همّوا بصدّ عدوانك ،
وأخذوا في قتالك ، انزويت في دارك ، واستأجرت من
يقوم بالدفاع عنك حتى لا تجد الأجر الذي تدفعه ، وترى
الهلاك مقبلاً عليك فاتحاً فاه يريد ابتلاعك ، فتأخذ
حينئذ — وحينئذ فقط — في الدفاع عن نفسك والذود
عن حياتك متفانيا ، شأن اليأس المستमित ..

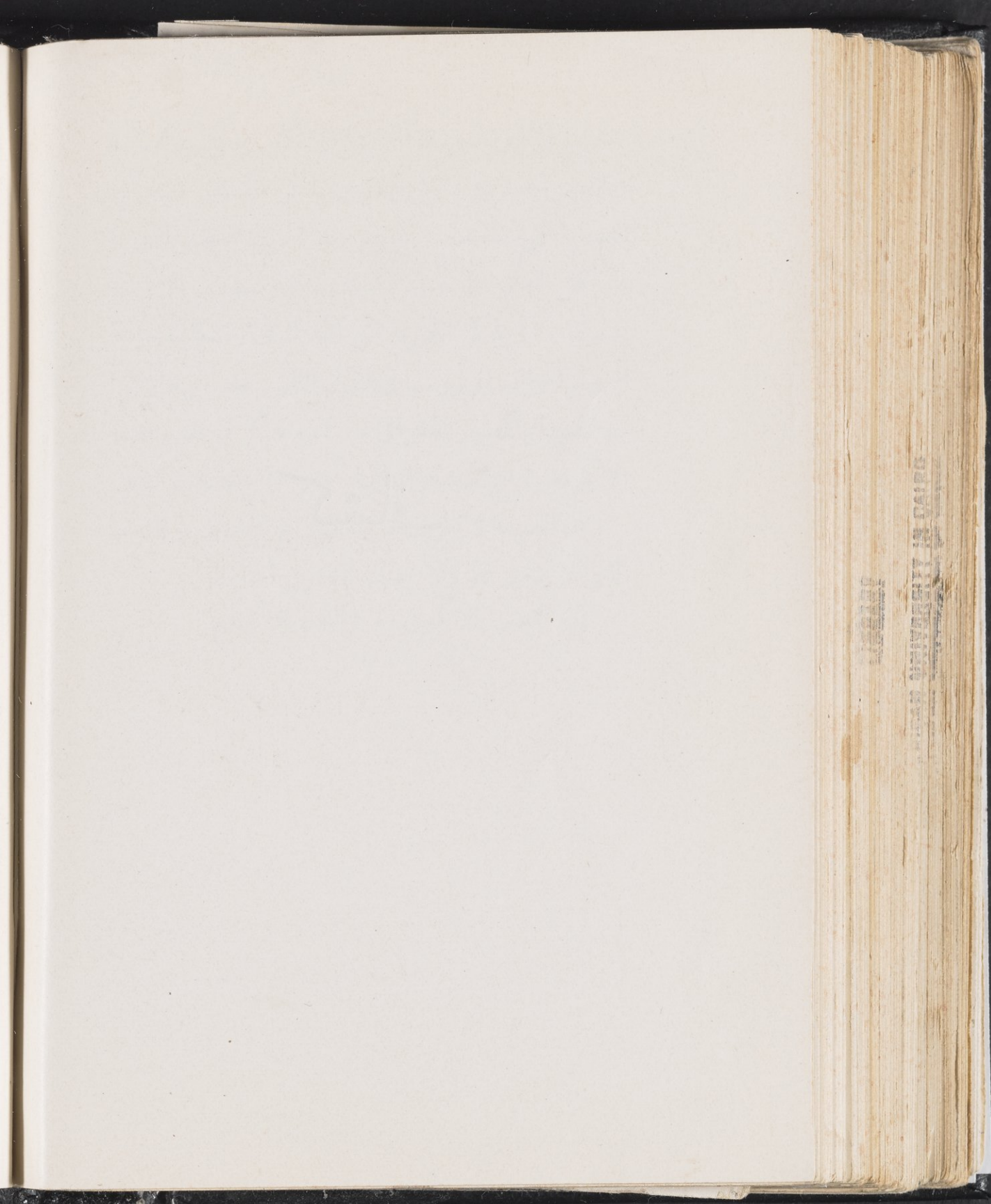
فقرطاجنه أصابت مجدها بسلاح غير سلاحها ، فلم
تكن أهلا للاحتفاظ به ، ثم فقدته فكان فقدانه عن
جدارة واستحقاق !..

استبان لك من هذا أن قرطاجنه قد تلاشت من
الوجود لأن جهادها قد أعوزته البواعث الروحية ، وأن
مابدا من جلادها وصبرها وتفانيها ووفائها مردّه إلى
الغريزة التي لا يمتاز بها أسمى الناس على أحط الحيوانات.
وأنها لم تكن أهلا لهذا المجد الطارئ والعز الوارف
وغيره مما جاءها به هانيبال وهملكار وهسدروبال ، وأنها
استحوذت عليه بسلاح غيرها ، فسرعان ما فارقتها إلى غير
رجعة ، وفرّ منها غير آسف على عثرتها ، وأنها لقيت ما ينبغى
أن يلقاه كل شعب يضحى بوجوده المعنوى إبقاء على
وجوده الحسى ..

ولا تهلعن للنهاية الأليمة التي صارت إليها قرطاجنه .
ولا تحسبن أن الرومان كانوا وحوشاً حين واروها التراب ،
فتلك سنة النضال بين الشعوب ، وهذه هي نواميس
التنازع في البقاء : . فان الجريمة التي ارتكبتها الرومان منذ

عشرين قرناً ونيف ، قد أقدم على ارتكاب ما يشبهها الساسة
في العصر الحديث . . ! والقارىء يذكر ما استقر عليه رأى
العصابة التى اجتمعت فى باريس بعد الحرب العظمى لتسوية
مشاكل العالم على أساس مبادئ « ولسون » الأربعة
عشرة . . ! ويذكر الجريمة التى اشترك فى ارتكابها ساسة
الروسيا والنمسا وبروسيا فى القرن الثامن عشر يوم أزالوا
« بولنده » من المصور الجغرافى . . ! ، ويذكر موقف « عصبة
الأمم » من نزاع الحبشة وإيطاليا ، ثم من نزاع الصين واليابان
إن الطبيعة لا تعرف الرحمة فى نزاع الجماعات ، وقانونها
الذى لا يتغير قط ولا يصيبه التعديل أبداً :
إن النصر للأقوى . . والبقاء للأصلح

کشاف



كشاف

أهم ما ورد في هذا الكتاب من أسماء الأعلام والأماكن مع استثناء الكلمات المنتشرة في أغلب الصفحات (كروما وقرطاجنه وهانيبال وإيطاليا)

١

الأيبرو (نهر) : Ebro

٩٦ و ١٠٧ — المعاهدة بين هسدروبال والرومان تنص على ألا تتخطاه قرطاجنه في فتوحاتها شمالاً : هانيبال يعبره .

أبيوس كلوديو كايوس : Appius Claudius Caecus

٣٨ — يخطب في مجلس شيوخ روما مستنكراً تسليم بعض الأعضاء بمطالب الأغريق في الصلح .

٤١ — صورته وهو يخطب في مجلس الشيوخ .

أتروريا مقاطعة في شمالى روما : Etruria

٣٨ — يظفر بها الرومان بعد قتال عنيف .

١٢٤ — يسير هانيبال إلى ترازمين عن طريقها .

١٦٥ — يتمرد أهلها (الأترسك) على روما .

أماثوكل : Agathocles

٢٢ — يحاصرون قرطاجنه فتقدم للنار مائتي طفل وثلاثمائة

رجل قرباناً لمعبودها لعله ينقذها من شره ٤٣ — كفاحه في

صقلية ضد قرطاجنه ٤٨ — يفكر في غزو قرطاجنه بعد

هزيمة جيوشها في صقلية ٥٦ — مصرعه — استقلال قطاع

الطرق الذين كانوا في خدمته .

أجريتوم Agrigentum

٦١ — قرطاجنه تجعلها مستقر ذخائرها والرومان

يحاصرونها ١٥٩ — هانيبال يرسل إليها كتيبة يقودها رجل

ليس من أصل القرطاجنيين فيتمرد الجيش ويدخل الرومان

المدينة ويمتهنون الطبيعة البشرية فيها .

أرسطو :

٢٤ — يعرض في كتاب السياسة لنظام الحكم في قرطاجنه

ويثني عليه .

أرشيدس :

١٥٨ — يقدم المعونة لسيراكوز حين كانت روما
تعالج حصارها .

أريكس Eryx :

٨٢ — استيلاء الرومان عليها ٨٤ — هملكار يقوم منها
بمنجدة إلى « دريانوم » ليحميها من أسطول روما الذي بناه
أثرياؤها ٨٦ — المعاهدة بعد « إيجيت » تقضى بتسليم الجيش
الرابض فيها

أسبانيا :

١٩ — انتشار أهلها في شوارع قرطاجنه ٤٤ — بعوث
قرطاجنه تتوغل فيها للاستكشاف — توريد الفضة منها
٨٧ و ٩١ — إقامة امبراطورية بها ٩٤ — تفكير هملكار
في غزوها بعد حرب الثوار المتمردين ٩٥ — انتصارات
« هملكار » فيها ٩ سنوات ٩٦ — قتل هسدروبال لأحد
زعماء قبائلها ١١٠ — أكثرية جيش سيبيو ترحل إليها
١٣٦ — بعض قبائلها في جيش « كاني » ١٥٩ — ١٦٠ — انهزام
جيش قرطاجنه أمام سيبيو في أرضها ١٦٢ — فرارها من يد

هانيبال ١٨٩ — تحولها إلى إقليمين رومانين ٢٢٢ — في يد
قرطاجنه ٢٦٢ — ضياعها

أسرباس : Acerbas

٩ — يتزوج بانبه أخته «ديدو» بانبه قرطاجنه .
١٠ — ذبحه بأمر من الملك للاستيلاء على أمواله الطائلة

آسيا :

١٦٤ — سيادة أوربا لها بعد «متورس» إلى اليوم .

اغريق :

١٨ — اتصال قرطاجنه بهم ١٩ — تشبه أغنيائهم بهم
٢٠ — تشبه سيداتها بسيدات الأريق ٢١ — حضارتهم
في قرطاجنه ٣٨ — تقدم أحد ملوكهم لنصرة تارتوم ضد روما
٣٩ — صورة لقائهم عند ما بلغ تارتوم ٤٠ — كلوديوس
يخطب ضدهم في مجلس الشيوخ في روما ٤٣ — احتكاكهم
بقرطاجنه في صقلية ٤٤ — قرطاجنه تستورد النيز من بلادهم
٤٨ و ٤٩ — مسارتهم إلى صقلية لمقاومة قرطاجنه في ميادينها
٥٢ — آمال «بيروس» في سيادتهم جميعا ٥٣ كفاح قرطاجنه
لهم لامتلاك صقلية

افريقيا :

- ١٢ - تتقدم إليها «ديدو» أو «إليسا» لتبنى قرطاجنه ١٣ - اتباع
 قطعة أرض في شمالها لبناء المدينة ٢١ - كتاب لقرطاجنه
 عن رحلة إلى مناطقها الحارة ٤٣ - مستعمرات قرطاجنه
 في شمالها ٤٤ - وصول بعوث قرطاجنه إلى جنوبها
 للاكتشاف ٤٦ - سيطرة قرطاجنه على ساحلها الشمالى
 ٥٣ - كيف تربطها صقلية بأوربا ٦٦ - الرومان يغزونها
 (رجيلس) ٧٩ - هزيمة «رجيلس» في مجاهلها ٨٠ - عودة
 الرومان إلى صقلية بعد هزيمة «رجيلس» ١٣٦ - مشاتها
 في «كانى» ١٣٨ - موضع جيشها في موقعة «كانى»
 ١٦٢ - سيبيو يسارع إليها يستميل إليه «سيفا كس»
 ١٨٤ - موقف قرطاجنه منها بعد معاهدة زاما ٢٢٢ - شمالها
 في يد قرطاجنه ٢٦٢ - ضياعه

الكزانتيب : Xatippus

- ٧٠ - يدرب الجيش القرطاجنى ليسترد النصر الشادر -

يأسر «رجياس»

اكونومس Economus :

٦٦ - بين الرومان والقرطاجنيين (في جنوبي صقلية)

ألبانجا Alba langa :

٢٦ - موت مليكها

٢٧ - يحمل اليها « ريمس » بعد وقوعه في كمين راعي الملك

اليسا (اى ديدو) Elissa أو Dido :

١١ - اكفهرار الجو بينها وبين أخيها قاتل زوجها

١٢ - مضيا إلى إفريقيا ١٣ - تسابق الناس في الإعجاب

بجملها ١٦ - قربانها وابتجارها احتراماً لذكرى زوجها

أمليوس Amelius (قنصل الرومان) :

١٣٤ - يشك في نتيجة « كاني » قبل البدء بخوض غمارها

١٣٥ - رسالته إلى روما ١٤٠ - مصرعه في موقعة « كاني » -

نبله ووطنيته

أموليوس Amulius :

٢٦ - يتولى الحكم على كره من أخيه الأكبر « نوميتير »

٢٧ - اعتداء أحد رعاته على راعي « نوميتير »

أوروبا :

٤٣ — الاتصال التجاري بينها وبين قرطاجنه ١٧٠ —
سيادتها على آسيا بعد « متورس » إلى اليوم

أيجيت Aegate (جزائر) :

٨٥ — انتصار روما فيها بأسطولها الذي بناه أثرياؤها
ويأس قرطاجنه بعدها

ب

باريس

٢٠٦ — دخول الحلفاء فيها للمرة الثانية - ١٦٨ - اجتماع الساسة بها
بعد الحرب الكبرى لتسوية مشا كل العالم على أساس مبادئ ولسون

برابرة

١٩ — انتشارهم في شوارع قرطاجنه — ٥٢ — آمال
« بيروس » في سيادتهم (محاورته مع سنياس)
٢٥٨-٢٥٩ — يدحرون روما

برزياس Brusias (ملك يثينيا)

٢٠١ — ضيافته لها نيبال .

بولسره

٢٨٣ — دخول نابليون وموقفه من استقلالها

٢٨٦ — الروسية والنمسا وبروسيا تتفق على إزالة بولندية من
المصور الجغرافي .

بيروس Pyrrhus (ملك إبيروس Epirus إحدى مقاطعات
الأغريق) :

٣٨ — يلي نداء تارنتوم في الاستنجاد به ٤٠ — إخفاقه في
نجدتها أمام الرومان ٤٣ — كفاحه في صقلية ضد قرطاجنه
٤٩ — مقاومة قرطاجنه له في صقلية ٥٠ — إخفاقه أمامها
— خواتمه يوم جاء إليها — ٥٠ — على ظهر سفينته عائداً بعد
إخفاقه — ٥١ — محاورته مع « سنياس » ٥٤ — يحدد مركز
صقلية من قرطاجنه وروما عند فراقه لأرضها
٨٦ — هزيمته أمام قرطاجنه

بيزو Piso

٢٣١ — روما توليه قيادتها ليفنى قرطاجنه — ٢٣٦
سيبيو يستنجد به

ت

تارنتوم Tarentum (مدينه جنوبي إيطاليا)

٣٨ — تستعين بالأغريق على الرومان ٣٩ — صورة
بيروس حين بلغها لنجدتها ضد الرومان ١٥٤ — عجز

هانيبال عن حصارها - المصادقة في استيلائه عليها
١٥٨ - عودة جيشه إليها بعد عجزه عن إنقاذ « سيرا كوز »
١٦٠ - ضياعها من يده (بعد ضياع صقلية وأسبانيا)

ترارمين (موقعة)

١١٧ و ١٢٤ - موقعة - ١٢٧ صورتها

تريبيا Trebia

١٢٠ - استقرار « سينيو » بها - صورتها

التيبر (نهر) :

٢٦ - إلقاء رميلس ورئيس فيه عسى أن يموتا غريقين

٢٩ - دفن رئيس على شاطئه .

ج

جوستاف لوبون : Gustave LeBon

٢٦١ - رأيه في سقوط الدول - ٢٨٠ - نقض رأيه

مبني

٢٠٢ - موقفه من الانتخاب بعد صدور آلام فرتر

در بيان نوم Drepanum

٨١ - انتصار أميرة البحر على روما فيها ٨٣ - هملكار
يعسكر على كشب منها ٣ سنوات ٨٤ - أسطول يبنيه أثرياء
روما يتقدم لحصارها ١٨٢ - عودة هانيبال إليها بعد
هزيمة زاما

رجيلس : Regulus

٦٩ - ينتصر على هملكار في أفريقية ٧٠ - يطلب
الصلح متشدداً في نصوصه فيرفض ٧١ - يلقيه الكزانتيب
في السجن ٥ سنوات - ينتدب بعدها سفيراً لمفاوضة قومه
٧٤ - يخطب في مجلس شيوخ روما طالباً الحرب وهو سفير
السلام (سمو الضمير ونبيل النفس) ٧٥ - صورته وهو
يخطب في المجلس ٧٧ - صورته وامرأته تلتمس منه البقاء
رحمة بها وبولديها فيأبى ٧٨ - رجيلس بين المنطق والخلق
٧٩ - نبأ هزيمته في أفريقية يصل إلى روما

٢٦ — ابن إله الحرب الذي عشق ابنة نوميتير ٢٧ — ينقذ
أخاه ببسالة ٢٨ — جده يهيء له حياة سعيدة فيرفضها
تشير الآلهة عليه ببناء روما ٣٠ — يغتصب مع رجاله نساء
السايبين ٣٢ — بين نصر وهزيمة ٣٣ — يحكم أربعين عاماً
٣٤ — يحمله أبوه (إله الحرب) في عربته إلى السماء —
نصيحته لشعبه بعد أن بات إلهاً ٤٠ — تحقق نبوءته في سيادة
روما للدنيا بأسرها

٢٦ — ابن إله الحرب ٢٧ — يقع في كمين أعداه راعي
الملك ٢٨ — يرفض حياة سعيدة ٢٨ — يريد أن يطلق اسمه
على المدينة الجديدة (روما) ٢٩ — يهزأ بسور روما فيقتله
أخوه رميلس .

ز

١٨٢ — هزيمة هانيبال بها ١٨٣ — صورة الفيلة فيها

س

السابين (قبائل) Sabine :

- ٣٠ — خديعتها في مشاهدة حفلة « رمياس »
- ٣١ — اغتصاب نسائهم ٣١ — انتصارها على رمياس
- ٣٣ — خضوعها للرومان بعد شفاعة نسائها .

سردينيا :

- ٨٩ — يغتصبها المتمردون من هملكار ويقدمونها لروما
- ١٥٤ — فرارها من يد هانيبال .

سغونتوم Saguntum

- ٩٦ — تستعين بروما على هسدروبال — معاهدته مع
- الرومان ٩٨ — هانيبال يحاصرها متخطياً المعاهدة — وفد
- روما عنده ثم في مجلس شيوخ قرطاجنه — دفاعها ٨ شهور
- ١٠٠ — انتحار زعمائها خلاصاً من الذل ١٠١ — صورة
- هانيبال وهو يحاصرها ١٠٦ — هانيبال يعود اليها بعد غزو
- قرطاجنه الجديدة .

سنسورينوس Sensotinus

٢١٥ - انتخابه قنصلا لأفناء قرطاجنه

٢٢٩ و ٢٣٠ - يعالج حصارها

سيناس : Cineas

٥٠ - محاورته مع بيروس ٥١ و ٥٢ - نص المحاوره

السودانه

١٩ - انتشار أهله في قرطاجنه ٤٤ - قرطاجنه

تستورد منه العاج .

سيبيو الكبير Publius Scipio :

١١٠ و ١١٢ - يحاول لقاء هانيبال عند منابع الرون

١١٧ - يتنكر له حلفاؤه ١١٨ - يعبر الأبنين والبو

١٢٠ - يرتاع لانضمام الغالين لعدوه وتمردهم على جيشه

١٢١ - صورة معركة بين جنوده وجنود هانيبال

سيبيو الصغير (أخو سيبيو) Cnæus Scipio :

١٦٠ - يشنت الجيش الذي تركه هانيبال في أسبانيا -

مصرعه مع أخيه

سيبيو البطل (ابن سيبيو) ويسمى الأفرقي :

١٦١ — انتخابه — ليخلف أباه يثير الضجة في روما
لصغر سنه ١٦٢ — يعلن برناجه في الظفر باسبانيا وقرطاجنه
نفسها ١٧٦ — يقود حركة القتال مع ماسينيسا ضد سيفاكس
وهسدروبال بن جسكو ١٨٦ — يأمر باشعال النار في نصف
ألف بارجة ٢٠٠ — يحاول رد روما عن طلب هانيبال
٢١٢ — يتوسط بين ماسينيسا وقرطاجنه ٢٣١ — يقسم تركه
ماسينيسا ٢٣٥ — توليته لتدمير قرطاجنه ٢٣٦ — يصلح الجيش
٢٣٨ — يعود للقتال ٢٤٠ — يبني سورا ٢٤٢ — مذبحته
للجناء ٢٤٥ — في أعلى المدينة ٢٤٧ — لا يجد فراغاً للاكل
ولا للراحة ٢٤٩ — يستمع لزوجة هسدروبال وهي تلعن
زوجها ٢٥٢ — يأسف لزوال قرطاجنه ويتأسى لمصيرها
٢٥٣ — صورته وهسدروبال يلتبس الغفران أمامه

سيراكوز : Syracuse

٥٦ — صراع حاكمها هيرولقطاع الطريق ٥٧ — خوف
روما من تسلط قرطاجنه عليها ١٥٨ — انقسام شعبها إلى
حزبين بعد موت حاكمها

سيفاكس : Syphax

١٦٠ — يعلن الحرب على هانيبال ١٦٢ — سيبيو البطل

في بلاطه يغريه بالانضمام اليه ١٦٣ — يبنى بابنة هسدروبال
سفونيزيا ١٧٧ — ماسينيسا يقوم باحراق معسكره
١٧٨ — فراره . زوجته تثير نخوته ٢١٠ — روما تسلبه
جزءا من مملكته لتكافيء به ماسينيسا

ص

صفحية :

٤٣ — مستعمرات قرطاجنه فيها ٤٤ — تستورد قرطاجنه
الكبريت منها ٤٦ — تشر سياذتها في غربها ٤٨ — الاغريق
يسارعون اليها ويناضلون قرطاجنه في ميادينها ٤٩ — ييوس
في أرضها ٥٠ — صورة رمزية لالتقاء مطامع العدوين فيها
موقعها بالنسبة لقرطاجنه ٥٢ — ميزاتها — آمال « ييوس »
في سياذتها ٥٣ — موقعها بالنسبة لاطاليا . صلة روما بقرطاجنه
فيها ٥٤ — مكائنها لقرطاجنه وروما ٥٥ — الأشرار في
ربوعها ٥٧ — خوف الرومان من سيادة قرطاجنه لها
٦١ — انضمام بعض مدنها لروما بعد هزيمة « هيرو »
٦٦ — أكونومس ٧٩ — عودة «رجيلس» اليها ٨٤ — يسير
اليها أسطول روما الذي بناه أثرياءها ٨٥ — انسحاب
قرطاجنه منها ٩٢ — جهاد قرطاجنه بها يطوف بخاطر
هملكار ١٥٨ و ١٥٩ — إفلاتها من يد هانيبال مدينة بعد
مدينة ٢٦٢ — ضياعها من قرطاجنه

صور Tyre :

- ٩ — موت مليكها والد « إيلسا أو ديدو » بانية قرطاجنه
٤٤ — تسورد منها قرطاجنه الأرز ٢٠٠ — هانيبال يعلن
أن الحكومة انتدبته سفيراً في « صور » حين يعتزم الهرب
٢٠١ — يستقر بها وهو شريد فترة من الزمن

ع

العرب

٢٥٩ بين علمهم وجهلهم

عصبة الأمم

٢٧٦ و ٢٨٦ — موقعها من نزاع إيطاليا والحبشة ثم من نزاع
الصين واليابان بصدد منشوريا —

غ

الغاليلو

٣٧ و ٣٨ — قتالهم للرومان ١٠٨ و ١٠٩ — مقاومتهم
لهانيبال على شاطئ الرون ١١٠ — قتال الرومان في شمال
إيطاليا ١٢٠ — في معسكر هانيبال يرفعون الولاء ١٣٨ — وصف
أسلحتهم .

ف

فابيوس Quintus Fabius

١٠٢ — يتحدى مجلس شيوخ قرطاجنه ١٠٣ — صورته في المجلس وهو يلتقي بثوبه في وجوه الأعضاء ويعلن انفجار الحرب
١٢٩ — يعين دكتاتوراً لروما ١٣٠ — يلتقي بها نيبال
في سهل فلارنيان ١٣٢ — يرتاع للثيران التي أشعل هانيبال
العسايلج في قرونها — ثورة خصومه على سياسته ١٣٣ —
الشعب يطالب بتقسيم القيادة بينه وبين « منوكيس »

فارو Varro

١٣٣ — انتخابه قائداً لمثلاً لحزب الحرب ١٣٤ — شوقه
لخوض معركة « كاني » ١٣٥ — على معسكره يخفق العلم
منذراً بمجزرة « كاني » ١٣٨ — قائد فرسان حلفاء روما في
« كاني » ١٤١ — هربه بعد « كاني » بسبعين ألف فارس
١٥٠ — مجلس الشيوخ يقرر استقباله وشكره على جهوده
رغم إخفاقها .

فابنسط (ماري) :

٢٨٢ — تضحى بشرفها في سبيل وطنها

فامباس Himilco Phameas

٢٢٩ — حماسه في الدفاع ٢٣١ — حياته

فرنسا :

٤٤ — وصول بعوث قرطاجنة إليها ٢٧٢ — موقفها
من نابليون بعد أن نفاه الحلفاء .

فلامينوس Flaminus

١٢٥ — قائد الرومان في موقعة ترازمين

٢٦ — مصرعه .

ق

فارسه

١٦٢ — لم يبق لقرطاجنه في أسبانيا سواها ١٦٣ —
استيلاء الرومان عليها .

قبرص :

١٢ — تبحر إليها « ديدو » فارة من أخيها قاتل زوجها
وخالها ٤٤ — تستورد منها قرطاجنه النحاس .

قرطاجنة الجديدة Nova Carthago

٩٦ — يبنيا « هسدروبال » على شاطئ إسبانيا الشرقى
١٠٦ — عودة هانيبال إليها .

ل

كابوا Capua

١٤٣ — انضمامها لهانيبال بعد « كاني » — ثورة شعبها
وانقسامه — انتصاره على الأشراف ودعوة هانيبال — مميزاتها
١٥٦ — حصار الرومان لها — اخفاق هانيبال في نجدها
١٥٧ — تسليمها للرومان — امتهان أهلها

كاتو الكبير Cato

٢٠٨ — يهاجم قرطاجنه في مجلس شيوخ روما — انتدابه
للنظر في أمرها ٢٠٩ — صورته وهو يخطب في المجلس
٢١٠ — روما توافق على نصيحته في إفناء قرطاجنه

كاني Cannae

١٣٦ هانيبال يعسكر على كشب منها ١٣٧ — خريطة تبين
قوات العدوين فيها ١٤٢ — نتائجها على قرطاجنه

١٤٣ و ١٤٤ -- سحرها في الشعوب ١٤٥ -- موقف التاريخ
منها ١٤٧ -- ماجو يخطب في مجلس شيوخ قرطاجنه ويصف
روعة النصر فيها ١٥١ -- أنباؤها تزجج النساء والأطفال في
روما - مجلس الشيوخ يقرر بقاءهم في بيوتهم ١٥٣ -- هيرونيوس
بعدها ١٧١ -- التاريخ يذكر همسة القدر بعدها ٢٠٧ -- امتناع
هانيبال عن غزو روما بعدها ٢٢١ -- في عرف التاريخ

كركيينا (أو قرقنا كما يدعيها الأديسي) Kerkina

٢٠٠ يفر إليها هانيبال حين يعتزم الهرب من روما

كلارين Camarina

٨٢ -- هزيمة الرومان على مقربة منها -- لم يبق في سفنهم
لوح من الخشب لم يتحطم .

كورنول Cornwall

٤٤ -- قرطاجنه تستورد منها الصفيح

ل

ليبييوم Lylibeum

٨١ -- قرطاجنه تحاصرها بعد استرداد سيادة البحر
٨٢ -- عودة الرومان إليها ٨٤ -- بأسطولهم الذي بناه أثرياؤهم

ماجو أضر هانيبال الأصغر Mago

- ١٣٦ — يقود في « كاني » مشاة الغالين والأسبان
 ١٤٧ و ١٤٨ — يخطب في مجلس شيوخ قرطاجنه طالباً المدد
 لهانيبال ١٤٩ — زعيم حزب السلام يخرجه أمام الأعضاء
 ١٥٠ — ينطلق إلى أسبانيا — يسير إلى إيطاليا بعد هزيمة
 سيفاكس ١٦٣ — في أسبانيا يستميل إليه القبائل ١٧٥ —
 يقوم إلى إيطاليا لنبذة أخيه (بعد متورس) ١٧٩ — المجلس
 يقرر دعوته وهانيبال لنصرة الوطن ١٨٣ — إخراج هانو
 له في المجلس بعد « كاني » .

مارس Mars

- ٢٦ — إله الحرب يعشق ابنة نوميتير فترزق منه بطفليين
 ٣٤ — يحمل ابنه « رميلس » في عربته إلى السماء

مارسيلوس Marcellus

- ٢٥١ — تواليه روما قيادة جيشها بعد « كاني » ١٦٥ —
 يصاب بجرح بليغ — تقدير هانيبال لبطولته .

- ١٦١ - ينضم لهسدروبال في قتال سيفاكس ١٧٥ -
 يفر بزوجته بعد فقدان مملكته إلى سيبيو ويصحبه إلى أفريقيا
 ١٧٦ - يتوسط بين روما وقرطاجنه ويشعل النار في معسكري
 العدوين ١٨٤ - يسترد في معاهدة زاما ما كان يملكه هو
 أو أسلافه ٢٠٨ و ٢١٠ - حروبه ضد قرطاجنه ٢١١ -
 رسل روما تقرر أخطاء حيال قرطاجنه - ٤٠ عضواً ينفذهم
 الحزب الديموقراطي في قرطاجنه فيتصلون بماسينيسا ٢٣٠ -
 روما تطلب نجدة لحصار قرطاجنه ٢٣٣ - صورته مسجى
 على فراش الموت.

- ٢١٥ - أحد القنصلين اللذين وكلت روما إليهما إفناء
 قرطاجنه ٢٢٩ - يحاصرها براً.

- ٦٤ - أول المعارك البحرية بين العدوين ٦٧ - صورة
 المعركة.

١٦٤ - فصل الخطاب بين الساميين والآريين ١٧٠ -
رأى المؤرخين فيها ١٧٤ - موقف هانيبال بعدها .

مجارا (حى الأثرياء فى قرطاجنه) :

٢١ - مظاهر العزفيه ٢٣٧ - حصاره ٢٣٩ - صورته .

مجلس الشيوخ فى روما :

٣٨ - رسل الاغريق تعرض الصلح ٤١ - أيوس
كلوديوس يخطب مستنكراً التسليم بها ٥٧ - يبحث فى نجدة
الأشرار ٥٨ و ٥٩ - تردده فى نجاتهم ٦٦ - «رجيلس»
يطالب باثارة الحرب ٧٢ - «رجيلس» يخطب ٧٣ - قرار
المجلس بىطلان يمين «رجيلس» ٧٥ - «رجيلس» يعطى أنبل
المثل وأسمائها - تسليم زوجته أسيرين من قرطاجنه رهينة فى يدها
١٥٠ - يقرر استقبال فارو ١٥٢ - يحتم على النساء الاستقرار
فى بيوتهن ١٧٠ - نبأ هزيمة «هسدروبال» وقطع رأسه
٢٠٨ - «كاتو» يهاجم قرطاجنه ٢٠٩ - صورته وهو
يخطب ٢١٤ - وفود قرطاجنه الذليلة أمامه ٢١٦ - يرسل
تعليماته إلى القنصلية تقضى بأفناء قرطاجنه .

مجلس الشيوخ في مضم

١٠٠ - يبحث موقف المدينة من طلب هانيبال - زعماءها
يحرقون أنفسهم .

مجلس الشيوخ في قرطاج

٢٤ - بيع الوظائف بالرشوة ٢٥ - هيئته وتكوينهما
٩٢ - ثور في وجه هملكار حين يعتزم غزو أسبانيا ٩٨ -
زعيم حزب السلام يطالب بتسليم هانيبال للأعداء ١٠٠ -
وفد روما يسأل عن موقف الحكومة من هانيبال في غزو
«سغنم» ١٠٢ - فايوس يتحدى الأعضاء ١٠٣ - صورته
وهو يقذف بثوبه في وجوه الأعضاء ١٠٧ - يأني استنكار
ما فعله هانيبال ١٢٧ - ماجو يخطب طالبا المدد بعد «كاني»
١٧٨ - بعد هزائم هانيبال المتوالية يقرر عودته لنصرة الوطن
١٨٥ - أحد الأعضاء يحتج على معاهدة زاما فيعتدى عليه
هانيبال ١٨٧ - احتجاج عضو على هانيبال لأنه يضحك
١٩٧ - هانيبال يحتمل معارضة المجلس وهو في قمة مجده
١٩٩ و ٢٠٠ - تكوين حزب ضد هانيبال ٢١٩ - ٢٢١ -
موقفه من الرسل الذين حملوا مطالب روما الأخيرة - جنونه -
٢٣٤ - يرحم قائدا له فيها كنه .

- مجلس السيوخ في طابورا :
- ١٤٣ - يقرر دعوة هانيبال بعد كاني - رغم أنف الأشراف
- ١٤٤ - انعقد ويحضره هانيبال

مسينا Messana :

- ٥٥ - قطاع الطرق في أرضها - اجتماع أهلها للمشاورة
- في أمرهم ٥٦ - ينزل بها الأشرار بعد مصرع « أجاثوكل »
- ٥٧ - خوف روما من تسلط قرطاجنه عليها .

مصر :

- ١٨ - اتصال القرطاجنيين بهم ١٩ - ينتشر المصريون
- في شوارع قرطاجنه ويتشبه بهم أغنياءها ٢١ - حضارتها
- عند أغنياء قرطاجنه

المغرب :

- ٣ - ملكه يسمع بجمال « إيلسا » فيطلب الزواج منها
- ويهددها بالشر إن رفضت ١٤ - دعوى رسله عند الملكة

مفرونية :

- ١٥٣ - انضمام ملكها إلى هانيبال بعد « كاني » ١٧٤ -

هانيبال ينتظر اشتباها مع روما بعد « متورس »
٢٠٧ - تتأهب لقتال روما

مهربال : Maharbal

١٤٦ -- يطلب إلى هانيبال غزو روما بفرسانه بعد « كاني »
فيرفض البطل

مولوك Molock

٢٢ - معبود قرطاجنه الآ كبر (Boal Hamman)

ن

نابليون

١٩٢ - سر بطولته - أنو شته ٢٠٦ - خوف الحلفاء
من خليفته ٢٧٢ - موقف فرنسا منه بعد أن نفاه الحلفاء ٢٧٢ -
قبره بين فرنسا « وهدسون لو » ٢٧٣ - شرفه العسكري
٢٨٢ - موقفه من ماري فاليفسكا حين دخل بولنده

نای :

١٩٢ - يقسم للويس بأن بجيئه نابليون في قفص
من حديد

نوميتور Numitor

٢٦ --- أخوه الأصغر يغتصب منه الحكم ٢٧ --- راعيه
يعثر بسلة فيها « رميلس وريمس » ٢٨ --- يقيم « رميلس »
مايكاً على البلاد

النوميتور نومر :

١٨٣ --- موضعهم في موقعة « كاني » ١٦٠ --- ملكهم
سيفا كس يعلن الحرب على هانيبال

نيرو Nero

١٦١ --- يخلف سينيوس في القيادة ١٦٥ --- روما تكل
إليه هانيبال --- ١٦٦ عئورجواسيسه على رسالة من هسدروبال
إلى أخيه هانيبال --- ١٦٧ --- يسير إلى زميله ليفيوس متخطياً
القانون ١٦٨ - يحمل رأس هسدروبال إلى معسكر هانيبال

هـ

هانو Hanno (زعيم حزب السلام) :

٩٨ --- يطالب المجلس بتسليم هانيبال إلى الأعداء
١٤٨ --- إعتراضاته في المجلس على النجدة التي يطلبها ماجو
١٧٩ - سخط هانيبال عليه

هاننو Hanno (قائد حربى)

- ٦٠ - يقوم من قرطاجنه لنجدة الأشرار المتمردين ---
تغذيته بعد إخفاقه ٦٨ - يطالب مواطنيه بالتأهب للقاء
العدو ٨٤ - فى دريانوم ضد أسطول بناه أثرياء رومعا .

هسدروبال

- ٢٧٢ - يكتب على قبر نابليون هنا يرقد ويريد إتمامها
« الجنرال بوناپرت » فرنسا تمنعه ٢٥ سنه

هسدروبال Hasdrubal (أخوه هانيبال) :

- ١٦٠ - يسير إلى وطنه ليرد هجوم سيفاكس
١٦١ - ثم إلى إيطاليا فى صحبة هسدروبال بن جيسكو وماجو
وماسينيسا بعد قهر سيفاكس ١٦٥ - من أسبانيا إلى إيطاليا
١٦٦ - رسالته إلى أخيه هانيبال ١٦٧ --- ١٧٠ معركة متورس
وإستشهاده بها . ورأسه أمام هانيبال

هسدروبال بن جيسكو :

- ١٧٨ - فراره بعد إحراق المعسكرين . زوجته تثير نخوته
٢١١ - يقود القتال ضد ماسينيسا ٢١٢ --- يقبل معاهدة ماسينيسا
الذليلة ٢١٣ - يقوم بتنفيذها --- حكم أمته عليه بالأعدام

٢٢١ - قيادته في السكفاح الأخير ٢٢٩ حماسه - ٢٤٨ -
التجاؤة إلى المعبد - ٢٤٩ - يجثو على ركبتيه يلتمس الغفران
من القائد الظافر وزوجته تلغنه ٢٥١ - صورته في هذا المنظر
٢٦٨ - استهاتته بكرامته ٢٧٤ - ذلته أمام قائد جنوده

هــرر و بال (صهر هملكار برقه) :

٩٥ - مميزاته --- يصاهر بيتا أسبانيا --- ٩٦ يبنى
قرطاجنه الجديدة ٩٧ - إغتياله ١٠٢ المجلس لا يعترف
بمعاهدته ١٠٧ المعاهدة مع الرومان

هــمـلـكـر

٦٩ - يقود جيشاً ينهزم أمام « رجيلس »

هــمـلـكـر برقه (أبو هانيبال)

٨٣ - يعسكر في دريانوم ٨٥ - يطلب الصلح بعد
إيجيت ٨٦ - يرفض تسليم جيشه في إريكس ٩٠ - يحمّد
حرب الأشرار المتمردين ٩١ - فتوته رغم اضمحلال وطنه
٩٢ - يفكر في إقامة امبراطورية في أسبانيا ٩٣ - صورة
الفيلة التي سخرها لأخماد الحرب ٩٥ - يصطحب ابنه هانيبال
في سن التاسعة إلى ميدان الحرب في أسبانيا

هيرو Hiero

٥٥ و ٥٦ - يحاصر قطاع الطرق في مسينا ٥٨ - روما في
مودة معه قبل نجدة الأشرار - معاهدته مع قرطاجنه ٦٠ - إصراره
على إزعاج الأشرار ٦١ - هزيمته أمام الرومان وانضمامه
لهم ٨٦ - أمانه من قرطاجنه بعد إيجيت

ي

يوتيكا Utica

٨٩ - الأشرار يقتصبونها من هملكار بالعنف البالغ
ويقدمونها إلى روما ١٧٥ - حصار سيبيو لها

يونان

١٩ - ينتشر أهلها في شوارع قرطاجنه ٢١ - قرطاجنه
تلتبس عندها مظاهر الحضارة ٤٨ - يهاجمها الفرس
٥٢ - ييوس يأمل في سيادتها كلها

فهرس الكتاب

UNIVERSITY OF CALIFORNIA
LIBRARY

فهرس الصور

صفحة	
٢٣	قرطاجنه تقدم أطفالها للنار قرباناً لمعبودها الأكبر
٣١	« ريمس » يتردى على الأرض قتيلاً إثر طعنة من أخيه « رميلس » بان روما
٣٥	بنات « السابين » يتوسطن في إيقاف الحرب بين أزواجهن وآبائهن
٣٧	معركة بين أهل الغال والرومان
٣٩	وصول « بيروس » إلى « تارتوم » لنجدها ضد الرومان
٤١	« أبيوس كلوديوس » يحمله الأعضاء الى منصة الخطابة في مجلس شيوخ روما ليشير نخوتهم ويستنكر تسليمهم بمطالب الأغريق
٤٧	صورة رمزية لبعوث قرطاجنه للاستكشاف
٥٠	« » لالتقاء مطامع العدوین في أرض صقلية
٥٩	نجدة الرومان الى قطاع الطرق المتمردين
٦٢	احدى سفن الأسطول القرطاجنى — أمير البحر « » « الرومانى
٦٥	الرومان يبنون أول أسطول لهم
٦٧	أول مرحلة من مراحل الصراع على أديم الماء بين روما وقرطاجنه (في مايل)

- ٧٥ « رجليس » يخطب في مجلس شيوخ روما مصوراً أنبل المثل وأسمى المبادئ
- ٧٧ « رجليس » يصر على العودة الى عدوه وزوجته تلتس منه البقاء رحمة بها وبولديها فيأبى مرضاة لضميره
- ٩٣ هملكار في اخماد الحرب التي أثارها الأشرار المتمردون
- ٩٩ هانيبال في التاسعة من عمره يتقدم الى المذبح ليقسم بين يديه على أن يغض الرومان ما عاش
- ١٠١ « سغتم » تتجرع الويل على يد « هانيبال »
- ١٠٣ « كوتنس فايوس » يخطب في مجلس الشيوخ في قرطاجنه ويتحدى الأعضاء فيلقى بثوبه في وجوههم ويعلن الحرب من جديد
- ١٠٥ هانيبال يعبر الألب لأول مرة في تاريخ الإنسانية
- ١١١ الفيلة في جيش هانيبال تعبر نهر الرون في أرماث
- ١١٥ القيل في ميدان القتال
- ١٢١ معركة بين جنود « سيبو » وجنود « هانيبال »
- ١٢٣ هانيبال يستعرض قادة الغالين وزعماءهم ليعرف مبلغ ولائهم له
- ١٢٧ قتال العدوين في مياه « ترازمين »
- ١٣١ ألفان من الثيران يوقد « هانيبال » في قرونها عساليج ليرتاع العدو حين يفاجأ بها
- ١٦٩ رأس « هسدروبال » الشهيد على حجر جندى أمام أخيه هانيبال
- ١٧١ معركة « ترييا »
- ١٧٧ ماسينيسا يقوم باحراق معسكرى « سيفاكس » وقرطاجنه

- ١٨١ هانيبال على ظهر سفينته وهو عائد الى وطنه (بعد ٣٦ عاماً يحمل
من الآلام مالا يحمله المنفى بعيداً عن وطنه
- ١٨٣ الفيلة في جيش هانيبال في معركة زاما
- ١٩٣ هانيبال
- ٢٠٩ « كاتو الكبير » يخطب في مجلس شيوخ روما مستفزاً الأعضاء
طالباً تدمير قرطاجنه وملاشاتها من الوجود
- ٢٣٣ « ماسينيسا » ملك النوميديين مسجى على فراش الموت وأولاده
مع « سيبيو » من حوله
- ٢٣٩ الرومان يحطمون أسوار قرطاجنه
- ٢٥١ « هسدروبال » جاث على ركبتيه يلتمس الغفران من « سيبيو »
وزوجته على سطح المعبد تلغنه ثم تطعن ولديها وتقتل نفسها
خلاصاً من ذل الرومان
- ٢٥٣ « سيبيو » بعد أن وارى قرطاجنه وأهلها التراب

خرائط الكتاب

- ١ - حوض البحر الأبيض وفيها شتى
الاسماء التي يحتاج إليها القارىء
مقابل ص ٩
- ٢ - خريطة تبين مواضع العدوين في موقعة « كاني » ص ١٣٧
- ٣ - خريطة تبين قرطاجنه في مختلف مبانيها ٢٢٨ و ٢٢٩
(مع ملاحظة ان كلمة « سغتم » في الشاطئ الشرقى لاسبانيا تنقص بالخريطة حرف الميم)
بين صفحتي
- والأولى قد تفضل برسمها على هذا الوجه الدقيق الأستاذ
محمود كامل مدرس مادة الخرائط بكلية الآداب بالجامعة
المصرية . وأما الثالثة فقد قام برسمها وبذل الجهود المضنية في
توضيحها : الأخ أنيسى أنسرى عبده
- ويرى القارىء في ص ١٨١ صورة ناطقة بآيات الفن
البديع تمثل هانيبال في موقف رائع حين كان عائداً إلى قرطاجنه
بعد ستة وثلاثين عاماً قضاها في ميدان القتال بعيداً عن وطنه .
ولعل القارىء يدهش حين يعلم أن الفنان الذي تولى رسم
هذه الصورة الممتعة مستمداً نسيجها من وحي الخيال :
طبيب ... ! هو الفنان المبدع . « الدكتور يوسف سلام » وقد
تفضل برسمها بعد أن عجز عن تصوير فكرتها فئة من محترفي
الفن في مصر ... ! فلحضراتهم جميعاً أوفر الشكر وأجمل التقدير

فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
تأيج « كاني » ا — على قرطاجنه	ج مقدمة الكتاب
١٤٢ ب — على روما	٣ تاريخ الحوادث الواردة في الكتاب
١٥٠ ب — على روما	٩ نشأة قرطاجنه
١٥٥ الى الهاوية	١٨ كيف كان يحيا أهلها
١٦٤ متورس أو سيادة أوربا على آسيا	٢٦ نشأة روما ونموها
١٧٢ في قاع الهاوية	٤٣ هذا هو الشعب
١٩١ هانيبال قائداً وشريداً	٥٠ أصلح الميادين للاحتكاك
٢٠٦ بداية النهاية أو الاسترسال في قبول الهوان	٥٥ كيف احتك العدوان
٢٢٥ البعث	٦٦ الرومان في افريقيا
٢٤٤ أمة تفتى وتتوارى من التاريخ	٧٩ عود الى صقلية
٢٥٧ تحليل هذا الكفاح ورده الى أصوله وعمله	٨٧ اقامة امبراطورية في أسبانيا
٢٨٧ كشف	هانيبال يعبر الالب لأول مرة
٣٢١ فهرس الصور	في تاريخ الانسانية
٣٢٤ فهرس الخرائط	فتح ايطاليا : اترينيا - ب ترازمين -
٤٢٥ فهرس الكتاب	ج- سياسة التواني في اضرار النار
٣٢٦ مصادر الكتاب	١٣٥ مجزة كاني

اهم مصادر الكتاب

هذا أول كتاب عرفته اللغة العربية عن هذا الموضوع
الطريف - فيما نعلم - مع أن علماء الاجتماع وأهل التاريخ من
كتاب الغرب قد تناولوه بمختلف الدراسات ، وكتبوا عنه في
شتى اللغات مئات الموضوعات ...! ولا يعجبني القارئ لهذا
التقدير ، فإن روما - فيما يبدو لي - كانت أكثر بقاء الأرض
موضوعاً للدرس عند العلماء ، وقد اطلعت في موضوعي هذا
على عشرات المؤلفات. ولكن أكثرها لم يفدني في شيء أكثر من
سرد الحوادث التاريخية ، فرأيت ألا أذكر من المصادر إلا
ما أعانني على تصوير « الجو المعنوي » الذي حاولت تهيهته في
كتابي هذا - إذ ليس الغرض من ذكر المصادر في مثل هذا
الموضوع هو « إحصاء » المؤلفات والمصنفات التي تناولته ،
وإلا لكان الأمر هيناً لا يستدعي قراءتها كلها - مادامت سرداً
للحوادث التاريخية لا تتجاوزها - ولا يتطلب أكثر من بضع
ساعات يقضيها الإنسان في دار الكتب أو في مكتبة الجامعة
المصرية يخرج بعدها وفي يده قوائم مطولة بأسماء المراجع
والمصادر ...!

1. Mommsen (Theodore) : The History of Rome
2. Church. (A. J.) & Gilman (A.) : Carthage.
3. Gilman (Arthur) The story of Rome.
4. M. Dureau de la malle : Carthage.
5. Berkley, (E.) A new History of Rome.
6. Baker (G. P.) : Hannibal.
7. Spenser Wilkinson : Hannibal's march through the Alps.
8. Universal History of the World (written by one Hundred & Fifty of western Authorities in all Branches of Historical knowledge and edited by J.A. Hammerton) Vol. III
9. Hallword, (B.L.) the Cambridge Ancient History (Rome & the mediterranean, edited by Cook, adcock & Charlesworth Vol. VIII
10. The Historians' History of the World. (Edited by Henry Smith Williams. L. L. D. and others.) Vols II & V.
11. Huchinson's History of the Nations Vols 1 &
12. Pelham. Outlines of Roman History.

B 13169955
L 15027768

في يوم الاربعاء ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦
ثم طبع كتاب « قصة الكفاح بين روما
وقرطاجنه » بدار النشر الحـديـث
« مطابع أحمد الصاوى محمد » بالقاهرة
٧ شارع فؤاد الأول - تليفون ٥٥٤٥٥

UNIVERSITY OF CAIRO





